العتابي

حياته وأدبه

مسعد بن عيد مسعد العطوي

الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله سبحانه، وأصلي وأسلم على نبيه الكريم أفصح من نطق بالبيان.

وبعد:

فقد اتجهت نيتي إلى البحث عن موضوع لم يطرق من قبل والكشف عن مجهول لم يتنبه إليه الدارسون، وبعد محاولات البحث توجهت إلى أستاذي الأديب الشاعر حسن جاد، فأشار علي بالبحث عن عمرو بن كلثوم العتابي، فراقت لي الفكرة فتتبعت أخباره وآثاره فلم أجد لشعره ديواناً ولا لنثره كتاباً، وإنما وجدت أدبه مبثوثاً في مختلف الكتب والمصادر.

ومع أن الرجل كانت له مكانة أدبية مرموقة في القرن الثاني الهجري، وكان له نشاط نثري وشعري، إلا أنه لم يهتم به أحد من الدارسين إذا استثنيت كتيباً صغيراً كتبه عنه الدكتور أحمد محمد النجار بعنوان: "العتابي: أديب تغْلِبَ في العصر العباسي"، لكنه لم يوف العتابي حقه من الاستقصاء والاستيعاب، فآثرت أن أسهم بجهدي في التعريف بهذا الرجل والنهوض بدراسة أدبه ليأخذ مكانه بين أعلام الأدب العربي، فإنه من أبرز هؤلاء الأعلام عقلاً وأدباً ونقداً، إلى جانب أنه من الرجال المعدودين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية، فقد أجاد اللغة الفارسية واطلع على كتب المنطق والفلسفة والحكمة، ونحو ذلك مما كون له شخصية علمية عميقة الفكر واسعة المعرفة.

وقد اقتضى البحث أن أقسمه إلى الأبواب والفصول التالية:

الباب الأول:

ألقيت في الفصل الأول الضوء على عصره سياسياً واجتماعياً وأدبياً، مشيراً إلى أثر ذلك كله في أدبه.

وفي الفصل الثاني: تتبعت حياته ونشأته وثقافته ورحلاته واتصالاته، ونحو ذلك مما يلقى الضوء على كل جوانب حياته ومؤثرات أدبه.

الباب الثاني:

خصصته لدراسة شعره حيث مهدت ببيان حالة الشعر في عصره، ثم درست في الفصل الأول منه فنون شعره محللاً للنماذج والشواهد.

أما الفصل الثاني: فقد خصصته لخصائص شعره وآراء النقاد فيه، وقد خصصت فصلاً ثالثاً لديوانه حيث قمت بجمع شعره وتحقيقه وشرح كلماته وأثبته حسب ترتيب الحروف الهجائية.

الباب الثالث:

خصصته لدراسة نثره حيث مهدت ببيان عن حالة النثر في عصره، وقد تحدثت في الفصل الأول منه عن ألوان نثره، من رسائل وحوار وأقوال مأثورة وخطب، ثم تحدثت عن خصائص نثره وعن أقوال النقاد في نثـــره، ثم أتيت بأقواله في البلاغة ونقده للشعراء، وختمت الباب بفصل جمعت فيه آثاره النثرية.

ثم أنهيت البحث بخاتمة لخصت فيها نتائجه، وأرجو أن أكون قد وفقت بالتعريف لهذا الرجل، وفي رسم صورة واضحة المعالم لشعره ونثره.

ولعلَّ اللافت في هذا المؤلف ما كان من تكرار الأخبار والنصوص، وإن لي في ذلك شفيعين، الأول: أنني جمعت هذا المؤلف من بطون كتب متباينة ومتباعدة، فكان لزاماً أن تتكرر الأخبار والنصوص في معرض الموازنة والمقارنة، فهو الأديب المقِل في إنتاجه كمّاً المكثر في معانيه وإيحاءاته باحتمالات النص واتجاهاته، وأما الثاني ففيما فرضته أساليب الدراسة من تكرار النص والخبر في الأغراض والخصائص والآراء، وقد التمست لجنة المناقشة للرسالة العذرَ في هذا بعد الوقوف على الرسالة بإمعان.

هذا وقد سعدت بحوار علمي ومنهجي من الأستاذين الأديبين الأستاذ الدكتور/ إبراهيم علي أبـــو الخشـــب والدكتور/ علي علي صبح، وكانت المناقشة في قاعة العقاد بمبنى كلية اللغة العربيـــة بـــالأزهر عـــام ١٣٩٩ه ١٩٧٩م، وقد حضرها جمع من الزملاء والأصدقاء زمن الدراسة، وأتذكر منهم، الدكتور/ عبدالعزيز محمـــد الزير، والدكتور/ فهد سنبل، والدكتور/ معيض العوفي؛ ذكرتهم لتواصل الود واللقاء معهم.

وربما سائل يسأل عن تأخر طباعة هذه الرسالة فأجيب عن هذا بأن النية كانت تتجه إلى زيادة البحث والتمحيص، والتحليل لأدبه، ولكن عند العودة إليه آثرت نشره على حالته، ما عـــدا بعـــض التعـــديلات في التمهيد، وتصحيح بعض الأخطاء، وتعديل عبارات مندودة. وختاماً فإني أكرر الشـــكر والتقـــدير للأســـتاذ الدكتور/ حسن جاد، فقد كنت متواصلاً معه، وإني لأدعو الله له بالمغفرة والرحمة بعد مماته، فقد عاش هـــذا العالم أستاذاً جامعياً، وشاعراً منتقداً مجتمعه، وإن كان ينسب بعض معاصريه شعره للهجاء، لكـــني أره نقـــداً اجتماعياً، وهو يتوجس السياسة العربية والمصرية، وكانت تتخذ حيزاً كبيراً من مجاله ولا تنقصـــه الصـــراحة، فرحمه الله رحمة واسعة.

"إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس
كلثوم بن عمرو العتابي،
فضلاً عن رسائله وشعره،
فلن تروا أبداً مثله"

يحيى بن خالد البرمكي

الباب الأول

عصره وحياته

الفصل الأول عصره

- الحياة السياسية.
- الحياة الاجتماعية.

الحياة السياسية (١):

بدأت الدعوة العباسية تدب في خراسان من قبل سبعة وعشرين عاما- قبل قيام الدولة العباسية-، وذلك بقيادة الإمام إبراهيم بن علي العباسي من قرية الحميمة بالأردن [٢]، حيث وضع مع أنصاره خطة محكمة الإتقان للدعوة للصالح من آل البيت.وقد وكل بها نقباء لا يعرف أحدهم الآخر؛ فلو يُقبض على أحدهم لا يُدرَى عن الآخر شيء. واجتهد الدعاة في مهمتهم ووجدوا ظروفاً صعبة، لكنها نشأت في العراق وخراسان اللّذين يكثر فيهما الموالي والشعوبية، وقد مالوا للتشيع لآل علي في الكوفة، حيث عرف عن الأمويين عصبيتهم للعروبة، وتقديمهم لها، فتمنى الموالي زوال حكمهم، لذا هبوا جادين لنصرة الصالح من آل البيت، ودخلوا في الدعوة زرافاتٍ ووحداناً، حتى تجسدت ثورة قوية، فأصبح قائدها والمشرف عليها أبو سلمة الخلال، وجعل قيادة أهل فارس تحت إمرة أبي مسلم الخراساني القائد المحنك الذي جمع الجموع حوله، ثم أوقع الفتنة بين نصر بن سيار والكرماني، حتى ضعف والي بني أمية نصر بن سيار، فأعلن الحرب عليه، وقامت الثورة فاستولى على خراسان كلها، واتجه إلى العراق ففتحها، وأعلنت الخلافة العباسية في الكوفة سنة ١٣٢ه للعباس السفاح عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس المتوفى سنة ١٣٦ه فاتخذ من الأنبار عاصمة له.

واتجهت الجيوش إلى بقية الأقطار الإسلامية لتبني بها كيان الدولة العباسية وملاحقة بني أمية، وقد نجحت في ضم تلك المناطق إلى الخلافة العباسية، ما عدا الأندلس التي لجأ إليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المسمى بالداخل صقر قريش كما سماه المنصور.

وقد صاحب قيام الدولة مخاطر وفتن كثيرة كمثل: قتل القادة الذين قاموا بها، والفتك ببني أمية وثورات الهاشميين، حتى استتب الأمن على يد أبي جعفر المنصور، وقام بإدارة الدولة إدارة حكيمة، وسهر الليالي، وبخل بالمال من أجل مصلحتها، ثم جاء ابنه المهدي فوجد الخزائن مملوءة، وهنالك بدأ بنشر الإصلاح في البلاد، وأعطى الأموال للشعراء والقادة، ثم جاء ابنه الهادي، فلم يمكث كثيراً حتى تولى هارون الرشيد من بعده، وعهده حافل بالأحداث، وشخصيته لها دورها الفعال في التاريخ، فقد احتضن البرامكة، وسلم إليهم مقاليد الحكم في أول أمره، فعظم النفوذ الفارسي في الدولة العباسية.

---

(١) انظر، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د. حسن إبراهيم حسن. العصر العباسي الأول شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، د. إبراهيم أبو خشب. تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ.

(٢) قرية جنوب الأردن.

وقد تمرد عليه أيضاً مالك بن طوق، وهو من قبيلة العتابي، كما تمرد عليه الوليد بن طريف الخارجي، فقام الرشيد بنكبة البرامكة، وكان يغزو عاماً بنفسه إلى بلاد الروم، ويحج عاماً [٣].

وقد عاصر العتابي الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون، وشارك في وداع المأمون حينما سافر إلى مرو عاصمة خراسان، وقد عاصر تطاحن الجيوش التي تؤيد الأمين والمأمون حتى تم انتصار طاهر بن الحسين قائد المأمون وقتل الأمين، وبقي المأمون بعد خلافته مدة في مرو، لكنه فيما بعد سافر إلى بغداد سنة ٢٠٤ه، فزاره العتابي فيها وأكثر مجالسته.

وكان أهل بغداد قد ثاروا عليه حينما تولى عمه إبراهيم بن المهدي، وذلك لأن العباسيين غضبوا عندما عزل أخاه وتوليته للرضا لولاية العهد مكانه، فلما قدم المأمون إلى بغداد اختفى إبراهيم ثم عفا عنه المأمون.

وكان عهد المأمون هو العهد الذهبي للعلوم، فأصبحت حرية التفكير وحرية القلم وحرية المجادلة والمناظرة من سمات عصره، وأخذ يشجع العلم والعلماء

ويجالسهم ويناظرهم ويجادل معهم، فهو الخليفة العالم المناظر. ولذا تزاحم العلماء ببابه، وحاول كل منهم أن يحتضن المأمون مذهبه الذي يعتقده، وكانت صولة المعتزلة هي الأقوى، فاستطاعوا إقناع المأمون بمذهبهم، بل اعتقده وجعله مذهب الدولة الرسمي، فمن لم يؤمن بخلق القرآن فإنه سيعذب وسيقتل، وبدأت هذه الفتنة في عام ٢١٢ه، وزاد اشتعالها في عام ٢١٨ه، حيث أمر المأمون بأن كل فرد في الدولة لم يعتقد بمذهب الاعتزال يحاكم في بغداد، وقد وقف أمام المحنة أحمد بن حنبل، فأحضره المأمون، لكن الموت عاجل المأمون قبل وصول أحمد إليه [٤]، فقام المعتصم بتعذيبه، وكان العتابي أحد شعراء العصر.

والعتابي كثير الاتصال بأصحاب النفوذ، فقد اتصل بالبرامكة، واختص بهم زمناً، يمدحهم فيجزلون له العطاء ويعودونه إذا مرض. وقد تولى الجزيرة رجل يقال له طاهر بن علي، فلم يعجب به العتابي، لذا نجده يتفكه بعزله عندما عُزل فيقول[٥]:

يـــا صـــاحِبًا متلوِّنـــاً ... متباينـــاً فِعْلِـــي وفِعْلُـــهْ
مـــا إِنْ أُحِـــبُّ لـــهُ الـــرَّدَى ... وَيَسُـــرُّنِي واللهِ عَزْلُـــهْ
لَمْ تعْـــدُ فيمـــا قُلْـــتَ لي ... وفَعَلْتَ بِـــي مـــا أَنْـــتَ أَهْلُـــهْ
كَـــمْ شـــاغِلٍ عَدْوتيـــه ... وفـــارِغٌ مَـــنْ أنـــتَ شُـــغْلُهْ

وقد سار حكم الخلفاء العباسيين على نهج واحد لمدة تقارب مائة عام، فالكلمة الفصل للخليفة والقول

(٣) انظر تاريخ الإسلام ٢: ٥١

(٤) المصدر السابق: ٣: ٧٦.

(٥) الأغاني: ١٣: ١١٩..

قوله، فالخليفة يأمر بكلمة مختصرة فيُنفذ الأمر على علاته، ومجلس الخليفة ليس بالسهل الوصول إليه، وإنما في شبه عزلة من الشعب لا يدخل إليه إلا بإذن وبإرادة الحجاب والوزراء، كما كان يفعل الساسانيون. وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد، حكم لا يحسب فيه أي حساب للرعية، فهي أدوات مسخرة للحاكم، وليس لها من الأمر شيء، ولا سيما إدارة البلاد وسياستها ولا وجود لمعالجة القضايا الاجتماعية؛ ففي يده كل الأمر والسلطان: ((يولي الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة المحتسبين الذين يراقبون الأسواق، ويعزلهم جميعاً، حسب مشيئته وهواه. وكان يختار الوالي غالبا من أهل بيته، أو من أَكْفَاءِ حاشيته وخاصة الأعاجم، وكذلك كان يختار قواده. ومن البيوت العربية التي لمعت في هذا العصر بيت المهلبيين وبيت معن بن زائدة الشيباني)) [٦].

ولما قامت الدولة على أكتاف الفرس نجد أن الخلفاء عرفوا فضلهم وأقدارهم، وأنزلوهم المنازل العالية، فنجد أن الوزراء منهم، فما يذهب وزير حتى يأتي آخر، وما تذهب مكانة أسرة حتى تأتي أخرى، وكانت البداية بأبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني، ثم بجمع من الوزراء في عهد المنصور والمهدي والهادي حتى جاء الرشيد، فسلم إلى يحيى بن خالد البرمكي مقاليد الحكم كلها، وأصبح نفوذهم كاملاً غير منقوص، فولى ابنه الفضل وجعفراً شطري الخلافة؛ المشرق والمغرب، وأصبحت الرواتب والهبات والصلات بأيديهم، يصلون من يشاؤون، حتى إذا ما أفل نجمهم جاءت أسرة أخرى مكانهم من الفرس بالذات، أسرة الفضل بن سهل وأخيه الحسن، كما ظهرت أسرة طاهر بن الحسين، وهكذا، وتعود أسباب هيمنة الفرس إلى ما ذكرنا سابقاً، وإلى طاعتهم التي لا حدود لها، في حين نجد أن العرب أبعدوا عن السلطة وإمرة الولايات وقيادة الجيوش [٧].

وكانت هذه الأسر تتنافس على نشر المبادئ والتقاليد والعادات فضلاً عن الكتب والعقائد الفارسية، " فتقاليد الساسانيين حُوكيت حتى في أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم، وكان ما دخل منها في شؤون الحكم أقوى قوة، مما دفع كثير من الفرس إلى ترجمة الكتب ذات المضامين الإدارية والسياسية والسلوكية من الفارسية إلى العربية، وعمل ابن المقفع في هذا الميدان ذائع الصيت؛ فقد نقل إلى العربية طائفة من الكتب والرسائل التي تتصل بالحكم الساساني ورسومه، من مثل كتاب " آيين نامه"، ومعنى آيين النظم والتقاليد، و لم يقف عمله في هذا الصدد عند الترجمة، فقد نقل في رسائله القصيرة والطويلة كثيراً من وصايا الفرس في السياسة والحكم على نحو ما يلقانا في رسائله المعروفة باسم " الأدب الصغير" و" الأدب الكبير" و" رسالة الصحابة "، وهو يريد بهم صحابة السلطان وحاشيته. وقد شجع البرامكة وبنو سهل - بعد ابن المقفع- المترجمين على نقل كثير من الكتب والرسائل التي تحمل تقاليد الساسانيين في الحكم والسلطان، وقد فقدت الكثرة الكثيرة من هذه الكتب، ولكن بقيت منها نصوص وفيرة تلقانا في حديث الطبري عن الفرس في أوائل تاريخه الكبير، وفي مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري، وفي عيون الأخبار لابن قتيبة. ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا: إن النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية طبعت بطوابع فارسية قوية، تولت في

(٦) العصر العباسي الأول ٢١.

(٧) انظر تاريخ الإسلام ٢: ١٦٤.

أثنائها الخلافة ملكاً كسروياً يقوم على الاستبداد والقهر والبطش الذي لايعرف رفقاً ولا لِيناً" [٨].

(٨) انظر، تاريخ الإسلام ٢٥٣ والعصر العباسي الأول ٢٥: ٢٦.

الحياة الاجتماعية (٩):

حينما تنظر إلى العصر العباسي وإلى البلدان التي يرفرف عليها علم الدولة العباسية تجد بلداناً شاسعة متباعدة، ومن الواضح أن الأجناس يختلفون من إقليم إلى إقليم بل من قرية إلى قرية، فكيف إذا بعدت الشقة واختلفت اللغة واللون والعادات والتقاليد والطبائع والعقائد، زد على ذلك أثر البيئة الجغرافية من المناخ الحار دائماً إلى البارد دائماً إلى ما يجمع بين ذلك، إنه لاختلاف كبير حقاً، فكيف إذا انساحت تلك الأنهار في مصب واحد في عاصمة الدولة الإسلامية العباسية بغداد، فلابد أن يحدث من التفاعل الشيء الكثير.

إن هذه المجتمعات كلٌّ منها له ميزته ومعلوماته وعاداته وتقاليده وثقافته، فكيف إذا تلاحمت واندمجت وتعاونت مع بعضها، وتجسدت في إخراج جيل واحد، إنها ستنتج أجمل الأشياء وأحسنها، زد على ذلك إذا اجتمع لها المال فإنه سيزداد الترف والتأنق، وقد ظهر ذلك جلياً في العمائر وما تحويه القصور من زخارف، وقد حدثنا عن ذلك شوقي ضيف فقال: "وقد كشفت حفائر سامراء عن طريق بناء الدور والقصور لا فيها فحسب، بل أيضاً في بغداد، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مستوف يفضي إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان. وتتناثر في الدهليز والفناء غرف متجاورات للسكنى والمرافق المترلية، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة. وبجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانوية تعلوها بعض القباب وأكبرها جميعاً قبة الإيوان. وفي الدار حمامات ومجارٍ تحت الأرض وسراديب معدة للسكنى، وتكثر الأساطين في الأفنية، وتكثر الشرفات وتلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبرك. وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملون، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يُذهّب السقف والأبواب والحيطان، وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمينية والطنافس ومناضد الأبونس والتحف الثمينة وتماثيل العقبان والجامات المذهبة والأواني المرصعة بالجواهر" (١٠).

كل هذا ناتج عن الثراء الواسع، فخيرات البلاد كلها تصب في بحيرة واحدة، وتحت هيمنة شخص واحد هو الخليفة، فمن اتصل به كان في خير وثراء، ومن ابتعد عنه كان في تعب وشقاء، لذ نجد العلماء والشعراء والأدباء وعَلِيّة القوم يتنافسون على رضا الخليفة، فمن نال الحظوة عنده فقد فاز فوزا عظيما، وسالت عليه أودية من الذهب ونعم بالحياة، فإنا نجد الأمراء والوزراء والقادة والشعراء والفنانين لا يقلون عما يبذله الخليفة من العطايا والترف بالقصور والأطعمة، حتى ليقال إنه لم يكن يُرى لجليس خالد البرمكي دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا خالد ابتاعها له، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها (١١)، وهكذا بقية علية القوم يتنافسون على

---

(٩) انظر، تاريخ الطبري، والأغاني ودواوين الشعراء العباسيين، والعصر العباسي الأول، وتاريخ الأدب العربي لإبراهيم أبو خشب..

(١٠) العصر العباسي الأول ٤٤: ٤٥.

(١١) العصر العباسي الأول ٤٧.

العطايا.

ولما كثرت الموائد الفاخرة التي تحتوى على أنواع متعددة من الأطباق نجد أنها كللت بتنظيم خاص وآداب يجب أن يتبعها الحاضر، فمثلا أن يضم شفتيه في المضغ، ولا ينظر إلى غيره، ولا يتجاوز جانبه.

وكان للمسامرة أدب أصبح معروفا ومنتشرا، بل أُلفت فيه العديد من الرسائل والكتب، كالصحابة لابن المقفع، والتاج للجاحظ، وغيرهما، ومجلس الخليفة وسائر الوجهاء يضم العديد من الشخصيات، فالمضحك والشاعر والعالم والفنان جنبا إلى جنب، وربما يلقى أحدهم كلمة ترفع صاحبها إلى مرتبة الوزراء، وأخرى تؤدي إلى نهاية حياته (١٢).

أما عامة الشعب فإنهم يستمعون إلى القصاصين والأساطير والحوائين، وقد يحاكون أنواعا من ترف علية القوم.

ومما جعل التفاعل في المجتمع يتجسد أكثر، وتظهر نتائجه الرقيق والرقيقات والجوارى، حيث يدخلن كل بيت وينجبن، وكثر الطلب عليهن حتى أصبح للرقيق سوق خاص يسمى سوق النخاسين، وقد كثر الفحش والمجون وكثر المغنون والمغنيات، وقد كانت من مهمة السوق تثقيف الجواري (١٣).

وقد اجتمعت محاسن البلاد في هذا السوق، فكان الشعراء يأتون ليحادثوا الجواري الجميلات، بل يكون التعلق بهن حاصلاً لا محالة، فيشدوا الشاعر بأنغمه وفي ذلك يقول أبو دلامة:

إن كنتَ تبغى العيش حلواً صافياً فالشعر أعزبه وكُنْ نخَّاساً

تنل الطرائفَ من ظرافٍ نُهَّدٍ يُحْدِثْنَ كل عشية أعراسا(١٤)

فهن إلى جانب الجمال والظرف والحسن سوق رابحة. وقد اجتهد هؤلاء النخاسون في تهذيب الجواري وتثقيفهن، وكل ما زادت الثقافة زاد الثمن. لذا شاع الغناء والظرف والفكاهات والأدب والشعر والفقه بينهن، واتصل ذلك بالبيوت حتى أغرم به أهل العصر، وعلى رأسهم الخلفاء والأمراء والوزراء والحاشية والقادة وعلية القوم كلها(١٥).

ولما زحف الفرس على الدولة العباسية بعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم زحف المجون وأشاعوه في الدولة العباسية، فقد كثرت مجالس الأنس والطرب ولا يخلو المجلس من الكؤوس المترعة بأنواع الخمور، بل غزت مجالس أكابر الدولة من الخلفاء والأمراء، وأول خليفة شربها من العباسيين الهادي وتلاه الرشيد بشرب النبيذ، لكن الأمين أكثر فعب منها وأدمن عليها وكون له مجلساً من شعرائها والمدمنيين عليها أمثال أبي نواس ومطيع بن أياس وغيرهم، وقد قال أبو نواس في مؤانسة الأمين:

نَبِّهْ نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسْ يسقيك كأساً في الغَلَسْ

---

(١٢) انظر، الأغاني: ١٧٩٨ وما بعدها، دار الشعب، وانظر ترجمة البرامكة في الأغاني وتراجم المشاهير من الولاة والأمراء والمغنيين.

(١٣) العصر العباسي الأول ١٥٩.

(١٤) الأغاني، انظر ترجمة المغنين والمغنيات مثل عريب والغريض، الجزء الأول من الأغاني.

(١٥) الأغاني الجزء الأول.

صـــــــرفاً كـــــــأن شُـــــــعاعها في كـــــفِّ شـــــاربها قَـــــبَسْ
تَـــــــذَر الفـــــــتى وكأنمـــــــا بلســـــــانه منـــــــها خَـــــرَسْ
يُـــــــدْعَى فيرفـــــــع رأسَـــــــهُ فـــــإذا اســـــتقلَّ بـــــه نَكَـــــسْ

وكثيراً ما يقترن في مجالس أنسهم الغناء والرقص والخمر، إذ تحول المغنون في كرخ بغـــداد وفي البصـــرة والكوفة بدورهم إلى حانات كبيرة للشراب والقصف كل مساء، فكان الشعراء وغيرهم يؤمونها للشراب على غناء (القيان) [١٦] وضرب الطبول والدفوف والغناء والرقص والخمر، ومن أشهر تلك الدور دار ابـــن رامـــين المقين في الكوفة، فقد جلب إليها طائفة من قيان الحجاز،وكان يختلف إليهن للشراب والسماع مطيع بن إياس وصحبة من الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيباني وروح ابن حاتم الباهلي،وعلى شاكلتها دار إسماعيـــل القراطيسى في بغداد[١٧]، فقد كانت مألفاً لأبي نواس والحسين بن الضـــحاك وأبي العتاهيـــة وغيرهـــم مـــن الشعراء[١٨].

وقد كثرت ذلك حتى أشبه الملاهي العصرية الليلية.

والكل يعرف أن الأمويين كانوا عرباً خلصاً، بل لا يتولى الخلافة من كانت أمه جارية. ويعاملون الموالى معاملة أقل، ولا يولّونهم لذا حقدوا على خلفاء بني أميه. وصاروا عوناً لكل من سولت له نفسه الخروج على بني أمية، فناصروا الشيعة، وناصروا الثورة العباسية، فلما قامت الدولة العباسية على أكتافهم اعتزوا وتـــذكروا ماضيهم مع العرب، حيث كانوا يحتقرونهم، فكرهوا العرب وكل ما يتصل بالعرب، حتى كرهوا الـــدين لأن العرب قاموا بنشره، لذلك ظهرت الزندقة والإباحية وغيرها من العقائد الهدامة. وقد قاد تلك الأفكار مجموعة من الشعراء الفساق، وبعض الكتاب كبشار بن برد وابن المقفع.

وظهرت موجة الزندقة في أوائل العصر العباسي، فحاربها المهدي، وقتل بعضهم ولكن إلى جانب ذلـــك "من المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل طاهر بن الحسين كانوا يذكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس، وقد تكاثر الشعوبيون بين عالم وأديب وشاعر [١٩].

الحياة الثقافية:

كان العرب أمة أمية قل منهم من تعلم القراءة والكتابة، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن على الرســـول صلى الله عليه وسلم (النبي الأمي) بدأ بقوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق " وهذا إيذان ببداية التعلـــيم والتعلم بدء مطلع الإسلام، وتعدد كتاب الوحي، وشجع على ذلك الرسول الكريم صلى الله عليـــه وســـلم، وكذلك كانت الخلافة الإسلامية بعده في حاجة إلى الكتاب والكتابة ليدونوا العلوم والمعـــارف، ويحصـــروا

---

(١٦) المقين: صاحب القيان.

(١٧) انظر تراجم هؤلاء في كتاب الأغاني.

(١٨) العصر العباسي الأول ٦٨.

(١٩) انظر العصر العباسي الأول ٦٧ وما بعدها. وانظر الرسائل الجامعية عن الشعوبية.

الأموال التي تفد. وفي أواسط وأواخر العصر الأموي بدأت العلوم والمعارف الشرعية والعلوم اللغوية تظهر شيئاً فشيئاً، كما ازدهرت معرفة الأنساب والتاريخ والقصص والحكايات، أما بقية العلوم فلم يبرز منها إلا الـــترر القليل.

لكن لما استقرت الدولة العباسية، واستتب الأمن، وأنشئت العاصمة بغداد، وهاجر إليها الناس من كـــل حدب وصوب، هب الناس إلى العلم والعناية به، فتواجد المعلمون وهم على ثلاث طبقات:

١ - معلم الصبيان وهو لعامة الشعب، وهؤلاء كانوا يكتفون بما يحمله الأولاد معهم من أكل جاهز وهـــدايا حسب إمكانية أهل الطالب حتى ضرب المثل برغيف المعلم.

٢ - معلم صبيان الطبقة الوسطى، وهؤلاء أحسن حالاً من ناحية التأهيل العلمي والمادي كما يقول الجاحظ: " يكون الرجل نحوياً عروضياً وقساماً فرضياً وحسنَ الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راويةً للشعر، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً"(٢٠).

٣ - معلم أولاد الخلفاء والأمراء والقادة، وهؤلاء على درجة علمية قوية، فمنهم العالم النحرير واللغوي الماهر والراوية القدير، كأمثال الفراء والكسائي والمفضل الضبي، وهؤلاء دخلوا في عليـــة القـــوم، وتنعمـــوا بالأموال والهدايا والهبات، حتى أصبحوا من الطبقات الغنية المترفة.

فإذا ما تعلم الفتى مبادئ القراءة والكتابة، واطلع على أنواع من المعارف من هؤلاء المعلمين، فإن هنـــاك مجالات واسعة للعلم والثقافة العالية كمثل المنتديات التي يتجمع فيها الشعراء وأنصارهم، فينتقدون بعضـــهم، ويحتدم النقاش، وتزداد الحجج، مما يفتح العقلية، ويزيد الثروة الحفظية والمعلومات الثقافية، فكثرت الأســـواق لذلك ومنها سوق المربد في البصرة والكوفة وبعض مجالس القادة والأمراء وبيوت الشعراء، وقد تعلم الكثير من أفراد المجتمع المدني حتى الرقيق والجواري، وأصحاب الحوانيت (٢١).

وهناك أيضاً حلقات المساجد المتعددة التي يحق لكل إنسان الجلوس فيها والاستماع لها، وهؤلاء غالباً من أجل العلماء وخيرهم كالحسن البصري وابن سرين وغيرهم، والتعلم في هذه الحلقات تعددت أنواعه وكثرت إلى جانب العلوم الدينية واللغوية والشعرية والفلسفية وغيرها.

ومع هذه النهضة أخذ الشباب يكتبون ما يلقيه العلماء عليهم في هذه الحلقات، فزادت حركة التـــأليف والطلب على الورق، مما دعا الفضل بن يحيى أن ينشئ مصنعاً للورق ليفي بحاجة الناس، ومـــا ســـاعد علـــى النهضة العلمية انتشار دكاكين الوراقين والعناية بالكتب وتكوين مكتبات خاصة ومكتبات عامة.

ونظراً لاختلاف الموارد العلمية في هذه الحلقات من عربية وفارسية وهندية ويونانية ورومانيـــة، فقـــد تجسدت مذاهب، وتكون أنصار لكل مذهب يأتون بالحجج ويدافعون عن نحلتهم، وخصمهم يحاول تثبيطهـــا وفقدان أهميتها، وهكذا أصبح الناس في موج صاخب من المجادلات والمناقشات، مما جعلها تخرج عن طورهـــا العلمي وتتجاوزه إلى السياسي، كما وقع أيام المأمون، فإنه أول الأمر فتح مجلسه لمناقشة الآراء كلها، "قـــرب المأمون إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كأبي الهذيل العلاف وأبي إسحاق وإبراهيم بن سيار النظام وغيرهـــم

(٢٠) البيان والتبيين ٤٠٣/١، العصر العباسي الأول ١٠٠.

(٢١) انظر تاريخ الإسلام ٢: ٣٢٠ وما بعدها.

ممن وافقهما وخالفهما (يريد المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار، وأجرى عليهم الأرزاق (الرواتب)، فرغب الناس في صنعة النظر، وتعلموا البحث والجدل، ووضع كل فريق منهم كتباً يدعم فيها مذهبه ويؤيد بها قوله" [٢٢].

هذا في صنعة العلوم ودورها، لكن الثقافة العامة قد انتشرت عفوياً في بغداد بصورة تلقائية، فهؤلاء الأشخاص من العرب وهؤلاء من الفرس، وآخرون من الهند، وآخرون من الروم، وآخرون من اليونان، وآخرون من مصر والشام، وهكذا، فقد تلاقح الفكر، وتواصل أربابه مع بعضهم البعض، وأخذوا تجارب بعضهم، وأكمل بعضهم الآخر، حتى خرجت أجيال مثقفة في تصرفاتها وإن لم تقرأ وتكتب، وهكذا يتم الصدام بين تلك العقائد والتقاليد والعادات والثقافات، فتنصهر في النهاية في بوتقة واحدة من ناحية التكوين الاجتماعي، لكن المذاهب الفكرية ما زالت تسعى لاستقطاب الموالين لها وتكوين فلسفتها.

وقد نشأ في هذا العصر المتكلمون، فنشأ الجدل الواسع والمناظرات العميقة والدراسات الدقيقة للفلسفة والمنطق لتكون الوسيلة المهمة في هذا الجدل الديني، فهناك الفرس والزنادقة بصفة خاصة يجادلون لمذاهبهم القديمة وماجوسيتهم عن طريق الشعوبية، وهناك الشيعة يدافعون عن معتقداتهم وهناك مذاهب متعددة، لكن تزعم كل هذا المعتزلة فإنهم يدافعون عن الدين جميع الفئات ويناظرون ويجادلون، ومنهم خطباء فصحاء ومناظرون ومجادلون، وقد درسوا المنطق والفلسفة، واستعانوا بهما، وقد سيطر هؤلاء المعتزلة على الجدل والمناظرة في العصر العباسي، بل توصلوا إلى الحكم، وأقنعوا المأمون بالمذهب، حتى كاد يكون المذهب الرسمي للدولة العباسية.

وقد كثروا وتفرقوا وتحولوا إلى فرق كثيرة منها: البشرية، والثمامية، والهذيلية، والنظامية [٢٣].

ونجد أن أكثر العلماء والشعراء تجسد لهم دور في هذه المعركة كالجاحظ وكثير من الشعراء وعليّة القوم.

وكانت المناظرات والمجادلات لها أصول وقواعد يعاب فيه أمور كثيرة مثل (العي) [٢٤] والحركات وسرعة الغضب، إلى جانب قلة التكوين الفكري.

وكان ازدهار العلوم الإسلامية له دور كبير في الثقافة العباسية، فهناك جامعو الحديث الشريف والمهتمون به، حيث نشأت علوم جديدة تابعة له كعلم الجرح والتعديل، أو علم الرجال وعلم المصطلح، إلى جانب الثورة التي أحدثوها حينما يجوبون الديار لأجل جمع الأحاديث، أو حينما يكون الاختلاف في رواية أو تكون المنافسة قوية حول اختيار المحدّث ذاته؛ هل يصلح لأن يكون راوية للحديث وحافظاً له [٢٥].

وكذلك علوم التفسير واختلافاتهم والعلوم المستقاة منها، كعلم الابتداء والوقف، وعلم غريب القرآن،

---

(٢٢) مروج الذهب ٣٤٥/٤، العصر العباسي الأول ١٠٥، ١٠٦.

(٢٣) الملل والنحل، الرد على الرافضة لأبي حامد المقدسي، تحقيق عبدالرحمن خليل الرحمن.

(٢٤) العي: عدم إجادة التصرف.

(٢٥) انظر كتاب الثقات للبستي.

وعلم قراءته، وعلم معانيه، وعلم ناسخه ومنسوخه، وعلم أحكامه [٢٦].

وهناك علم الفقه الذي كثر مدرسوه والأئمة فيه، كأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ومالك بن أنس، وهؤلاء تجمّع حولهم الطلبة، وكثرت الفتاوى، وكثرت الاحتمالات، فحدث اتساع في الفقه الإسلامي.

وعلم اللغة كان له دور أيام الأمويين، فواصل ازدهاره، فقد خرج المهتمون باللغة لنجدٍ والحجاز ليسمعوا من البادية، وليدونوا الأشعار القديمة ومفردات اللغة، حيث دون الخليل بن أحمد معجمه المسمى "العين" واستنبط مادة العروض، وقد كثر المهتمون باللغة والنحو حتى أصبحت مدارس ومذاهب معروفة، فهناك مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغداد، فكان لمن فيها شأنهم ولهم كلمتهم ولهم احترامهم، فقد خضع لهم الشعراء، واستشاروهم في قصائدهم [٢٧]، بل إن هؤلاء اللغويين درسوا أشعار القدامى دراسة وافية، وشرحوها، وعرضوها للناس، فدرسها الشعراء المهتمون بالعلم، لذا تحمس لها الطرفان الطالب والمؤدب حتى أصبحت الأشعار القديمة مثلاً تحتذى، وقد قام اللغويون والرواة بجمع الأشعار الموغلة في الغرابة، والتي تحتاج إلى جهد كبير، وذلك مثل المفضليات الأصمعيات، وقد شجع الخلفاء العباسيون ذلك، وشجعوا أولادهم على دراستها، بل أحضروا لهم المعلمين من علماء اللغة والنحو ورواة الأشعار كالمفضل الضبي والفراء والكسائي وغيرهم، وكان لهذا أكبر الأثر في الشعر، فنجد للشعراء رواة كباراً لهذا الشعر وعلماء به، لذا تمسكوا به واحتذوا حذوه، وقد اعتنى كثير من الرواة بجمع الشعر للشعراء ولشعر القبائل، فكانت هناك الدواوين الفردية للشعراء الجاهليين والأمويين. جمعوا فيها شعر القبائل، وصنفوه باسم كل قبيلة، ولم يصل إلينا إلا شعر الهذليين. فإنك تجد في شعرائهم الجزالة والفصاحة والقوة، لكن الحضارة لها فعلها ولها دورها في ظهور معالم الرقة والليونة والسهولة في الشعر، والدراسات القديمة والحديثة تشير إلى أن شعراء العصر العباسي يؤثرون الأسلوب القوي في المدح والفخر، ويميلون إلى السهولة والرقة في شعر المجون واللهو والطرب، ومنهم بشار وأبو نواس، بل بعضهم انحرف إلى السهولة والليونة في كل شعره كأبي العتاهية [٢٨].

ومن العوامل المهمة في الثقافة العباسية الترجمة، فإذا نظرنا إلى العصر الأموي لا نجد من اهتم بالترجمة إذا ما استثنينا خالد بن يزيد بن معاوية، حيث ترجم له في الصنعة والطب والنجوم، وتُرجم لبعض خلفاء بني أمية كتب نادرة، لكن لما جاء العصر العباسي واستقر الحكم لأبي جعفر المنصور، وهو رجل عالم مشهور، شجع العلم، وشجع الترجمة بصفة خاصة، فقد اهتم بالترجمة، وأول ما طلب ترجمته علم الفلك، وهو أول من عمل به من الخلفاء، وترجمت له كتب في أنواع متعددة من العلوم، فقد روى الدكتور شوقي ضيف أنه [٢٩]: "أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية، ومنها كتاب كليلة ودمنة، وكتاب السند هند، وترجمت له كتب أرسطا ليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الارثماطيقي، وكتاب أوقليدس".

---

(٢٦) انظر، البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، وكذلك كتاب الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه للقيسي، تحقيق د. أحمد فرحات.

(٢٧) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام.

(٢٨) تاريخ آداب العرب للرافعي، والعصر العباسي الأول ١١٠.

(٢٩) العصر العباسي الأول ١١٢.

وقد استمرت الحركة في عهد الرشيد الذي شجعها أيضاً، وذلك بإنشاء دار الحكمة التي يعمل فيها طائفة كبيرة من المترجمين، وقد قلد الرشيد هذه المهمة لأستاذ الترجمة يوحنا بن ماسويه، وأمره بترجمة الكتب القديمة الطبية مما وجد المسلمون بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سبوها حيث وضعه أميناً على الترجمة، ووضع له كتّاباً يكتبون بين يديه" (٣٠).

وقد ساهم إلى جانب الرشيد وزراؤه البرامكة، فإنه عنوا عناية واسعة بترجمة الكتب الفارسية، وترجموا كتباً أخرى عن الروم في الزراعة والطب.

ثم جاء عهد المأمون الذي ازدهرت فيه الترجمة ازدهاراً واسعاً، وبلغت القمة في ذلك لما لقيت من تأييد المأمون ذاته، بل هو يتوسط بنفسه عند الروم وعند الولاة يطلب منهم كتباً ليترجمها، وقد وكل الأمر لسهل بن هارون حيث "جعله المأمون كاتباً على خزائن الحكمة، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد، فأرسلها إليه واغتبط بها المأمون، وجعل سهل بن هارون خازناً لها (٣١).

فكان هذا مما ساهم مساهمة كبيرة في رفع الثقافة وانتشار العلوم وازدهار الشعر الخلفاء والأمراء وعلية القوم، فهم علماء ويشجعون العلم وأهله فضلاً عن تشجيعهم الوافر للشعراء الذين يمدحونهم، فقد أعطى المنصور الشعراء لكن ببخل، وأجزل لهم المهدي، فقد أعطى مروان لقاء قصيدة واحدة اهتز لها مائة ألف درهم. لكل بيت ألف درهم.

وجاء من بعده الهادي فلم يمكث طويلاً، لكن الذي شجع الشعراء وأغدق عليهم هو الرشيد، فكان يزن القصيدة والكتاب ذهباً، وسار على نهجه ابنه المأمون الذي ازدهرت الترجمة في عصره والعلوم كلها أكبر ازدهار، فكان يعطي العلماء والشعراء والمترجمين من الأموال الشيء الكثير.

وعلى ذلك فإن جلساء الخلفاء والمقربين إليهم ووزراءهم كلهم لهم باع في العلم والعربية، فكان العلم والأدب الوسيلة الأهم إلى الارتقاء إلى أكبر المناصب (٣٢)

وكان لهذه الأمور والعوامل أثرها الكبير في الشاعر العربي، فيحتويها ويتأثر بها من حيث يدري ولا يدري، وهي تكون جامعة للقديم والحديث من أفكار وأساليب وأذواق كما قال الدكتور شوقي ضيف: "وظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون، وبذلك أبقوا الشعر العربي على شخصيته الموروثة، وقد مضوا يدعمونها دعماً بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة، وأذواقهم المتحضرة المرهفة، فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاضل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة، بل يقوم على التواصل الوثيق" (٣٣).

---

(٣٠) انظر بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي واللغة والنحو بين القديم والحديث لعباس حسن وأخبار النحويين البصريين للسيرافي، تحقيق د. محمد البنا، والبرامكة وأثرهم في الأدب د. حسن ذكر حسن.

(٣١) العصر العباسي الأول ١١٤.

(٣٢) انظر تراجم كل منهم وغيرهم في كتاب الأغاني.

(٣٣) العصر العباسي الأول ١٥٩.

الفصل الثاني

- حياته.
- نشأته.
- ثقافته.
- رحلاته واتصالاته.

اسمه ونسبه:

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود بن عمرو بن كلثوم الشاعر بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب [٣٤].

وقد ذكر تاريخ بغداد تعديلا فذكر خنيس بدل حبيش "ودعمها بقوله: ساق غير أبي الفرج الأصبهاني نسب كلثوم بن عمرو فقال: حبيش مكان خنيس" [٣٥] كما زاد عبدالله بعد مسعود، ولا يفوت علينا أن الخطيب وقع في اختلاط، حيث أن صاحب الأغاني ذكر حبيش، و لم يذكر خنيس كما هو واضح فيما نقلناه عن الأغاني.

أما صاحب معجم الأدباء فقد ساق نفس النسب، وزاد ذكر: عبدالله بن مسعود، ووائل بعد تغلب أيضاً [٣٦].

ووافق صاحب جمهرة أنساب العرب الحموي فزاد عبدالله [٣٧].

وبهذا نرجح وجود عبدالله في نسبه لاتفاق ياقوت الحموي وابن حزم وتاريخ بغداد، وذكر صاحب زهر الآداب نسبه فقال: "كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبي" [٣٨] و لم أجد أحداً ذكر الحارث في نسبه غيره، مما يدل على ضعف الرواية.

كنيته ولقبه:

أجمع الذين أرخوا لحياته بأنه يكنى أبا عمرو ويلقب بالعتابي [٣٩] والعتابي نسبة إلى عتّاب أحد أجداده كما هو مذكور في سرد أجداده. ومن سياق حديث ابن قتيبة يتضح أن نسل عتاب تكاثروا حتى تكونت

---

(٣٤) الأغاني ١٠٩/١٣.

(٣٥) تاريخ بغداد ٤٨٨/١٢.

(٣٦) معجم الأدباء ٢١٢/٦.

(٣٧) جمهرة أنساب العرب ٣٠٤.

(٣٨) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

(٣٩) تاريخ بغداد ٤٨٨/١٢، معجم الأدباء ٢١٢/٦: ٢١٣.

قبيلته التي تنسب إليه، فهو يقول: "هو كلثوم بن عمرو بن تغلب من بني عتاب"(٤٠).

قبيلته:

هي "بنو تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أمضى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن سرار بن معد بن عدنان" (٤١).

وما دام أنهم من أبناء عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم فلا بد أنهم نشأوا في جزيرة العرب، وقد اتجه بعض أفراد القبيلة وبطونها إلى نجد شرق الحجاز واستوطنوها، وهناك قويت شوكتهم وظلوا بها زمناً غير قصير، وكانوا مختلطين مع أبناء عمهم بني بكر وتحت ظل سيادة واحدة، وشيخ القبيلة يحكمهم، بل لم يقتصر على القبيلتين فتناول قبائل ربيعة كلها، فوائل بن ربيعه الملقب بكليب والذي قتله جساس سيد ربيعة بعد انتصاره على القبائل اليمانية، لكن القبيلة كثر عددها وكثرت حروبها وزادت أطماعها فاتجهت إلى محاذاة العراق والشام، فتفرقت في تلك البلاد" ولما تشعبت القبائل نزل بنو تغلب وغيرهم من ربيعة، هضاب نجد والحجاز وتخوم تهامة" (٤٢).

وكانت هجرتهم على مراحل متعددة وليس باتفاق القبيلة، إنما هي لظروف حربية، وأخرى لمتابعة الأعشاب والأرزاق، "واستغرقت هجرتهم إلى الجزيرة بالعراق قروناً فكانت بطيئة وعلى مراحل، و لم تنته إلا في العهد الإسلامي" (٤٣).

وقد كانت قبيلة عظيمة ذات أطماع كثيرة وذات عصبية بدوية، انتشروا على سواحل الفرات، وقاربوا دمشق، واستوطنوا قريباً من حلب وقنسرين واتجهوا عبر الأراضي العراقية فاستوطنوا الجزيرة "،وكانت قصبة منازلهم في القرن الأول للهجرة وسط الجزيرة بين قرقيسيا وسنجار ونصيبين شمالاً وعانة وتكريت جنوباً، وكان هذا الإقليم يقرب أن يكون شبه جزيرة، إذ يحده نهر خابور ودجلة والفرات، وعاشت جماعة من تغلب في مضارب على الضفة اليمنى لنهر الفرات عند منبج والرصافة، وصعدوا فيما بعد إلى جوار قنسرين ودمشق، وفي الجنوب حتى عين التمر وجبل إلاهه، كما عاشوا أيضاً بين حقان والعذيب، وعبرت جماعة أخرى في الوقت نفسه دجلة إلى أذربيجان" (٤٤). وكانت لها حروب كثيرة حيث كان الصراع القبلي بين اليمن ونزار، حيث رأت القبائل اليمنية أنها ذات شوكة وسلطة، فحاولت أن تخضع قبائل نجد والحجاز لسيطرتها، فحدث صراع مرير حتى التفت قبائل نزار تحت راية وائل (كليب) بن ربيعة وانتصروا في معركة خزاز.

لمع ذكر بني تغلب وشهرتهم الحربية بعد مقتل وائل (كليب) سيد بن ربيعة على يد أبناء عمومته من بني بكر وخاصة الشاب جساس. هنالك بدأت المعارك الطاحنة بين القبيلتين بقيادة المهلهل أخو وائل (كليب) والملقب بسالم الزير، واستمرت ما يقارب أربعين سنة، وتسمى تلك الحروب "بالحرب البسوس" اسم المرأة

---

(٤٠) الشعر والشعراء ٨٦٣/٣.

(٤١) جمهرة النسب لابن الكلبي، وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للسويدي والمفصل في تاريخ العرب للدكتور جواد علي.

(٤٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٢٦/٥.

(٤٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣٢٦/٥.

(٤٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٢٦/٥: ٣٢٧.

التي أثارت الفتنة بين الحيين، فوقعت بينهم أيام عديدة أشهرها: يوم الزاب، و يوم الحنو، ويوم التحالق [٤٥].

وقد نبغ في القبيلة رجل شجاع شاعر معمر، زاد في شهرة القبيلة ورفعها إلى أعالي أماكن العزة والقوة، ذلك هو الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي، الذي قتل الملك عمرو بن هند عند مشاحنة بسيطة بسبب سطوة العزة والأنفة، ثم إن هذا الشاعر أشاد بقبيلته في قصيدة كلها عز وفخر تلتهب التهاباً شديداً بالحماس، حتى كان يفخر على الملك نفسه وأحياء العرب جمعاء، علماً أن الشاعر رأس قبيلته بعد أن بلغ الخامسة عشرة، ومن أبياته التي افتخر به قوله[٤٦]:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نوردُ الراياتِ بيضاً ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غُرٌّ طوالِ ... عصينا الملك فيها أن ندينا

وسيد معشرٍ قد توّجوه ... بتاج الملك يحمي المحجرينا

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه ... مقلدةً أعنتها صفونا

وبأنا المطعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا ابتلينا

وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا

وأنا التاركون إذا سخطنا ... وأنا العازمون إذا عُصينا

ونشربُ إنْ وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا

إلا أبلغ بني الطماح عنا ... ودعميا فكيف وجدتمونا

إذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينا أن يقر الذل فينا

ملأنا البرَّ حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخرُّ له الجبابر ساجدينا

هذه أبيات من قصيدة طويلة قالها الشاعر الشجاع عمرو بن كلثوم عزةً بنفسه وافتخاراً بأمجاد قبيلته، وقد اخترت هذه الأبيات، فهي صورة ولوحة تمثل مقدار عزة النفس وحب الافتخار وبماذا تفتخر القبائل.

و لم تقتصر حروب تغلب على محاربة الفرس واليمنيين وأبناء عمومتهم بكر، بل التحمت مع قبائل عربية كبيرة، كما دارت حروب بينها وبين سائر القبائل العربية، فقد اشتعلت نيران الحرب بينها وبين بني يربوع في معارك كثيرة، كان لها أيام في الغلبة في معظمها، ومن بين هذه الأيام: يوم ثبره، يوم أراب، ويوم اللوى، ويوم زرود" [٤٧].

كما اشتبكت مع بني شيبان في مواقع متعددة منها معركة فطيمة بالبحرين، وديرلي، ويوم عنيزة [٤٨]،

---

(٤٥) معجم قبائل العرب ١٢١/١.

(٤٦) جمهرة أشعار العرب، وشرح القصائد العشر للتبريزي، وفيها اختلاف كثير لرواية كل بيت.

(٤٧) معجم قبائل العرب ١٢١/١ ومعجم واستعجم.

(٤٨) معجم قبائل العرب ١٢١/١.

كما دارت بينها وبين بني تميم معارك كثيرة، ثم إن القبائل التي تستوطن الجزيرة العربية كانت تدين الوثنية، وتختلف عبادتهم من قبيلة إلى أخرى، وقد بدأت النصرانية تغزو بعض أفراد من القبائل، ونظراً لمجاروة تغلب للرومان الذين يعتنقون النصرانية فقد كانت أكثر القبائل العربية تأثراً ودخولاً في تلك الديانة، ولما جاء الإسلام دخلته القبائل العربية ورأينا أن عدداً ليس بالقليل من تغلب معتنقاً للنصرانية، وقليلاً منهم دخل الإسلام.

لكن نرى أن الوفد الذي أرسلته تغلب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كان مزيجاً من الوثنيين والنصارى، فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الصلح مع النصارى، فقال الدكتور أحمد محمد النجار: "ولم يغير الإسلام من مواطن ترحلهم ومحال إقامتهم في تلك النواحي إلا قليلاً، فقد جاء الإسلام ولم يتحمس له إلا نفر من تغلب لما اشتهر عنهم من العصبية والأنفة، حتى رووا أن وفدهم على الرسول صلى الله عليه وسلم في العام التاسع للهجرة لم يتجاوز ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى عليهم صلبان الذهب، فنزلوا دار رملة بن الحارث، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم النصارى على أن يقرهم على دينهم، وعلى ألا يصبغوا أولادهم في النصرانية [٤٩].

ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم سارعت القبائل إلى الردة والامتناع عن الزكاة، فكانت تغلب بطبيعة حالها من المرتدين والمانعين لها، فحاربتهم الجيوش الإسلامية، والقليلون الذين أسلموا لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يؤثر على حياتهم الاجتماعية؛ لذا نجدهم يقاتلون حسب مصالحهم المادية، فقد حاربوا ضد المسلمين، "وقد حاربت تغلب ضد جيش المسلمين، وذلك لما اجتمع المسلمون بالفراض سنة ١٢ه، وحميت الروم واغتاظت فاستعانوا بمن يليهم من مساعي أهل فارس، وقد حموا واغتاظوا، واستمدوا تغلب وإياد والنمر فأمدوهم" [٥٠].

وبسبب ذلك كتب عمر بن الخطاب إلى ملك الروم يطلب فيه عدم حماية القبائل التي تحارب ضد المسلمين سنة ١٧ه: "إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا، وأتى داركم، فوالله لتخرجنه أو لتنبذنه إلى النصارى، ثم لنخرجنهم إليك" فأخرجهم ملك الروم[٥١].

وكان بعض الولاة – ومنهم الوليد بن عقبة – يقابل ذلك بالشدة، فلم يقبل منهم إلا الإسلام، فلما رأى الرفض منهم أرسل إلى عمر بن الخطاب يستشيره في ذلك، فكانت بينهم المكاتبات التالية التي توضح الموضوع أكثر، "وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من بني تغلب إلا الإسلام، فقالوا له: أما من نقب على قومه في صلح، ومن كان قبله، فأنتم وذاك، وأما من لم ينقب عليه أحد، ولم يجر ذلك لمن نقب فما سبيلك عليه، فكتب فيهم إلى عمر، فأجابه عمر "... أنما ذلك لجزيرة ولا يقبل منهم فيها إلا الإسلام، فدعهم أن لا ينصّروا وليداً، واقبل منهم إذا أسلموا، فقبل منهم على أن لا ينصروا وليداً، ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام، فأعطى بعضهم ذلك، فأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزاية، فرضي منهم بما رضي من العباد وتنوخ" [٥٢] ومن كل ما سبق

---

(٤٩) العتابي ص ١٦.

(٥٠) معجم قبائل العرب ١٢٢/١.

(٥١) معجم قبائل العرب ١٢٢/١.

(٥٢) معجم قبائل العرب ١٢٢/١.

يتضح لنا أنها قبيلة لم يمس الدين شفاف قلوبهم، و لم يتأثروا بالحضارات المحيطة بهم حتى قرون متأخرة من الإسلام، وحتى العصر العباسي الذي اندثرت فيه العصبية العربية، ودخل أكثر سكان المنطقة في الإسلام، وتلاشت عصبية القبائل وحروبها بينما نجد لهذه القبيلة صولة وجولة، ما عدا جزيرة العرب التي تكاد أن تكون خارج سلطة الخلافة العباسية، فإن صراع القبائل عاد إلى الجاهلية الأولى.

في العصر العباسي أذعنت البلاد الإسلامية لحكم خليفة واحد، وساد الأمن البلاد كلها، وانتهت العصبية القبلية والنعرة البدوية في بلاد العراق، وهدأت الأمواج الحربية بين القبائل العربية ومن ضمنها تغلب، فلم تكن هناك حروب تذكر لها ذات أهمية، غير أنها تمسكت بعزها وأنفتها وشهامتها وعصبيتها، وكل هذه لا تجعل منها شوكة تقف في وجه قوة الدولة الضاربة، فمالت إلى الإذعان والطاعة وإن بقيت فيها بقية من التعنت والنظرة إلى الجباية والخراج على أنهما إهانة للقبيلة، لذا وقع خلاف بين القبيلة وبين روح بن صالح الهمداني عامل الخليفة الرشيد على صدقات تغلب، فجمع لهم جمعاً، وقصدهم، لكنهم اطلعوا وبيتوا له وجماعته، فقتل في نفس المعركة.

وقد أخذ الثأر له حاتم بن صالح، وكان بالشكير التي على الخابور، فجمع جمعاً كثيراً وسار إلى تغلب فبيتهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم من أسر، " وقد اشتبكت مع عامل صدقات هارون الرشيد، وكان يدعى روح بن صالح فقتلته، وأخذ حام بن صالح بثأر أخيه روح، فنكل بتغلب عام ١٧١ ه ٧٨٧م، ثم خرجوا عن طاعة الخليفة بعد سبع سنين، وعلى رأسهم الوليد بن طريف الذي هلك في قتال يزيد بن مزيد، وكان قد استدعاه الخليفة فردهم لطاعته" (٥٣).

ومن الحوادث الهامة لتغلب في العصر العباسي قصة مالك بن طوق التي رواها الحموي فقال: "إن الرشيد كان أقطع مالك بن طوق موضعاً على شاطئ الفرات أسفل قرقيسيا وسمي فيما بعد برحبة مالك الذي بناها وعمرها ونسبها إلى نفسه، فلما استوثقت له أموره فيها، وتحول الناس إليها أنفذ إليه الرشيد رسولاً يطلب منه مالاً، لكنه تعلل لعلة، ودافعه عن حمل المال، وأعاده خائباً، فألح عليه الرشيد، وراسله مرة أخرى إلا أنه أبى عليه، وتحصن من دونه، فأنفذ الرشيد إليه الجيوش، وطالت بينهما المحاربة والمدافعة حتى ظفر به صاحب الرشيد مكبلاً بالحديد، وألقى به في السجن، ومكث به عشرة أيام لم تسمع منه كلمة واحدة، وعندما جلس الرشيد للناس أمر بإخراجه من السجن وإحضاره مجلسه بمحضر من وزرائه وحجابه، فلما مثل بين يديه قبل الأرض، ثم قام قائماً لا يتكلم ساعة تامة، فدعا الرشيد بالنطع (٥٤) والسيف وأمر بضرب عنقه، فقال يحيى بن خالد البرمكي، ويلك يا مالك لم لا تتكلم؟ فالتفت إلى الرشيد وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، والحمد لله الذي خلق الإنسان من سلالة من طين، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين، و لَمَّ بك شعث المسلمين، وأخمد بك شهاب الباطل، وأوضح بك سبل الحق، إن الذنوب تخرس الألسن، وتصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة، فانقطعت الحجة، و لم يبق إلا عفوك أو انتقامك "فعفا عنه الرشيد وأعاد

(٥٣) انظر تاريخ الإسلام ٢: ٥١، ١٧٦، ومعجم واستعجم، وأيام العرب في الجاهلية وأيام العرب في الإسلام، ودائرة المعارف الإسلامية ٣٣٢/٥.

(٥٤) النطع: قطعة من جلد توضع تحت رأس المدود.

إليه ماله" [٥٥].

الوليد بن طريف مع الدولة:

كان بنو تغلب أصحاب الأنفة وأصحاب الحروب الكثيرة والفتن والقلاقل التي يثيرونها، وإن لم يجدوا لها أسباباً، فكيف إذا كان هناك ثأر قديم عند الدولة، وذلك حينما قتل حام بن صالح مقتلة عظمية من التغالبة في عام ١٧١ه، لكن هذه الحادثة بقيت آثارها تموج بقلوبهم حتى التقت العصبية والعقيدة الخارجية في (الوليد بن طريف من بني صيفي بن حجى بن عمرو بن بكر بن حبيب" [٥٦]، فتمرد بين قبيلته، وانضم إليه الخوارج وأبناء عمومتهم، وذلك في عام ١٨١ه، فلما علم أن الرشيد يعد له الجيوش فر إلى أرمينية، وحاصر "خلاط" عشرين يوماً، حتى افتدوا أنفسهم بثلاثين ألف، ثم سار إلى أذربيجان، ثم إلى حلوان وأرض السواد، ثم عبر دجلة غرباً، واقتحم مدينة (بلد)، فافتدى أهلها أنفسهم منه بمائة ألف، ثم مضى يعبث في أرض الجزيرة فتكاً وسلباً حتى توجه إليه يزيد بن مزيد، وهو ابن أخي معن، وعلم الوليد بأمره فهدده بقوله:

سَتَعْلَمُ يا يزيدُ إذا التَقَيْنا بشطال زاب أي فتى أكون

فجعل يزيد يخاتله، ولعل الرشيد استطال فترة المخاتلة، فسمع وشاية البرامكة. في أنه يتجافى عن الوليد للرحم بينهما، فكتب الرشيد مغضباً إلى يزيد: "لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن متعصب، وأقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجّهن إليك من يحمل رأسك"، وخشي يزيد بطش الرشيد، وخضوعه لأهواء البرامكة، فلقي الوليد في رمضان عام ١٧٩ه، وقال لأصحابه متعظماً أمر الخوارج: فداكم أبي وأمي، إنما هي الخوارج، ولهم حملة فاثبتوا، فإذا انقضت حملتهم فاحملوا عليهم، فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا، فكان كما قال، و لم يزل يزيد بالوليد يراوغه حتى تمكن منه، وهو مغتر فوق "هيت"، فقتله وجماعة كانوا معه، وفر الباقون" [٥٧].

هذا على مستوى الدولة، فكيف مسير أفراد القبيلة والشعب على الولاة الصغار، وهذا قد كان له كبير الأثر في مكانة شاعرنا أمام الولاة والأمراء والتعامل معهم، فهذا الرشيد يجفاه وهؤلاء البرامكة يكيدون لقبيلته وإن كانوا يقربون العتابي لهم، وهكذا أصبح العتابي مضطرباً في حياته بين موقف الانتماء وموقف الولاء.

نشأته

زمن ولادته:

إن شهادة الميلاد لم تكن معروفة في العصور الأولى، أو أي أسلوب آخر لتحديد الولادة – ما عدا حوادث وطرق بدائية – فيولد المولود ولا يفكر أحد أن يدوّن يوم ولادته ولا شهرها ولا سنتها، حتى إذا ما نشأ وترعرع، وبدأت النجابة تلوح في أفقه اهتموا به، حيث تبدأ نظرة الإعجاب به دون النظرة التأريخية، وتظل فكرة تدوين التاريخ في عالم النسيان، حتى يبعث الله من يتتبع أخباره، ويحاول أن يتتبع معالم حياته بعد أن ندر العارف بها، وولت بها سحب النسيان، بل مات من يعرف أيامه الوسطى وأيامه الأخيرة، فيكون الباحث في حيرة من أمره، يذهب إلى هذا، ويسأل ذاك، ولا يجد إلا ضوءاً باهتاً. وهذا شأن جمهرة العصور الأولى ومن

(٥٥) تاريخ الإسلام ٢: ٥١ وما بعدها ١٧٦ وما بعدها.

(٥٦) تاريخ ابن خلدون ٦٢٣/٢، وانظر المفصل في تاريخ العرب.

(٥٧) العتابي بتصرف ٢٥، ٢٦.

بينهم شاعرنا العتابي الذي لم يستطع أحد أن يحدد زمن مولده، بل لم يتحدث عنها أحد، لذا فإن حديثي عنها إنما هو مقاربة وتسديد، "ومما يزيدنا قرباً هو ما ذكره صاحب الأغاني حيث يقول: "أخبرني الحسن بن علي قال حدثني بن مهرويه قال: حدثنا أحمد بن خلاد قال حدثني أبي قال: جاء العتابي وهو حدث إلى بشار فأنشده [٥٨]:

أيَصدِفُ عن أمامةَ أم يُقيمُ وعَهْدُك بالصّبا عهدٌ قديمُ

وهذه الحادثة في شباب العتابي وبداية قرضه الشعر، فهي أول رحلة له لأن بشاراً لم يعرفه.

والخيط الثاني في هذه الحادثة قول الراوي "وهو حدث" فيدل على صغر سنه، ثم إنه لم يستطع مواجهة الشاعر فكأنه ينظر إلى جبل شامخ.

ومن هذا نستنتج أنه ولد ما بين عام ١٢٥ و ١٣٠ه، وذلك لأنه زار البصرة والكوفة قبل ازدهار بغداد، وفي باكورة شبابه، ومضى يطلب العلم، ويصاحب الشباب، و لم يغز أصحاب المناصب من الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة حتى إذا جاء عهد الرشيد، وعلا شأن البرامكة، وتكونت سلطتهم، نجد أن الرواة يذكرون اتصاله بهم وإخلاصه لهم كما يقول الخطيب البغدادي [٥٩]: " وكان العتابي منقطعاً إلى البرامكة، فوصفوه للرشيد ووصلوه به ".

إذن فعدم اتصاله بأحد الأمراء والخلفاء كالمهدي والهادي يدل دلالة وضّاحة بأنه كان في دور التحصيل، ومما يزيدنا تأكيداً من هذا التاريخ المقارب الذي ذكرناه أن نجده يزور المأمون وهو شيخ كبير فيقول أبو الفرج:

"لما قدم العتابي مدينة السلام على المأمون أذن له، فدخل عليه وعنده إسحاق ابن إبراهيم وكان العتابي شيخاً جليلاً نبيلاً.." [٦٠].

مكان ولادته:

ولد العتابي في "قنسرين" على أغلب الظن ولولا أن قبيلته مشهورة ومهاجرة في هذا البلد وضواحيها ما استطاع أحد تحديد مكان ولادته، أو على الأقل يُختلف فيها كما اختلف في زمن ولادته. زد على ذلك أن الرجل ابن قبيلة مشهورة معتزة بذاتها حتى تصل إلى حد الأنانية، فلا بد أن يحن إلى مولده وموطن أقربائه فيذكره ويذكرهم دائماً. وقنسرين هذه بلدة في حاضرة الشام تقرب من حلب، كما حددها ياقوت في معجم البلدان "وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، وبعضهم يدخل قنسرين في العواصم وما زالت عامرة [٦١].

ويتضح من كلام ياقوت أنها مدينة تكاد تنافس عواصم الشام مثل حلب وحمص، وأظن أن أكثر أهلها من بني تغلب الذين استوطنوا الجزيرة، فهم يرتحلون وراء الأعشاب ما بين حدود العراق والشام كدأبهم هذه

(٥٨) الأغاني: ١١٢/١٣.

(٥٩) تاريخ بغداد ٤٤٨.

(٦٠) الأغاني: ١١١/١٣.

(٦١) معجم البلدان ٤: ٤٠٤.

الأيام، فإن أبناءهم ما زالوا يترددون بين حدود العراق وشمال شرق المملكة العربية السعودية وسوريا.

وطبيعة الشام معروفة بأنهارها وكثرة أشجارها وأعشابها ومزارعها وجمالها، مما جعل البيئة مزدهرة بهذه الطبيعة الرائعة، وفيها معالم الحضارة، بل تعاقبت عليها عدة حضارات، وهي تؤثر في ذوق وفن أهلها ولا سيما أن العتابي جمع بين ذوق الحضارة والبادية المحيطة بها، حيث كان يتصل بها عن كثب.

إذاً نشأ أديبنا العتابي مطعماً بالبادية والحاضرة، فانغرس حسب القبيلة في أعماق قلبه والمروءة وعزة النفس وكرامتها، والأنفة من السؤال، والإقدام على المخاطر التي لا يعرف ولا يأمن عاقبتها، فأصبح عزيز النفس قويها، لذا نجده يتجنب غشيان الأمراء والملوك في أغلب الأحيان، وهو سريع الانفعال وتراه حساساً يتأثر بأدق كلمة، كما حدث له عند المأمون مثلاً، حين قابله الموصلي كما سيأتي.

والمتأمل في سيرته يستنبط مصداقيته، فهو يخلص كل الإخلاص لمن صافاه وتودد إليه وقربه وأكرمه، فيبادله وفاء بوفاء، وإلى هذا الجانب الكبير من البادية فقد اجتذبته الحضارة؛ فقد شب في الكتّاب، وتعلم وتابع تعليمه في المساجد، ولم يكتف بهذا فأحب العلم وأهله. ويبدو أنه يملك نفساً طموحة إلى المعالم وكبائر الأمور، فلم يقنع ببلده، فذهب إلى حاضرة الأدب العربي والنحو والعلوم الفارسية وهي البصرة، فسمع من علمائها وشعرائها وكتابها، ثم انتقل إلى مصاحبة أهل الكوفة واستوطنها زمناً لا نستطيع تقدير مدته، وجالس فيها الشعراء المجان مثل الحمادين ومطيع بن إياس وأبي العتاهية [٦٢].

أثر القبيلة في حياته:

هذه القبيلة التي تحدثنا عن أهميتها الحربية هي التي دوخت كثيراً من القبائل العربية المجاورة وانتصرت عليها، بل لم تكتف بذلك فاشتركت في الحروب الدولية، حيث حاربت ضد العرب مع الرومان، وضد الفرس مع العرب، وظل هذا ديدنهم حتى أيام الشاعر، فقد تمرد مالك بن طوق على الرشيد، كما تمرد عليه الوليد بن طريف.

وكان لها تنقلاتها الكثيرة عبر الجزيرة العربية وداخلها، مما سبب لها حروباً كثيرة، وقد اكتسبت الخبرات بسبب الاتصالات مع رجال القبائل والدول المجاورة، وقد أظهر لها ذلك قيمة تكاتف القبيلة وتعاونها، لهذا بقيت متكاتفة متعصبة متعاونة.

فتعودت على الحياة الجافة حياة الحروب وحياة الأسفار وحياة المشاكل وحياة المنازعات، ولهذا بقي حب القبيلة والفخر بها منصهراً في دم بني تغلب مهما تغيرت أحوالهم.

لقد انساحت العصبية القبلية في العصر العباسي وإن تحولت إلى عصبية عربية، لكن للظروف التي سبقت فقد بقيت بنو تغلب على عصبيتها لا تذعن للولاة إلا بعد جهد شاق.

ولكن الشيء الذي طرأ على القبيلة – مع طول المدة وازدهار الحضارة – هو ميل بعضهم إلى الاستقرار في الجزيرة، وتنقل الباقون، لكن الصلة والمودة والتّحابّ باقية بين الطرفين، لذا فإن المتحضر منهم يقتبس إلى جانب تعلمه واطلاعه الواسع على الأفكار الحضارية حيث تأثر بكثير منها، ولكن تظل صلته بالبادية ومجالسها

---

(٦٢) انظر الأغاني ١٣: ١٢١ وما بعدها.

وذكر الآباء والأجداد تصله بمميزات القبيلة العربية من الشجاعة والكرم والشهامة والمروءة والقساوة والعنف والاعتزاز بالنفس.

ولهذا نجد في حياة العتابي شخصيتين بارزتين:

– الشخصيته العلمية التي استفادها – ولا ريب – من استيطانه لبلدة قنسرين في حداثته، واتصاله بالكتاب الذين يعلمون الصبيان، وبالمسجد على يد العلماء، وباختلاطه بالأجناس الوافدة من فرس وروم وتُرك وغيرهم.

فقد أثرت هذه الأمور في نفسه وانغرس فيها حب العلم والعلماء، وعنده من الشجاعة والقوة النفسية والاعتزاز بالنفس ما يدفعه إلى الأمام ويقوي طاقة المنافسة والوصول إلى أرقى درجات العلم والمعرفة. لهذا نجده لم يكتف بتعلم اللغة العربية وآدابها، بل تعلم الفارسية وتبحر فيها عندما زار أشهر مكتباتها عبر طرق الأسفار الشاقة، وكان استعداده وهمته للرحلات قد جاءت من قوته وشجاعته، لكن الدافع القوي لها حبه للعلم والتزود منه وملاحقة مواطنه.

– الشخصيته البدوية: فإنها تجري في أديبنا مجرى الدم، فلقد تزود بالشجاعة القوية، وحب الرفعة،وحب الظهور، وحب السيطرة، وحب الوصول إلى أقصى ما يتمناه المرء.

وقد صادفت هذه الأشياء استعداداً لدى أديبنا وظروفاً مهيأة وشباباً عارماً قوياً، لذا نجده يسير سيرة العلماء ووصل إلى درجة كبيرة، فهو الأديب والكاتب البليغ والشاعر والمفكر، وندر اجتماعها لغيره.

والأثر الأكبر الذي ظل يلازمه من قبيلته تلك الشهامة العربية والمروءة والاعتزاز بالنفس وعدم الدناءة؛ لذلك يتجنب المخاطر والمزالق التي ينهار فيها اعتزازه بنفسه كما يوضح ذلك في قوله لزوجته [٦٣]:

تلومُ على تَرْك الْغِنى باهليّةٌ ... زوى الفقر عنها كل طِرْفٍ وتالدِ
رأت حولها النَّسوانَ يَرْفُلْنَ في الكُسا ... مُقَلَّدة أجيادُها بالقلائِدِ
أسَكَ أنِّي نِلْتُ ما نال جعْفرٌ ... من العيش أو ما نال يَحْيَى بنُ
وإنّ أميرَ المؤمِنينَ أغصني ... مغصهما بالمرهفات الحدائد

ونجده يتأثر بالأحداث التي تقع من قبيلته، ونتيجة لها يجفاه كبار القوم والخلفاء، فحينما يخرج مالك بن طوق والوليد بن طريف على الرشيد، ويشقان عليه عصا الطاعة حينئذ يكون موضع تهمةٍ أمام الخليفة ويعتذر له بهذه الأبيات [٦٤]:

إن كان منّا ذَوُو إفكٍ ومارقةٌ ... وعصبةٌ دينُها العُدوانُ والزّورُ
فإنّ منّا الذي لا يستحثُّ إذا ... حُثَّ الجياد وحَازتها المضاميرُ
ومن عرائقه السّفّاح عندكم ... مجرب من بَلاء الصِّدق مخبورُ

(٦٣) الأغاني: ١٣/١٢٣.

(٦٤) الأغاني: ١٣/١٢٥.

الآن قد بَعُدت في خَطْـو طـاعتِكُمْ خُطاهمُ حيثُ يحتلُّ الغشاميرُ [٦٥]

ونجد أن العصبية وفخره بالقبيلة ناشئان معه ويظلا مسيطرين عليه حتى أمام شخصيته الذاتيـة، بـل يتناسى ما وصل إليه من علو منزلة في الأدب والعلم والشعر، ويحتقر نفسه أمام مفاخر القبيلـة وشـجاعتها وشهرة أمرائها فيقول [٦٦]:

إني أمْـرؤٌ هـدّم الإقتـار مـأثرتي و اجتاح ما بنـت الأيـام مـن
أيام عمـرو بـن كلثـوم يسـوده حيّا ربيعةَ والأحياء مـن مُضـر
أرومـةٌ عطلـتني مـن مكارمهـا كالقوس عطَّلها الرامي من الـوترِ

رحلاته:

إن الأسفار لها دورها في صقل العقول وإطلاعها على أشياء لم تكن في الحسبان، فتـزداد معـارف الرحّـال بمشاهدة الشاعر لتضاريسها وتأثيره بتقلبات مناخها ومنظر مزارعها ومراعيها، وكذلك تزداد معرفته بأهلـها وكيف تعاملهم وطريقتهم وعاداتهم وتقاليدهم، فهذه الأشياء تختلف من بلد إلى بلد، بل إن هذه الأشياء تأتي عن طريق التعامل ولفت الانتباه المبسط، فكيف إذا كان الهدف من الرحلات طلب العلم ومتابعـة العلمـاء والوقوف على أبوابهم فسيكون الإدراك أعم والفائدة أكثر من فتى واع متقد الذهن شديد البصر والبصيرة.

والعتابي عربي صليبة، ومن طبائع البادية حبهم للأسفار والتجوال في الصـحاري والفيـافي الواسـعة، بواسطتها يجلّون عن أنفسهم الهم، ويتسلون عن الحب أو يطلبونه.

وقد انغرس حب الرحلات في العتابي، وكان عنده الاستعداد الكامل لها، لكن إلى هدف أسمى وأعلى من هدف الأعرابي، الذي يمتطي ناقته ليلحق بحبيبته، أو ليجلو الهم عنه، أو ليقضي أوقات فراغه – وذلك بسـبب التطور الحضاري – وإنما يتنقل العتابي لطلب العلم والازدياد من المعرفة ومتابعة العلمـاء والاطـلاع علـى المكتبات، فهو يقول في الكتاب حينما عابوا عليه كثرة اطلاعه:

يـا قاتـلَ اللهِ أقومـاً إذا ثقفـوا ذا اللبِّ ينظرُ في الآداب والحكـمِ
قـالوا ولـيس بهـم إلا نفاسـته أنافع ذا مـن الإقتـارِ والعـدمِ
وليس يدرون أن الحظ مـا حُرِمُـوا – لحاهم الله – من علـمٍ ومـن

ويبدو أن أسرة العتابي متنقلة في الجزيرة، أو أن أقاربهم الذين يأنسون إليهم متواجـدون في أكثرقـرى الجزيرة، فنجد مولده في قنسرين، وتجده استوطن الرقة وكذلك رأس عين، وهذه المناطق غنية بالمناظر الجميلـة غنية بأشجارها وحدائقها وبمواشيها وأنهارها، فهي توحي بالجو الشاعري والخيال الخصيب والذوق الجميـل، كما ترى معالم البادية فيها ظاهرة، وأيضاً عاداتهم وطبائعهم ومخيماتهم ورحلاتهم إلى الجانب الحضاري.

ولما فتحت له أبواب العلم عن طريق الكتاتيب والمساجد أراد أن يشبع غريزة السفر فيما يفيد، فانتقـل

---

(٦٥) الغشمير: هو الشجاع الذي لا يهاب.

(٦٦) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

(٦٧) الأغاني: ١١٩/١٣.

إلى عاصمة العلم والمعرفة آنذاك البصرة، وفيها مدارس النحو، وفيها المهتمون بجمع الأشعار من البادية وجامعو الدواوين، وفيها مدارس الشعراء وتاجها سوق المربد، هنالك اجتمع بشعرائها وعلى رأسهم بشار بن برد وقد استمع بشار إلى بعض شعر العتابي فحسده كما تدل هذه القصة التي أوردها الأغاني "قال: جاء العتابي وهو حدث إلى بشار، فأنشده:

أيَصدِفُ عن أمامةَ أم يُقيمُ ... وعهدُك بالصّبا عهدٌ قديمُ

أقولِ لِمُستَعارِ القَلبِ عَفَّى ... على عَزَماتِه السّيرُ العديمُ

أما يكفيكَ أنّ دموعَ عيني ... شآبيب يفيض بها الهمومُ

أشِيمُ فلا أردُّ الطرف إلاّ ... على أرجائِه ماءٌ سَجُوم

قال: فمد بشار يده إليه: ثم قال له: أنت بصير؟ قال: نعم. قال: عجباً لبصير ابن زانية، أن يقول هذا الشعر. فخجل العتابي وقام عنه [٦٨].

وهذه القصة تدل على مدى الغيرة التي أدت ببشار أن يرد بهذا الرد المخجل.

وقد تزود بأنواع من العلوم والتقى بالكاتب المشهور ابن المقفع وأعجب به.

ثم نراه يلتمس مدينة أخرى أكثر غزارة بالشعراء والفسق والمجون تلك مدينة الكوفة التي ازدهر فيها الشعر، وكثر فيها الشعراء من رواة وشعراء، وأغلبهم مُجان من أمثال حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد بن الزبرقان، ومطيع بن إياس، وأبي العتاهية، وغيرهم.

ثم ينتقل إلى مدينة السلام، حيث تزدهر بالعلم والعلماء من أصقاع الدنيا، لكنه لم يستوطنها بصفة مستديمة، وإن كان يعاودها ويمكث بها الأشهر، كما استوطن (الرقة) وكثيراً ما يعود لبغداد حيث البرامكة وتخصصه بهم، حيث العلم ومجالس العلماء والوراقون ودكاكين الكتب والمكتبات العامة التي تكثر بها، وزادت صلاته بالبرامكة ونجحوا في إيصاله للرشيد، لكن الرشيد جفاه بسبب اعتزاله، فهرب من وجهه واتجه إلى اليمن، "وكان العتابي يقول بالاعتزال، فوصل ذلك للرشيد وكثر عليه في أمره، فأمر فيه بأمر عظيم. فهرب إلى اليمن، فكان مقيماً بها، فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من رسائله وخطبه، فاستحسن الرشيد ذلك وسأل عن الكلام لمن هو؟ فقال: هذا للعتابي، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام، ويصنع لهما خطباً، لكان ذلك أصلح، فأمر بإحضاره، فأخذ الأمان له. فاتصل الخبر بالعتابي" [٦٩]، وبهذا الهروب إلى اليمن تم له الاطلاع على معالمها ودراسة مجتمعها.

ثم له جفوة أخرى مع الرشيد بسبب وشاية منصور النمري "وكان منصور النمري سعى به إلى الرشيد، فخافه وهرب إلى بلد الروم" [٧٠] وقد فصل ذلك الجهشياري فقال: "وكان منصور النمري الشاعر مدح الرشيد بقصيدة طويلة، قال فيها:

إن أخلف القطرُ لم تُخْلِفْ مخايله ... أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

---

(٦٨) الأغاني: ١١٣/١٣.

(٦٩) كتاب الوزراء والكتاب ٢٣٣. لكن كثر هذه الرسائل والخطب قد فقدت فلم نعثر عليها

(٧٠) كتاب الوزراء والكتاب ٢٣٣.

وكان شكا بعد إنشاده هذا البيت إلى كلثوم بن عمرو العتابي عسر الولادة على زوجته، فلما أنشد هذا البيت قال له العتابي: اكتب على فرج زوجتك "هارون"، فذكر هذا النمري للرشيد، فأمر بضرب عنق العتابي، حتى شفع فيه يحيى بن خالد، واستوهب دمه، فصفح له عنه" (٧١).

وبهذا نستدل على أنه زار بلاد الروم، وزاد فكره وتثقيفه بما رآه من معالم فيها.

ومرت فترة بعد نكبة البرامكة لم نسمع له ذكراً، ويبدو أنه استوطن الرقة، وبقي فيها أيام الفتنة بين الأمين والمأمون، ولما خرج المأمون إلى خراسان سافر معه مشيعاً حتى وصل إلى سندان كسرى، ويقول صاحب زهر الآداب (٧٢) "لما خرج المأمون إلى خراسان شيعه حتى وصل معه إلى سندان كسرى، فقال له المأمون: سألتك الله يا عتابي، ألا عملت على زيارتنا أن صار لنا من هذا الأمر شيء، فلما ولي المأمون الخلافة، ودخل بغداد سنة أربعة ومائتين توصل إليه العتابي، وكان وصوله إليه بعد مشقة، فأراد أن يذكره بذلك الوداع حينما قال:

ما على ذلك افْتَرقْنا بسنْدا ... ن ولا هكذا عَهِدْنا الإخاءَ

لم أكنْ أحْسِبُ الخلافةَ يزدا ... دُ بها ذو الصفاء إلاّ صفاءَ

تَضْرِبُ الناسَ بالمُثّقفةِ السُّم ... ر على غدرِهم وتنسى الوفاءَ

وظل محباً للرحلة في طلب العلم متحملاً لمشاقها، دائباً عليها، وقد خرج عن طور العلماء والشعراء العرب، فتعلم اللغة الفارسية، وأدركها، واستطاع المحادثة بها (٧٣)، "فقد روي عن يحيى بن الحسن بن علي بن معاذ قوله: إني كنت بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بغلام فكلمته بالفارسية فدخل العتابي وكان حاضراً في كلامنا، فتكلم معي بالفارسية فقلت: أبا عمرو، مالك وهذه الرطانة؟ قال: فقال لي: دخلت بلدكم هذه الثلاث قَدَماتٍ، وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو، وكانت الكتب إلى ما هناك مع "يزدجرد" فهي قائمة إلى الساعة، فكتبت منها حاجتي، ثم قدمت نيسابور، وجزتها بعشرة فراسخ إلى قرية يقال لها ذودر، فذكرت كتاباً لم أقضِ حاجتي منه، فرجعت إلى مرو فأقمت أشهراً. قال: قلت أبا عمرو، لم كتبت كتب العجم، قال لي: وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة؟ اللغة لنا والمعاني لهم، ثم كان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيراً".

ولحبه الاطلاع وشغفه بالفكر الجديد والتراث القديم والازدياد من المعرفة بأنواعها فقد عاود الأسفار مرة تلو الأخرى إلى مدن فارس، ويلاحق علماءهم، ويتردد على مكتباتهم، وهو ينفق ماله في شراء كتبهم وكتب أخرى غير فارسية مترجمة فتابع تلك الثقافات بشغف شديد وأعجب بها، ولذلك فقد أكثر الزيارة لكل من مرو ونيسابور ونصيبين وحران ورأس (٧٤) عين، حتى عمل صداقات مع أهل تلك البلدان، ونال الحظوة عند أبناء طاهر بن الحسين وكبار الأسر من أهل فارس.

---

(٧١) زهر الآداب ٦٧٨/٣.

(٧٢) زهر الآداب ٦٧٦/٣.

(٧٣) العتابي ٣٥/٣٤، كتاب بغداد ٨٧.

(٧٤) العتابي ٣٦.

صلاته:

صلته بالبرامكة [٧٥]:

كان همَّ العتابي في ريعان شبابه أن ينهل ويتزود من المعرفة، ويكتسب من التجارب، فلم نسمع له زيارة لطلب المال أو الاستجداء، وإنما تكثر الزيارات من أجل العلم والتحصيل، فهو يسافر إلى البصرة، ويسافر إلى الكوفة، ويتنقل إلى بغداد، ويتجول في خراسان وينهل من مكتباتها، بل يمكث الأشهر هناك، فتعلم الفارسية ودرس آدابها وبلاغتها وحكمها، وصار يتكلم بها، لهذا لابد أن يعزه ويكرمه البرامكة، فهم حماة الفارسية وآدابها؛ يقربون من درسها وأقرّ بفضلها، ولكن لم يذكر لنا التاريخ أو تاريخ الأدب كيف اتصل بالبرامكة؟ ومتى كان؟ لكن نرى الأدباء متفقين على صلته الوثيقة بالبرامكة وأنهم هم الذين أوصلوه إلى باب الرشيد، فالأصبهاني يقول في أغانيه: "وكان منقطعاً إلى البرامكة، فوصفوه للرشيد، ووصلوه، فبلغ عنده كل مبلغ" [٧٦]. وقال صاحب تاريخ بغداد: "وكان العتابي منقطعاً إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به" [٧٧]. وصاحب معجم الأدباء يقول [٧٨]: "صحب البرامكة ثم صحب طاهر بن الحسين وعلي بن هشام"، وقال صاحب فوات الوفيات [٧٩]: "صحب البرامكة وصحب طاهر بن الحسين". ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: "فقد كان العتابي في بادئ أمره شاعر البرامكة" [٨٠].

لكن لما تنظر لعظمة هذه الآراء واتفاقها وتفاوتها بما روي لنا عن أحداثه وأقواله ومصاحبته الفعلية تصاب بالشك والعودة إلى التفكير في هذه الآراء ومدى مطابقتها للواقع، وقبل أن أبدي الرأي فإني أسرد لك حادثات ومصاحبة العتابي للبرامكة كما وجدها في كتب تاريخ الأدب.

أغلب الظن أن أول اتصاله بالبرامكة بعد أن طرده الرشيد لما رأى من إفراطه في الزهد، حيث أكل الخبز بالتراب، ونام بدون فراش، بعد أن هيأ له المنزل والخدم والطعام، وذلك بعد أن أوفده عبدالملك بن صالح على الرشيد، وزاد ذلك اهتمامه أيضاً بالاعتزال، لكن البرامكة بدأوا يحاولون اجتذاب العتابي بأخذهم له الأمان من الرشيد كما يروي ذلك كتاب الوزراء والكتاب [٨١]: "كان العتابي يقول بالاعتزال، فاتصل ذلك بالرشيد، وكثر عليه في أمره، فأمر فيه بأمر عظيم، فهرب إلى اليمن، فكان مقيماً بها، فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من رسائله وخطبه، فاستحسن الرشيد ذلك، وسأل عن الكلام لمن هو؟ فقال: هذا للعتابي، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام، ويصنع لهما خطبا لكان ذلك أصلح، فأمر بإحضاره، فأخذ

---

(٧٥) انظر، البرامكة وأثرهم في الأدب د. حسن ذكرى حسن.

(٧٦) الأغاني ١٠٩/١٣.

(٧٧) تاريخ بغداد ٤٨٨/١٢.

(٧٨) معجم الأدباء ٢١٣/٦.

(٧٩) فوات الوفيات ٢١٩/٣.

(٨٠) الشعر والشعراء د. مصطفى الشكعة ٤٩٨.

(٨١) كتاب الوزراء والكتاب ٢٣٣.

الأمان له. فاتصل الخبر بالعتابي، فقال:

ما زلتُ في سكرات الموتِ مُطَّرَحــا قد غاب عني وجه الأمر مَن حِيَلي

و لم تَــزلْ دائبــاً تسَــعَى لتنقــذني حتّى استللتَ حياتي مــن يــدي

لكن صاحب الأغاني يرويها بطريقة أخرى:

"لما سعى منصور النمري بالعتابي إلى الرشيد اغتاظ عليه، فطلبه، فستره جعفر بن يحيى عنه مدة وجعــل يستعطفه عليه، حتى استل ما في نفسه، وأمنه فقال يمدح جعفر بن يحيى:

ما زلتُ في غَمَرات المــوتِ مُطَّرَحــا قد ضاق عني فسيحُ الأرض مَــن

و لم تَزلْ دائبــاً تسَــعَى بلُطْفــك لي حتّى اختلست حياتي من يــدي

وأمامنا الآن أن كلاً منهما يروي البيتين اللذين مدح بهما العتابي البرامكة في قصته وإني أرجح مــا رواه صاحب الأغاني، حيث اتفق مع الجهشياري على أنهما شفعوا له مرة أخرى عند غضب الرشيد، ثم إن الحادثة الثانية أضخم عقوبة حيث أهدر دمه، لذلك مدح البرامكة بالأبيات السالفة الذكر، والحادثة نفســها رواهــا الجهشياري لكن بدون الأبيات" (٨٣)، وكان منصور النمري الشاعر مدح الرشيد بقصيدة طويلة، قال فيها:

إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

وكان شكا قبل إنشاده هذا البيت إلى كلثوم بن عمرو العتابي، عسر الولادة على زوجته، فلما أنشــد هذا البيت قال له العتابي: اكتب على فرج زوجتك: "هارون"، فذكر هذا النمري للرشيد، فأمر بضرب عنــق العتابي، حتى شفع فيه يحيى بن خالد، واستوهب دمه، فصفح له عنه".

وكان كثير الترداد على البرامكة وبالأخص يحيى بن خالد البرمكي، بل تعمقت الصحبة، ورفعت الكلفة حتى أن يحيى بن خالد أخذ ينقد ثيابه ويرد عليه رداً بليغاً، "وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وكان لا يبالي أي ثوبيه ابتذل فقال: أبعد الله رجلاً همه أن يكون جماله في لباسه وعطره، إنما ذلك حظ النساء، وأهل الأهــواء، حتى يرفعه أكبراه: همته ولبه، ويعلو به معظماه: لسانه وقلبه" (٨٤).

وكان يفضي إلى يحيى بن خالد البرمكي بكل ما يعكر صفوه، ويلج في خاطره، حتى أنه أصــابته فاقــة شديدة فاتجه إلى يحيى، وهو يحس بالألم من ذل المسألة، وقد أثرت في شعوره أمام الوزير فلاحظها وسأله عنها كما روى ذلك الأصفهاني" (٨٥).

"كلم العتابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة فقال له يحيى: لقد ندر كلامك اليوم وقل. فقال له: كيف لا يقل وقد تكنفني ذل المسألة، وحيرة الطلب، وخوف الرد؟ فقال: والله لئن قل كلامك لقد كثــرت فوائده، وقضى حاجته".

وكان يحيى بن خالد معجباً بأدبه وشعره أكبر الإعجاب، حتى أنه أوصى أبناءه بكتابة كل ما يســمعونه

---

(٨٢) الأغاني ١١٩/١٣.

(٨٣) كتاب الوزراء والكتاب ٢٣٣.

(٨٤) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

(٨٥) الأغاني ١٣:١١٤.

من العتابي "قال: قال يحيى بن خالد البرمكي لولده: " إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي، فضلاً عن رسائله وشعره، فلن تروا أبداً مثله" (٨٦).

ثم له موقف آخر مع يحيى بن خالد حينما جعل الجارية خلوب تخاطبه وتناقض شعره (٨٧) "، حدثنا محمد بن يحيى الصولي حدثنا محمد بن يزيد، قال: أُدخل العتابي على يحيى بن خالد البرمكي، وكان له جارية يقال لها خلوب تجالس الأدباء، وتناقض الشعراء، فقال لها يحي: يا جارية سليه عن حاله، فأنشدت الجارية تقول:

إذا شئتَ أن تُقْلى فزرْ متواترا ... وإن شئتَ أن تزدادَ حُبًّا فزر غبا

فأنشأ العتابي يقول:

بقيتُ بلا قلبٍ لأنِّي هائمٌ ... فهلْ من معيرٍ يا خلوبُ بكم قلبا

حلفتُ لها باللهِ أنكِ منيتي ... فكوني لعيني حيث ما نظرت نصبا

عسى اللهُ يوما أَنْ يُرينَكِ خَاليا ... فأحْظَى بلَحْظٍ مِنْ محاسنكم عجبا

يقولون لا تكثرْ زيارةَ صاحبٍ ... فإنّك إنْ أكثرته كره القُربا

وكيف يطيقُ الصبُّ سلوان حبه ... إذَا كان مشغوفا قد استشعر

وقد قال بيتا ما سمعت بمثلهِ ... خلي من الأحزان لم يذقِ الحبّا

إذَا شئتَ أن تُقلى فزر متواترا ... وإنْ شئتَ أن تزداد حبا فزر غبا

وأنت إذا نظرت وجدت أن اتصاله أولاً بيحيى بن خالد وأنه يجالسه، و لم يتحدثوا عن مجالسته لجعفر بن يحيى أو غيره من أسرة البرامكة، غير أن العتابي احتجب عند جعفر بن يحيى عن الرشيد كما ذكرنا في قصة سابقة. وكأنه عامل السن والكبر والتقدير هو الذي جمع بينهما. ولكنه لم يمدحهم بشعر إلا ببيتين أختلف الأدباء؛ هل قالهما في يحيى أو جعفر، ومن هذا أقول: إنه ليس منقطعا للبرامكة، وإنما التعبير الصحيح والواقع فعلا أنه مال مع الموجة التي صارت ضد البرامكة، فنجده يهجوهم ببيتين كما يروي ذلك الحصري (٨٨)، وكان متحرفا عن البرامكة وفيهم يقول:

إن البرامك لا تنفك أنجية (٢) ... بصفحة الدين من نجواهم ندبُ

تجرمتْ حجج منهم ومنصلهم ... مضرج بدم الإسلام مختضبُ

وأغلب الظن أنه مهما قل مدحه لهم أو حاولنا أن نقلل من اتصاله بهم فلابد أنه مادحهم، لكن لم نعثر عليه أو تحاشاه الناس إكراماً للعباسيين.

اتصاله بالرشيد:

---

(٨٦) الأغاني ١١٤/١٣.

(٨٧) تاريخ بغداد ٤١٩/١٢، الموشى ٤٨، وقد زاد في روايته البيتين الرابع والخامس.

(٨٨) زهر الآداب ٦٧٥/٣.

(٢) أنجية: جمع نجيّ وهو المتحدث سراً، وقصد بها دسائس البرامكة.

أغلب الظن أن أول اتصال بالخليفة هارون الرشيد كان بواسطة عبدالملك بن صالح حينما كان واليا على منطقة الجزيرة وكانت الحرب بينه وبين قبائل بني ربيعة، فمدح العتابى عبدالملك بقصيدة كف حينما سمعها عن قتال ربيعة، فلما جاء الرشيد إلى المنطقة أخبره عبدالملك بما حدث، وأطلعه على القصيدة، فأعجب بها الرشيد وأمر بإفادته إليه، كما تبينه القصة التالية التي رواها الأغاني: " كان أخوان من فزارة يخفران قرية بين آمد وسميساط، يقال لها: تل حوم، فطال مقامهما بها حتى أثريا، فحسدهما قوم من ربيعة، وقالوا: يخفران هذا الضياع في بلدنا، فجمعوا لهما جمعا، وساروا إليهما، فقاتلوهما، فقتل أحدهما، وعلى الجزيرة يومئذ عبدالملك بن صالح الهاشمي، فشكا القيسي أمره إلى وجوه قيس، وعرفهم قتل ربيعة أخاه وأخذهم ماله.فقالوا:إذا جلس الأميرفادخل إليه. ففعل ذلك، ودخل على عبد الملك، وشكا ما لحقه،ثم قال له: وحسب الأمير أنهم لما قتلوا أخي وأخذوا مالي قال قائل منهم:

أشربا ما شربتما أن قيسا ... من قتيل وهالك وأسير

لا يجوزَنّ أمرنا مضري ... بخفير ولا بغير خفير

فقال عبدالملك: أتندبني إلى العصبية؟ وزبره، فخرج الرجل مغموما، فشكا ذلك إلى وجوه قيس، فقالوا: لا ترع، فوالله لقد قذفتها في سويداء قلبه، فعاوده في المجلس الآخر، فزبره، وقال له قوله الأول،فقال له: إنى لم آتك أندبك للعصبية، وإنما جئتك مستعديا،فقال له:حدثني كيف فعل القوم؟ فحثه وأنشده، فغضب فقال: كذب لعمري، ليجوزنها. ثم دعا بأبي عصمة أحد قواده، فقال: اخرج فجرد السيف في ربيعة، فخرج وقتل منه مقتلة عظيمة، فقال كلثوم بن عمرو العتابي قصيدته التي أولها:

ماذا شجاكِ بحُوَّارين من طلل ... ودمنةٍ كشفت عنها الأعاصيرُ

يقول فيها:

هذي يمينك في قرباك صائلةٌ ... وصارمٌ من سيوف الهِند مشهورُ

إنْ كان منّا ذَوُو إفكٍ ومارقةٌ ... وعصبةٍ دينُها العدوانُ والزورُ

فإنَّ منَّا الذي لا يستحبُّ إذَا ... حُثَّ الجيادُ وحازتْهَا المضامِيرُ

مستنبط عزمات القلب من فكر ... ما بينهن وبين الله معمور

يعني عبدالله بن هشام بن بسطام التغلبي، وكان قد أخذ قوادهم.

فبلغت القصيدة عبدالملك، فأمر أبا عصمة بالكف عنهم، فلما قدم الرشيد الرقة أنشده عبدالملك القصيدة، فقال: لمن هذه؟ فقال: لرجل من بني عتاب يقال له: كلثوم بن عمرو، فقال: وما يمنعه أن يكون بابنا. فأمر بإشخاصه من رأس عين، فوافى الرشيد عليه قميص غليظ، وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدومه أمر الرشيد بأن تفرش له حجرة، وتقام له وظيفة، ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رقاقة وملحاً وخلط الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم يتفقدونه، ويتعجبون من فعله، وسأل الرشيد عنه، فأخبروه بأمره، فأمر بطرده، فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي، وهو في مترله، فسلم عليه، وانتسب له، فرحب له وقال له: ارتفع. فقال لم آتك للجلوس، قال: فما حاجتك؟ قال: دابة أبلغ عليها إلى رأس عين، فقال: يا غلام أعطه الفرس الفلاني. فقال: لا حاجة لي في ذلك، ولكن تأمر أن تشترى لي دابة أتبلغ عليها. فقال لغلامه: أمض معه فابتع له ما يريد، فمضى معه،

فعدل به العتابي إلى سوق الحمير، فقال له: إنما أمرني أن أبتاع لك دابة، فقال له: إنه أرسلك معي و لم يرسلني معك، فإن عملت ما أريد وإلا انصرف. فمضى معه فاشترى حماراً بمائة وخمسين درهماً: وقال: ادفع ثمنه، فدفع إليه، فركب الحمار عرياً بمرشحة عليه وبرذعة، وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد: فضحتني، أمثلي يحمل مثلك على هذا؟ فضحك، وقال: ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك. ومضى إلى رأس عين"[٨٩].

(٨٩) الأغاني ١٢١/١٣ / ١٢٢ / ١٢٣.

وتوحي لنا هذه القصة بأشياء – نستدل منها على أول اتصال للعتابي بالرشيد – منها:

- إن القصة توحي بأن الرشيد لم يسمع بالعتابي من قبل حيث سأله عنه وقال: "وما يمنعه أن يكون ببابنا".
- إن اتصاله بالرشيد اتصال الجديد الذي لم نلحظ فيها أي بوادر معرفة من قبل.

ثم هو خالي التجربة من اتصاله وكيف معاملة علية القوم؟

أما ما أظهره من الخشونة في التعامل مع الرشيد ويحيى بن سعيد العقيلي فربما يكون لتأثره بالكتب الفارسية والحياة البدوية، ثم هو في فترة زهده التي تنسب إليه. وأغلب الظن أنه ندم على ذلك.

- طرد الرشيد له بسبب تصرفه وبدون وشاية أو إظهار أفكار تثير حقد الرشيد. وبعد هذه الحادثة على ما أرى تم اتصاله عن طريق البرامكة بالرشيد، بل هم الذين شفعوا له، فأخلص لهم.

وقد تم له الاتصال بالرشيد مرة ثانية بواسطة البرامكة، لكن سرعان ما أخبر الوشاة أنه معتزلي؛ فغضب عليه كما يروي الجهشياري: "كان العتابي يقول بالاعتزال، فاتصل ذلك بالرشيد وكثر عليه في أمره، فأمر فيه بأمر عظيم، فهرب إلى اليمن، فكان مقيماً بها، فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من رسائله وخطبه، فاستحسن الرشيد ذلك، وسأل عن الكلام لمن هو؟ فقال: هذا للعتابي، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام، ويصنع لهما خطبا، لكان ذلك أصلح، فأمر بإحضاره، فأخذ الأمان له، فاتصل بالخبر بالعتابي، فقال:

ما زلتُ في سكرات الموت مطرحاً قد غاب عني وجوه الأمر من
فلم تزل دائباً تسعى لتنقذني حتى استللت حياتي من يدي أجلي

وبهذه الحادثة يتعمق حبه وإخلاصه للبرامكة ويكون من خاصتهم.

ويبدو أن الرشيد يغضب عليه أكثر مما يرضى عنه، فلم تدم فترة المودة بينهما حتى عكر صفوها منصور النمري تلميذ العتابي حينما أخبر الرشيد بقوله: اكتب على فرج زوجتك "هارون "، فغضب الرشيد غضباً شديداً، وأمر بضرب عنقه، لكنه فر إلى بلد الروم حتى شفع له البرامكة أيضاً، "وكان منصور النمري الشاعر مدح الرشيد بقصيدة طويلة قال فيها:

إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

وكان شكا قبل إنشاده هذا البيت إلى كلثوم بن عمرو العتابي عسر الولادة على زوجته فلما أنشد هذا البيت قال له العتابي: اكتب على فرج زوجتك "هارون"، فذكر هذا النمري للرشيد، فأمر بضرب عنق العتابي، حتى شفع فيه يحيى بن خالد، واستوهب دمه، فصفح له عنه"[٩١].

لكن الأغاني رواها بأسلوب آخر حينما ذكر سبب وفاة منصور النمري فقال: "أخبرني منصور بن جمهور قال: سألت العتابي عن سبب غضب الرشيد عليه، فقال لي: استقبلت منصور النمري يوماً من الأيام فرأيته مغموماً واجما كئيباً فقلت له: ما خبرك؟ فقال: تركت امرأتي تطلُق وقد عسر عليها ولادها وهي يدي ورجلي، والقيّمة بأمري وأمر منزلي. فقلت له: لم لا تكتب على فرجها "هارون الرشيد" قال: ليكون ماذا؟

(٩٠) كتاب الوزراء والكتاب ٢٣٣.

(٩١) كتاب الوزراء والكتاب ٢٣٣.

قال: لتلد على المكان. قال: وكيف ذلك؟ قلت: لقولك:

إن أخلف الغيث لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فقال لي: ياكشحان [٢]، والله لئن تخلصت أمرأتي لأذكرن قولك هذا للرشيد، فلما ولدت امرأته خبر الرشيد بما كان بيني وبينه، فغضب الرشيد فاستترت عند الفضل بن الربيع، فلم يزل يسأل عني حتى أذن لي في الظهور، فلما دخلت عليه قال لي: قد بلغني ما قلته للنمري، فاعتذرت إليه حتى قبل، ثم قلت: والله يا أمير المؤمنين ما حمله على التكذيب علي إلا وقوفي على ميله إلى العَلَويّة، فإن أراد أمير المؤمنين أن أنشده شعره في مديحهم فعلت، فقال: أنشدني فأنشدته قوله:

شاء من الناس راتع حامل يعللون النفوس بالباطل

حتى بلغت إلى قوله:

إلا مساعير يغضبون لها بسلة البيض والقنا الذابل

فغضب من ذلك غضباً شديداً، وقال للفضل بن الربيع أحضره الساعة، فبعث الفضل في ذلك، فوجده قد توفي، فأمر بنبشه ليحرقه، فلم يزل الفضل يلطف له حتى كف عنه [٣].

وهذه أقرب إلى الواقع، فهي بعد نكبة البرامكة، لأنه التجأ إلى الفضل بن الربيع، وهو الذي أنقذه من الرشيد.

ومرت أيضاً فترات وحشة ونفور بين الرشيد والعتابي بسبب الشغب الذي تحدثه القبائل العربية وعلى رأسها تغلب، فقد تمرد مالك بن طوق، وامتنع عن دفع الأموال للرشيد، فأرسل له الجيوش لمحاربته، حتى أسر، وأحضر عند الرشيد فعفى عنه. وخرج الوليد بن طريف بأقاربه والخوارج حتى انتصر عليه يزيد بن مزيد. ثم حدثت جفوة أخرى بين يزيد بن مزيد والرشيد، وكل هذا من قبيلة العتابي، فلا بد أن تهز من مكانته عند الرشيد، لكن العتابي مدحه بقصيدة أعجب بها أهل عصره واعتذر إليه عن المتمردين والخارجين، وخاصة مالك بن طوق، ولعل أشهر مديحه قاله العتابي في الرشيد هي قصيدته الرائية التي تقرب بها إليه بعد فتور كان سببه خروج الوليد بن طريف على الحكم العباسي، وقد استهلها بقوله:

ماذا شجاكِ بحُوَّارين من طلل ودمنه كشفت عنها الأعاصيرُ

شجاك حتى ضمير القلب مشتَرك والعينُ إنسانُها بالماء مغمورُ (٩٢)

وقد استند مصطفى الشكعة في هذا إلى ما رواه الأغاني حيث قال: عتب الرشيد على العتابي أيام الوليد بن طريف، فقطع عنه أشياء كان عوّده إياها، فأتاه متنصلاً بهذه القصيدة:

ماذا شجاكِ بحُوَّارين من طلل ودمنةٍ كشفت عنها الأعاصيرُ

شجاك حتى ضمير القلب مشتَرك والعينُ إنسانُها بالماء مغمورُ

إلى آخر القصيدة التي سننقلها في شعره إن شاء الله.

---

(٢) الكاشح والكشحان: العدو المبغض.

[٣] الأغاني ١٣/١١٨.

(٩٢) الشعر والشعراء، مصطفى الشكعة ٥٠٨.

ثم إن العتابي أكثر من الشفعاء به عند الرشيد حتى أنه لم يجد من يقوم بالمهمة، فرأى بأنه لابد من أن يتخفّى ويدخل على الرشيد [٩٣] " أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثنا عبدالله بن سعد عن إبراهيم بن الحدين، قال: وَجَد [٩٤] الرشيد على العتابي، فدخل سراً مع المتظلمين بغير إذن، فمثل بين يدي الرشيد، وقال له: يا أمير المؤمنين، قد آذتني الناس لك ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعة بغيرك، ونعم الصائن لنفسي كنت، لو أعانني عليك الصبر، وفي ذلك أقول [٩٥]:

أخضني المَقام الغَمْرَ إنْ كان غرّني ... سنا خُلّب أو زلّت القدمان

أتتركُني جَدبَ المعيشة مُقتِرا ... وكفّاك من ماء الندى تَكِفان

وتجعلُني سَهْمَ المَطامع بعد ما ... بَلَلت يميني بالنّدى ولساني

قال: فأعجب الرشيد قوله، وخرج عليه الخلع، وقد أمر له بجائزة، فما رأيت العتابي قط أبسط منه يومئذ.

وقد مدحه بقصيدة أخرى:

إمامٌ له كفٌّ يضمُ بنانُها ... عصا الدين ممنوعاً من البَرى عودُها

وعينٌ محيط بالبرية طرفُها ... سواء عليها قربُها وبعيدُها (٩٦)

كما مدح الرشيد بقصيدة أخرى:

رعى أمة الإسلام فهو إمامُها ... وأدى إليها الحقَّ فهو أمينُها

مقيمٌ بمستن العلا حيثُ تلتقي ... طوارقُ أبكار الخطوب وعونُها

وفي الختام نرى أن الرشيد له دوره الفعال، وله مميزاته الخاصة وله شخصيته المتقلبة والمزدوجة، وأظن أن أديبنا يجتمع معه في هذه الشخصية المتقلبة العزة وحب المال أو السلطة، بل اضطراب الغرائز البشرية بين الخير والشر، بين العقل والعاطفة، لكن العقل غالباً ما ينتصر لكل منهما حسب اختصاصه.

صلته بالمأمون:

كان كلثوم بن عمرو العتابي له صلات برجال الدولة أيام البرامكة والرشيد، ولكن لم نسمع له اتصالاً برجالات الدولة أيام الأمين، غير أنه شيع المأمون، وله الحظوة الكبرى عند الفارسيين مثل البرامكة وآل طاهر وآل مهلب، والمأمون حيث المحيطون به أخواله من بني فارس، فنجد له اتصالاً معه قبيل توليته الخلافة، فحينما سافر المأمون إلى مرو نجد العتابي شيعه حتى وصل إلى سندان كسرى، "وكان يميل إلى المأمون، فلما خرج المأمون إلى خراسان شيعه حتى وصل معه إلى سندان كسرى، فقال له المأمون: سألتك بالله يا عتابي إلا عملت على زيارتنا إن صار لنا من هذا الأمر شيء"[٩٨].

---

(٩٣) الأغاني ١١٣/١٣.

(٩٤) وجد: من الوجد، وهو الغضب.

(٩٥) الأغاني ١١٣/١٣.

(٩٦) زهر الآداب ٦٧٧/٣: ٦٧٨.

(٩٧) زهر الآداب ٦٧٨/٣.

(٩٨) زهر الآداب ٦٧٦/٣.

فلما رجع إلى بغداد أراد العتابي الدخول، فدخل عليه لكن الحاجب منعه، فكتب إلى المأمون هذه الأبيات:

ما على ذلك افْتَرقْنا بسنْدانَ ... و لا هكذا عَهدْنا الإخاءَ
لم أكنْ أحْسبُ الخلافةَ يزدا ... دُ بها ذو الصفاء إلاّ صفاءَ
تَضْربُ الناسَ بالمثقفةِ السُّم ... ر على غدرهم وتنسى الوفاءَ (٩٩)

وقد أورد القصة صاحب الأغاني لكن لم يذكر هذه الأبيات وقال: إنه أذن له بعد شفاعة القاضي يحيى بن أكثم، فقال: "وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه، فصادف يحيى بن أكثم جالساً ينتظر الإذن، فقال له: إن رأيت – أعزك الله – أن تذكر أمري لأمير المؤمنين إذا دخلت فافعل، قال له: لست – أعزك الله– بحاجبه. قال: فإن لم تكن حاجباً فقد يفعل مثلك ما سألت، واعلم أن الله – عز وجل – جعل في كل شيء زكاة، وجعل زكاة المال رفد المستعين، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف. واعلم أن الله – عز وجل – مقبل عليكم بالزيادة إن شكرت، أو التغيير إن كفرت، وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأني أدعوك إلى ازدياد نعمتك وأنت تأبى. فقال له يحيى: أفعلُ وكرامة، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابي، فأذن له" (١٠٠) لكن صاحب زهر الآداب يذكر أن المأمون لم يسمح له بالدخول مباشرة، واستبطأ العتابي الوقوف بالباب، وكتب الأبيات السالفة الذكر فقال الحصري في ذلك: "فلما ولي المأمون الخلافة، ودخل بغداد سنة أربع ومائتين توصل إليه العتابي، فلم يمكنه الوصول، فقال: للقاضي يحيى بن أكثم: إن رأيت أن تُعلم أمير المؤمنين بمكاني. فقال: لست بحاجب. قال: قد علمت، ولكنك ذو فضل، وذو الفضل مطواع، فقال: سلكت بي غير طريقي. قال: إن الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة، وهما يقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، والتغيير إن كفرت، وأنا اليوم لك خير لك من نفسك، أدعوك لما فيه زيادة نعمتك، وأنت تأبى ذلك، ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه بذله للمستعين، فدخل يحيى على المأمون فقال: أجرني من لسان العتابي، فلهّى عنه، و لم يأذن له، فلما طال عليه كتب إليه:

ما على ذلك افْتَرقْنا بسنْدانَ ... ولا هكذا عَهدْنا الإخاءَ
لم أكنْ أحْسبُ الخلافةَ يزدادُ بها ... ذو الصفاء إلاّ صفاءَ
تَضْربُ الناسَ بالمثقفةِ السُّمر ... على غدرهم وتنسى الوفاءَ

وفيها يعرض بقتله لأخيه على غدره، ونكثه لما عقد الرشيد، فلما قرأ المأمون الأبيات أمر أن يدخل عليه، فلما سلم قال: يا عتابي، بلغتني وفادتك فسرتني، وقد كنت بلغتني وفاتك فساءتني، وإني لحري بالغم لبعدك والسرور بقربك. فقال: يا أمير المؤمنين، لو قسم هذا الكلام على أهل الأرض لوسعهم عدلاً وأعجزهم شكراً، وإن رضاك لغاية المنى، لأنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك، قال: سلني، قال: يدك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة، فأمر له بخمسين ألفاً (١٠١).

ومن هذا نجد أن المأمون تمنّع في إدخاله بعض الشيء، لكنه أكرمه وأعطاه جاهاً معنوياً ومادياً، فقد

---

(٩٩) زهر الآداب ٦٧٦/٣.

(١٠٠) الأغاني ١١٥.

(١٠١) زهر الآداب ٦٧٦/٣: ٦٧٧.

أكرمه بكلماته حيث يقول بلغتني وفادتك فسرتني، وقد كانت بلغتني وفاتك فساءتني، وإني لحري بالغم لبعدك والسرور بقربك"، كما أكرمه مادياً حيث أعطاه خمسين ألفاً.

لكن عملية الإكرام هذه يفردها الأصفهاني في زيارة أخرى أكثر جاهاً بدعوة من الخليفة المأمون، بينما صاحب زهر الآداب يسردها مع القصة الأولى التي حدثت عند أول لقائه بالمأمون على أغلب الظن. أمّا صاحب الأغاني فيذكر بأن المأمون كتب بإشخاص العتابي "كتب المأمون في إشخاص كلثوم بن عمرو العتابي، فلما دخل عليه قال له: يا كلثوم بلغتني وفاتك فساءتني، ثم بلغتني وفادتك فسرتني، فقال له العتابي: يا أمير المؤمنين، لو قُسِمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتها فضلاً وإنعاماً، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أمنية، ولا يبسط لسواه أمل. لأنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك. فقال له: سلني. فقال: يدك بالعطاء أطلق من لساني بالسؤال، فوصله صلات سنية، وبلغ به من التقديم والإكرام أعلى محل" [١٠٢]. والذي أرجحه أنها زيادة أخرى وحكاية أخرى، وذلك لأن الأغاني قريب عهد بتاريخ العتابي، ثم إن نمط وكلام هذه الزيارة مناسب لإرسال الدعوة للعتابي وغير مناسب لمنعه على الباب وإدخاله بواسطة.

وقد كرر الزيارة مرة أخرى حينما بدأت الصداقة بينه وبين إسحاق الموصلي في مجلس المأمون، كما ذكر ذك صاحب الأغاني: "لما قدم العتابي مدينة السلام على المأمون، أذن له، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلي. وكان العتابي شيخاً جليلاً نبيلاً، فسلم فرد عليه وأدناه، وقربه حتى قرب منه، فقبل يده: ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسأله عن حاله، وهو يجيبه بلسان ذلق طلق، فاستظرف المأمون ذلك. وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه استخف به، فقال: يا أمير المؤمنين [١٠٣]: الإيناس قبل الإبساس، فاشتبه على المأمون قوله، فنظر إلى إسحاق مستفهماً، فأوما إليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، ألف دينار. فأتى بذلك، فوضعه بين يدي العتابي. وأخذوا في الحديث، وغمز المأمون إسحاق بن إبراهيم عليه. فجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه فيه إسحاق، فبقي العتابي متعجباً، ثم قال: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال نعم، سل. فقال لإسحاق: يا شيخ من أنت؟ وما اسمك؟ قال: أنا من الناس، واسمي كل بصل، فتبسم العتابي وقال: أما أنت فمعروف، وأمّا الاسم فمنكر. فقال إسحاق: ما أقل إنصافك، أتنكر أن يكون اسمي كل بصل؟ واسمك كل ثوم، وكل ثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتابي: لله درك فما أحجك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلتني به؟ فقال له المأمون: بل ذلك موفر عليك وتأمر له بمثله. فقال له إسحاق: أما إذا قررت بهذا، فتوهمني تجدني، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي الذي تناهى إلينا خبره، قال: أنا حيث ظننت. وأقبل عليه بالتحية والسلام. فقال المأمون، وقد طال الحديث بينهما: أما إذا اتفقتما على المودة فانصرفا متنادمين. فانصرف العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده" [١٠٤].

إنها لحادثة تدل على مدى علمه وثقافته ومنزلته الخاصة عند الخلفاء، ثم على اعتزازه بنفسه، فهو لن يتورع أن يرد المأمون عند حده لّما شك أنه يستخف به، ثم على حسن محادثته وحججه وخبرته بالرجال، ثم هو في آخر عهده قد انهال عليه المال وهذه كافية لغناه، فهو يأخذ من الخليفة وصادق أهل الثروة، فلا بد أن

---

(١٠٢) الأغاني ١١١/١٣.

(١٠٣) الإيناس قبل الإباس: مثل يضرب في المداراة عند الطلب.

(١٠٤) الأغاني ١١١/١٣: ١١٢.

يساعدوه إن وجدا عليه ضيقاً.

ويبدو أن العتابي طعن في السن وثقل وهرم، لكنه احتفظ برجاحة عقله وثقله، فقد زار المأمون وهو طاعن في السن عاجز عن القيام بدون مساعدة، فساعده المأمون يوماً على النهوض، مما يدل على علو مكانته وحسن معاملة المأمون لجلسائه واحترامه الكبير، فقد روى صاحب الأغاني: "رأيت العتابي جالساً بين يدي المأمون وقد أسنّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فما زال ينهضه رويداً رويداً حتى أقله فنهض، فعجبت من ذلك، وقلت لبعض الخدم: ما أسوأ أدب هذا الشيخ، فمن هو؟ قال: العتابي".

لكن هذه الأحداث تدل على كثرة اتصاله بالمأمون، وتردده عليه ونيله هباته، لكن السؤال الواضح هو أين القصائد التي مدح العتابي بها المأمون؟

أظن أن العتابي لم يفد على المأمون إلا بعد أن أسن ونضبت قريحة الشعر عنده، ثم هو يفد عليه بصفة العالم الجليل والشيخ الوقور المكرم، لا بصفة الشاعر السائل المستزيد، ومع ذلك لا أظنه تركه بدون أبيات، ولكن الأرجح أنها قليلة وفقدت.

صلته بطاهر بن الحسين وأسرته:

زالت دولة البرامكة تلك التي تحاول بث الأدب الفارسي ومناصرته، فتُكرم بمنح الجوائز من يتصل بهذا الأدب ويبحث عنه ويعجب به، ثم ورثتها في المهمة أسرة طاهر بن الحسين الفارسية. فبعد نكبة البرامكة وتولي الجيش طاهر بن الحسين في الجزيرة اتصل به كلثوم بن عمرو العتابي، فرحب به وقربه إليه، والروايات لم توضح لنا أول اتصال به، ولا حتى أوردت نصوص مدح له، بل حكت لنا قصة المصالحة على يد طاهر بن الحسين بين العتابي والنمري، وهذا يدل على أنها قبل وفاة الرشيد، فالنمري توفي قبل الرشيد.

"شكا مصنور النمري العتابي إلى طاهر بن الحسين، فوجه طاهر إلى العتابي، فأحضره، وأخفى منصوراً في بيت قريب منهما، وسأل طاهر العتابي أن يصالح، فشكا سوء فعله به فسأله أن يصفح عنه: فقال: لا يستحق ذلك. فأمر منصور بالخروج، فخرج وقال للعتابي: لم لا أستحق هذا منك؟ فأنشأ العتابي يقول:

أَصْحَبْتُكَ الفَضْلَ إذْ لا أنْتَ تعرفُهُ ... حقّاً ولا لك في استصحابه أرَبُ

لم تَرتَبطْكَ على وصلى مُحافظَةٌ ... ولا أعاذَكَ مما اغتالك الأدَبُ

ما مِنْ جميل ولا عُرفٍ نطقتَ به ... إلاّ إليّ وإنْ أنكرتَ ينتسبُ

قال: فأصلح طاهر بينهما – وكان منصور من تعليم العتابي وتخريجه – وأمر طاهر للعتابي بثلاثين ألف درهم [١٠٥].

وقد ذكر الأصفهاني بأنها وردت إليه القصة بأكثر من طريق.

ومن هذه القصة ندرك أن هناك صلة قوية بين طاهر بن الحسين والعتابي فهناك معرفة تامة قبل أن يتألق نجم طاهر بن الحسين بقيادته الجيوش وقتله الأمين. واستمرت هذه الصلة مع أبناء طاهر فظهرت أكثر عند عبدالله بن طاهر بن الحسين؛ فإن العتابي تردد على مجلسه وأجزل له العطايا والهبات، وقربه إلى مجلسه، بل كان

(١٠٥) الأغاني ١١٨/١٣.

معجباً بشعره، حتى أنه جعله مقياساً للشعراء ببابه: "عن موسى بن عبدالله التميمي، قال: وفد إلى عبدالله بن طاهر جمع من الشعراء، فعلم أنهم على بابه، فقال لخادم له أديب: اخرج إلى القوم، وقل لهم: من كان منكم يقول كما قال العتابي للرشيد:

مستنبط عزمات القلب من فكر ... ما بينهن وبين الله معمور

فليدخل، وليعلم أني إن وجدته مقصراً عن ذلك حرمته، فمن وثق من نفسه أنه يقول مثل هذا فليقم. قال: فدخلوا جميعاً إلا أربعة نفر" (١٠٦).

وقد روت لنا كتب الأدب أنه كان يمدح عبدالله ويتردد عليه: "دخل العتابي على عبدالله بن طاهر فمثل بين يديه، وأنشده:

حُسْنُ ظني وحُسن ما عود الل ... ه سوى منك الغداة أتى بي

أي شيء يكونُ من حس ... ن يقين حدا إليْك ركابي

قال: فأمر له بجائزة، ثم دخل عليه من الغد، فأنشده:

ودُّكَ يكفينيك في حاجتي ... ورؤيتي كافية عن السؤالْ

وكيف أخشى الفقرَ ما عشتَ لي ... وإنما كفاك لي بيت مال

فأمر له بجائزة، ثم دخل في اليوم الثالث فأنشده:

بهجات الثياب يخلقها الدّه ... ر وثوب الثناء غض جديد

فاكسني ما يبيد أصلحك الل ... ه فالله يكسوك ما لا يبيد

فأمر له بجائزة وأنعم عليه بخلعة سنية (١٠٧).

ومن هذه الحكاية نستفيد أن عبدالله بن طاهر يشجعه على زيارة مجلسه، ولو كانت يومياً، ويشعره بأنه لم يمل منه، بل تجاوز ذلك إلى أنه يعُوده في مرضه إذا ما مرض ويكرر الزيارة له: "عاد عبدالله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب، كلثوم بن عمرو العتابي، في علة اعتلها، فقال الناس: هذه خطرة خطرت. فبلغ ذلك العتابي، فكتب إلى عبدالله بن طاهر:

قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خطرت ... ونجَارُ (١٠٨) برِّكَ ليس بالخِطْر

فادْفَعْ مقالتهم بثانية ... تستنفذ المجهودَ مِن شُكْرى

فلما بلغت أبياته عبدالله بن طاهر ضحك من قوله، وركب هو إسحاق بن إبراهيم فعاده مرة ثانية (١٠٩).

ويروي الحصري أنها زيارة وليس فيه مرضٌ، بل ظلا يتدارسان الكتب معاً. وقد روى الصفة بوجه مخالف لما رواه الأغاني، فقد قال: "واجتاز عبدالله بن طاهر بالرقة بمنزل العتابي، فقال: أليس هذا منزل كلثوم بن عمرو؟ قيل: نعم. فثنى رجله، ودخل إليه،فألفاه جالساً في بيت كتبه، فحادثه وذاكره، ثم انصرف، فتحدث

---

(١٠٦) الأغاني ١١٢/١٣.

(١٠٧) الأغاني ١١٦/١٣: ١١٧.

(١٠٨) النُّجار: الأصل والحسب، فهو يعني بنجار برك: ثبات عطاياك وعظمها.

(١٠٩) الأغاني ١٢٠/١٣.

الناس في ذلك وقالوا:إن الأمير لم يقصده،وإنما اجتاز به فأخطر ذلك الزيارة،فكتب إليه:

يـــا مَـــنْ أفـــادَتْنى زيارتُـــه	بَعْـــدَ الخمـــول نَبَاهـــةَ الـــذكْر
قـــالوا الزيـــارةُ خَطْـــرَة	ومجاز خَطْـرك لـيس بـالخطر
فـــادْفَعْ مقالتـــهم بثالثـــةٍ	تستنفذ المجهـودَ مِـن شُـكري
لا تجعَلـــنَّ الـــوتْرَ واحـــدةً	إن الـــثلاث تتمـــةُ الـــوتر

وربما كان القصد بعثه الأبيات أو زاره ثلاثا (١١٠).

وهو لم يقتصر على مجالسة عبدالله بن طاهر، بل كان يجالس محمد بن طاهر بن الحسين، ويجالس المقربين لأسرة طاهر، كما يروى عن يحيى بن الحسن بن علي بن معاذ قوله: "إني كنت بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة، إذ دعوت بغلام، فكلمته بالفارسية فدخل العتابي، وكان حاضراً في كلامنا، فتكلم معي بالفارسية، فقلت: أبا عمرو، مالك وهذه الرطانة؟ قال: فقال لي: قدمت بلدكم هذه الثلاث قدمات، وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو، وكانت الكتب إلى ما هناك مع (يزدجرد) فهي قائمة إلى الساعة، فكتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ إلى قرية يقال لها ذودر، فذكرت كتاباً لم أقض حاجتي منه، فرجعت إلى مرو فأقمت أشهراً. قال: قلت أبا عمرو، لم كتبت كتب العجم،قال لي: وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة؟ اللغة لنا والمعاني لهم، ثم كان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيراً" (١١١).

ثقافته وعواملها:

كم يرى النور كل يوم من الأطفال فيتجه كل منه إلى شأنه؟ فمنهم من يؤدي وظيفته في المجتمع ومنهم من يكون عالة عليه، ومنهم من يظل على بداوته، ومنهم من يتنور قليلاً، ومنهم من يكون عالماً نحريراً، وهذه خاضعة – مع توفيق الله – للاستعداد عند الفرد من ذكاء وإقدام ومراس وجلاد على التعب، والاستعداد يساعده على السير، والذكاء يفتح له الآفاق، فإذا اجتمعت في شخص واستغلها، فإنه يرجى له مستقبل زاهر. وأديبنا العتابي قد مكنه الله، فهو عالي الهمة، متوقد الذكاء، عامل للوسائل، فمن بداية إدراكه وهو جاد ومجتهد ومتابع التحصيل بهمة قوية، فما تراه إلا ملاحقاً للعلماء والعلم وحلقاته.

إن هذا الاستعداد القوي بمثابة الشعلة، تزداد اشتعالاً إذا التقت بالطموح في آن واحد، فإن العتابي التغلبي امتاز بطموحه الظاهر، فهو لم يبال بأي عقبة تعترض هدفه الذي يتخذه نصب عينيه، فمثلاً ظهر ميوله الشعري مبكراً، فلم ينته طموحه إلى هذا الحد،بل واصل تعلمه واطلاعه وسفراته، والسهر في دكاكين الوراقين، بل وتعلم لغة أخرى حتى يطلع على معالم ومعارف وفلسفة لم يطلع عليها أكثر علماء عصره.

إن من أصعب الصعاب التي تمر في طريق المتعلم، الرحلات العلمية في ذلك العصر، فهي تحتاج إلى صبر لما فيها من المشاق، لكن إلى جانب الصعوبة تعظم الفائدة منها، ففيها كثافة علمية، فإن المناظر التي يمر بها والمجتمعات والظروف المحيطة بالأسفار لها الأثر الكبير في تكوين العقلية، زد على ذلك الهدف من الرحلة كالاطلاع على

(١١٠) زهر الآداب ٣/٦٧٥، ٦٧٦.

(١١١) العتابي ٣٥.

الكتب وتمحيصها ومجالسة العلماء والشعراء ومسامرتهم وحلقات المساجد ودور المكاتب وزيارة الإمراء والقادة وأعيان البلاد، كل ذلك يزيد في تفتح العقلية من حيث يشعر أولا يشعر، وإننا لنراها بارزة في شخصية العتابي، فهو الشاعر الكاتب البليغ الحكيم الفيلسوف و لم تجمع تلك الصفات لغيره في عصره.

وهناك عامل آخر ساعد على اتساع أفقه العلمي وهو إتاحة الفرص له فلم يكن مشغولاً بل متفرغاً في سبيل العلم، و لم يكن يحمل هما عدا الاطلاع والبحث العلمي، لذا نراه يتنقل من بلد إلى بلد ومن مسجد لمسجد، ومن عالم إلى عالم، ومن شاعر إلى شاعر، فضلاً عن المجالس التي تعقد فيها المناظرات، ومتابعته دكاكين الوراقين بالبحث والتنقيب، فازداد فكراً وعلماً.

ثم إذا ما نظرنا إلى البيئة ودورها في تكوين الإنسان نجد أثرها واضحاً في الشخصية بوجه عام والشاعر والكاتب بوجه خاص، وإذا ما حددنا بيئة العتابي فإننا نراه تنقل واستوطن ثلاثة أقاليم هي الشام والعراق وخراسان. فالعراق مهد الخلافة العباسية وهي قريبة من الرقة وبلاد الجزيرة موطن العتابي، وخراسان متصلة بها اتصالاً وثيقاً بما لأهل فارس من النفوذ.

وبيئة العراق التي استوطنها تعج بالأجناس، ففيها العربي وثقافته وعاداته، وفيها الفارسي وثقافته وعاداته، وفيها الهندي وثقافته، والرومي وثقافته وتقاليده، إلى جانب الثقافة اليونانية، وقد انصهرت الأجناس في بعضها وكونت مجتمعاً منطلقاً مختلطاً، هذا لمن اكتفى بالاختلاط، والطريق مفتوح لمن أراد المزيد، بل إن الفرد يجتهد لينمي ثقافته فضلاً عن العلماء الطالبين العلم للفائدة، فأبواب المكتبات مفتوحة ومجالس المناظرة والمناقشة كثيرة، ودكاكين الوراقين لها دورها الكبير أيضاً، وكل هذه الأمور تحتم على العاقل طلب المزيد وتفتح له آفاقاً واسعة، لذا نجد العتابي أصبح في القمة، فهو إلى جانب شاعريته أصبح كاتباً، بفضل مثابرته، وأهم ما استفاده من هذه البيئة غزارة العلوم وعمق الفكرة، فهو متدبر لكل شيء يحيط به، حتى شعره تأثر بفكره، فأكثر مقطوعاته عقلية قصيرة ذات معان دقيقة، فلسفية ذات تأمل عميق.

وقد أمدته بيئته الشام بالجمال والذوق لما فيها من بساتين وأنهار وأعشاب وجمال الطبيعة.

واستمد من بيئة خراسان تدفق الأفكار وغزارتها، وذلك لما عند أهل من فكر متدفق، ولما درسه فيها من كتب قدماء أهل فارس.

والعتابي لم يكتف بما استفاده من البيئة بل تجاوزه إلى معرفة اللغة الفارسية (البهلوية القديمة) ومجالس علمائها، بل وتابع مدنها بحثاً عن الكتب، ومكث بالمدن أشهراً لأجل الاطلاع على ما فيها من تراث فارس، فتزود بالمعاني الكثيرة والأفكار الدقيقة، وتقرب لأصحاب النفوذ من أهل فارس فأعزوه وقربوه إليهم بل وحادثوه بالفارسية، روي عن يحيى بن الحسن بن علي بن معاد قوله:"إني كنت بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة، إذ دعوت بغلام، فكلمته، بالفارسية، فدخل العتابي، وكان حاضراً في كلامنا، فتكلم معي بالفارسية فقلت: أبا عمرو، مالك وهذه الرطانة؟ قال: فقال لي: قدمت بلدكم هذه الثلاث قدمات، وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو، وكانت الكتب إلى ما هناك مع "يزدجرد"، فهي قائمة إلى الساعة، فكتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ إلى قرية يقال لها: ذودر، فذكرت كتاباً لم أقض حاجتي منه، فرجعت إلى مرو فأقمت أشهراً. قال: قلت: أبا عمرو، لم كتبت كتب العجم، قال لي: وهل

المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة؟ اللغة لنا والمعاني لهم، ثم كان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيراً" (١١٢).

وقد أثمر هذا الاطلاع ثمرته كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة: "وللعتابي فلسفة حكيمة وتعليلات عاقلة، تنم عن أفق واسع رحيب وفكر منظم رتيب" (١١٣).

وقد تميز العصر العباسي بمنافسات ومجادلات واختلاف مذاهب وأنصار لكل مذهب وكل نحلة يحتضنها أحد الأمراء وعظماء الدولة ومجالس هذه البيئات العلمية، تكون من عليّة القوم أدباً وعقلاً، فلا يصل إليها إلا من شهد له بالعلم والنبوغ، لذا يتدرج الشاب من الكتاتيب إلى المساجد إلى حلقات العلماء إلى المناظرة والمجادلة والمدافعة عن أحد المذاهب، وكلٌّ من صاحب مذهب أو فكرة يحاول أن يضم إليها من كان عالماً نابغاً ذكياً يدرك أنه يشق له مكاناً بين تلك المجالس ليتصدرها، وقد ساهم العتابي بالصبر والجلد في شبابه حتى وصل أعلى الدرجات، ونال من كل علم غايته، فله صدارة المجلس والاحترام من كل عالم.

وتقريب الخلفاء والوزراء للناس حسب شاعريتهم وعلمهم وثقافتهم له دوره الكبير فيها، فإنك تجد الخليفة يقول لحاجبه: أدخل من أجاد، ويستمع إليهم ليحكم، بل جعل أحدهم شعر العتابي ميزاناً للشعراء: "وأخبرني الحسن بن علي قال: حدثني القاسم بن مهرويه، قال: حدثني جعفر بن الفضل، عن رجل من ولد إبراهيم الحراني، قال: كثر الشعراء بباب المأمون فأذن بهم، فقال لعلي بن صالح صاحب المصلى: أعرضهم، فمن كان منهم مجيداً فأوصله إلي، ومن كان غير مجيد فاصرفه، وصادف ذلك شغلاً من علي بن صالح كان يريد أن يتشاغل به عن أمر نفسه، فقام مغضباً، وقال: والله لأعمنهم بالحرمان، ثم جلس لهم، ودعا بهم، فجعلوا يتغالبون على القرب منه، فقال لهم: على رسلكم، فإن المدى أقرب من ذلك، هل فيكم من يحسن أن يقول كما قال أخوكم العتابي:

ماذا عَسى مادحٌ يُثني عليك وقد ... ناداك في الوحى تقديسٌ وتطهيرُ

فت المدائح إلا أن ألسننا ... مستنطقات بما تخفى الضمائرُ

قالوا: لا والله ما بنا أحد يحسن أن يقول مثل هذا، قال: فانصرفوا جميعاً (١١٤). "وله حادثة أخرى مشابهة، يروي الأغاني "قال: وفد إلى عبدالله بن طاهر جمع من الشعراء فعلم أنهم على بابه، فقال لخادم له أديب: اخرج إلى القوم، وقل لهم: من كان منكم يقول كما قال العتابي للرشيد:

مُستنبط عَزمَاتِ القلب من فكر ... ما بينهن وَّبينَ الله معمورُ

فليدخل، وليعلم أني إن وجدته مقصراً عن ذلك حرمته، فمن وثق من نفسه أنه يقول مثل هذا فليقم. وقال: فدخلوا جميعاً إلا أربعة نفر"(١١٥).

لذلك تجد كل باب يفتح على مصارعيه للعتابي فهو العالم الشاعر الكاتب.

ومجالس العلم والعلماء يحتضنها دائماً عليّة القوم وتحدث فيها المناقشات والمناظرات والمجادلات، فيزداد

---

(١١٢) العتابي ٣٤/٣٥.

(١١٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي ٤٩٨.

(١١٤) الأغاني ١٣/١٠٩.

(١١٥) الأغاني ١٣/١١٢.

فيها العالم علماً على علمه، ويتسع أفقه العقلي والمنطقي والحولي أكثر، بل هو يحرص أن يأتي بجديد حتى تكون له المكانة المرموقة مما يشجعه ويجعله على دأب المطالعة.

كل هذه العوامل كونت من العتابي ذلك العالم والكاتب البليغ الشاعر القدير.

حالته الاجتماعية:

نشأ العتابي في بلدة قنسرين، ثم سافر وتنقل في البلاد لطلب العلم مخالفاً بذلك عادة القبيلة من التكاتف والحماية ببعضها، فانطلق إلى البصرة، ثم الكوفة، ثم بغداد ثم استقر في الرقة ورأس عين، وتزوج باهلية، والتف حوله التلاميذ يأخذون من علمه، ويتعلمون منه الشعر والآداب وعلى رأسهم منصور النمري ومحمد بن موسى الضبي والخزاز، وهؤلاء من رواته وأشهر تلاميذه، وبدأوا فيما بعد ينافسونه على مترلته وخاصة منصور النمري الشاعر المشهور. غير أن منصور النمري جادٌّ في طلب العيش يسعى له بكل جهد ويعمل كل الوسائل، حتى أنه نافق أمام العباسيين ومدحهم وهو علوي، وبهذا كون ثروة كبيرة، بينما العتابي رجل علم ورجل صراحة وعزة نفس، فلا يتطفل، ولا ينطق إلا بما يعتقد، ولا يسعى جاهداً وراء المال، ولا يعمل بوسائله، وتجلى هذا واضحاً على أسرتيهما، فإن نساء النمري لبسن أحسن الملابس وأفضل الحلل، وأكلن من أفضل الأكل، بينما أسرة العتابي تعاني من الجوع والجهد والمشقة، مما أثار غريزة امرأة العتابي، لتحثه على طلب المال والاتصال بالخلفاء والأمراء، وتثير حفيظته بأن تقارن بينه بين النمري وهو تلميذه كما روى الأصبهاني [١١٦]: "وكانت تحته امرأة بأهلية، فلامته، وقالت: هذا منصور النمري قد أخذ الأموال فحلى نساءه، وبنى داره، واشترى ضياعاً، وأنت ها هنا كما ترى، فأنشأ يقول:

تلومُ على تَرْكْ الغِنى باهليّةٌ ... زوى الفقر عنها كل طِرْفٍ وتالدِ
رأت حولها النَّسوانَ يَرْفُلْنَ ... في الثرا مُقَّلدة أجيادُها بالقلائِدِ
أسَرك أنِّى نلْتُ ما نال جعْفرٌ ... من العيش أو ما نال يَحْيَى بنُ
وإنّ أميرَ المؤمِنينَ أغصنِي ... مغصهما بالمشرفات البواردِ
رأيتُ رفيعاتِ الأمور مشوبةً ... بمستودعاتٍ في بُطون الأساودِ
دعيني تَجئني ميتتي مطمئنة ... ولم أتجشّم هول تلك المواردِ

وهو يستَلذ بمجالس العلم والعلماء ومجالسة الكتب والاطلاع الواسع على كوامنها، ويفضلها على السعي وراء المال وجلبه، بل إن أقاربه والمحيطين به عابوا عليه جموده وخموله، كما يرون ذلك، فقال صاحب الأغاني يروي القصة [١١٧]: "كان العتابي جالساً ذات يوم ينظر في كتاب، فمر به بعض جيرانه، فقال: أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتابي يقول:

يا قاتل اللهُ أقْوامَّاً إذا ثقفُوا ... ذا اللبِّ ينظرُ في الآداب و الحكم
قالوا وليس بهم إلاّ نفاستُه ... أنافعٌ ذا من الإقتار والعدم
و ليس يدرون أنّ الحظّ ما حُرموا ... لحاهم الله من علم ومن فَهَم

وهو لا يبالي بالكماليات سواء في الأكل أو في الملابس، فقد حثه يحيى بن خالد البرمكي على لبس

(١١٦) الأغاني ١٢/١٢٣: ١٢٤.

(١١٧) الأغاني ١٣/١١٨/١١٩.

أفضل، فرد عليه رداً مقنعاً [١١٨] "وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وكان لا يبالي أي ثوبيه ابتذل، فقال: أبعد الله رجلاً همه أن يكون جماله في لباسه وعطره، إنما ذلك حظ النساء، وأهل الأهواء، حتى يرفعه أكبراه: همته ولبه، ويعلو به معظماه: لسانه وقلبه".

ثم هو لا يبالي بالتقاليد والعادات المتعارف عليها، بل يحتقر عامة الناس في بعض الأحيان ويعيب عليهم جهلهم، وأظن ذلك في كهولته حينما تسوده العزة بنفسه بموجة عارمة.

لذا فهو لا يتحاشاهم فيلومه أصحابه على ذلك، فيقنعهم بأن الناس لا يفهمون [١١٩]، "قال: حدثنا عثمان الوراق، قال: "رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحكم أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لوكنا في دار فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر. فقال فوعظ وقص ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسان أرنبة أنفه لم يدخل النار. فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه، يومئ به نحو أرنبة أنفه، ويقدره حتى يبلغها أم لا. فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟".

ومع هذه القصة فإنه يود أن يتلطف إلى الناس ويكسب ودهم ويصاحبهم، حتى لقد تحدث كثيراً في الإخوانيات عن الصداقة والصديق.

"قيل للعتابي: إنك تلقى العامة ببشر وتقريب. فقال: "رفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأهون مبذول".

فإذا استنتجنا من الآثار المدونة عنه وجدناه في بداية حياته وكهولته يطلب العلم، فلا بد أن يكون ما لديه من المال لا يفي بحاجته، ثم تم له الاتصال بالبرامكة وهم لا يؤاخذونه على تصرفه الخشن، فأخذوا يهبون له الأموال، لكن نفسيته وتعامله الفج وغضب الرشيد عليه مرات كثيرة بسبب القبلية وأسباب أخرى، وأسفاره حينما يهرب من وجه الخليفة، تجعل الأموال التي يحصل عليها من البرامكة لا تغطي التكلفة.

وهو يتروي إلى نفسه في فترة نكبة البرامكة، ويصاب بالفقر الشديد مرة أخرى، لذا نجده يلتجئ إلى الفضل بن الربيع ليشفع له عند الرشيد، في آخر أيامه وقبيل موت منصور النمري، وسننقل المقطع الذي فيه ذكر الفضل بن الربيع لتكرار القصة أكثر من مرة [١٢٠]، "فغضب الرشيد لذلك وأمر بطلبي، فاستترت عند الفضل بن الربيع، فلم يزل يسأل في حتى أذن لي في الظهور، فلما دخلت عليه، قال لي: بلغني ما قلته للنمري، فاعتذرت إليه حتى قبل ... إلخ".

وتمر به فترة صعبة حينما تولى الخلافة الأمين، وتعم صعوبتها البلاد والعباد حينما قامت الحرب بين جيوش الأخوين، وفي هذه الفترة مال إلى العزلة والانطواء، وقد عبر عن هذه الفترة بقوله [١٢١]:

ألا قد نكس الدهر فأضحى حلوه مرًّا

---

(١١٨) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

(١١٩) الأغاني ١١٤/١٣.

(١٢٠) الأغاني ١٤٨/١٣.

(١٢١) تاريخ بغداد ٣٦١/١٢.

وقـــد جربـــت مـــن فيـــه فلـــم أحمـــدهم طـــرًّا
فـــألزم نفســـك اليـــأس مـــن النـــاس تعـــش حـــرًّا

وتستمر هذه الفترة حتى استتب الأمن وعاد المأمون إلى بغداد، وعاد النظام إلى ربوعه، وأغلب الظن أن زوجته توفيت في هذه الفترة، لذا حثّوه على الزواج، فرد عليهم بما يوحي بفقره وقلة ماله، وما كابده من الصعوبات كما رواه الأغاني [١٢٢] "قال: وقيل له: لو تزوجت: فقال: إني وجدت مكابدة العفة أيسر علي من الاحتيال لمصلحة العيال". ومقولته هذا تمثل حضوراً إنسانياً دائماً، فنحن اليوم أشد معانة من تربية الأولاد، فتربتهم هاجس ضاغط على فكر كل أبٍ.

وهذه الظروف من الحرمان والحسرة وفقدان المال والبنين والزوجة الصالحة أثرت في نفسه، وقد تذكر حاله، وقارنها بحال قومه وما كانوا عليه من العزة والأنفة والأموال فقال:

إنّى امـرؤٌ هـدمَ الإقتـارُ مـأثرتي واجتاح ما أبـدت الأيَّـامُ مـن
أنا ابنُ عمر وبـن كلثـوم يُسـوّدَهُ حيَّا ربيعةَ والأحياءُ مـن مُضَـر
أُرومـةٌ عطلـتنى مـن مكارمهـا كالقوس عطلها الرامى من الـوتر

لكن لما عاد المأمون واتصل به وصاحبه، واتصل بعبد الله بن طاهر بن الحسين عاد عطاء الأموال، وتقلب بين الخليفة والوالي، تغيرت حاله وتحسنت، ولكنه كبر وطعن في السن وليس عنده مقدرة على الزواج.

عقيدته:

لقد تحدث بعض الكتاب عن زهده، واستشهدوا ببعض أعماله وأسلوب أكله وملابسه، وسنورد الآثار في ذلك حسب ما روته كتب الأدب، فقد رُوِي عنه أن عبدالملك بن صالح ذكره عند الرشيد، ولما وصل الرشيد أعد له منزلاً وخدماً، وحينما يُحضر الأكل يكتفي بالخبز والملح والتراب، ويترك الفراش وينام على الأرض، وزهد بالفرَس والدابة، ورضي بحمار يركبه[١٢٤]. "فلما قدم الرشيد الرقة أنشده عبدالملك القصيدة [١٢٥]، فقال: لمن هذه؟ فقال: لرجل من بني عتاب يقال له كلثوم ابن عمرو، فقال: وما يمنعه أن يكون ببابنا، فأمر بإشخاصه من رأس عين، فوافى الرشيد وعليه قميص غليظ، وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدومه أمر الرشيد بأن تفرش له حجرة، وتقام له وظيفة، ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رقاقة وملحاً، وخلط الملح بالتراب،فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض والخدم يتفقدونه، ويتعجبون من فعله، وسأل الرشيد عنه، فأخبروه بأمره، فأمر بطرده، فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله فسلم عليه، وانتسب له، فرحب له وقال له: ارتفع، فقال: لم آتك للجلوس، قال: فما حاجتك؟ قال: دابة أبلغ عليها إلى رأس عين، فقال: يا غلام أعطه الفرس الفلاني. فقال: لا حاجة لي في ذلك، ولكن تأمر أن تشترى لي دابة أتبلغ عليها. فقال لغلامه: أمض معه فابتع له ما يريد، فمضى معه،

---

(١٢٢) الأغاني ١١٦/١٣.

(١٢٣) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

(١٢٤) الأغاني ١٢٣/١٣.

(١٢٥) القصيدة التي مدح فيها العتابي عبدالملك.

فعدل به العتابي إلى سوق الحمير، فقال له: إنما أمرني أن أبتاع لك دابة، فقال له: إنه أرسلك معي و لم يرسلني معك، فإن عملت ما أريد وإلا انصرف. فمضى معه فاشترى حماراً بمائة وخمسين درهماً: وقال: ادفع ثمنه، فدفع إليه، فركب الحمار عرياً بمرشحة عليه وبرذعة، وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد: فضحتني، أمثلي يحمل مثلك على هذا؟ فضحك، وقال: ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك. ومضى إلى رأس عين". فأنت ترى أن هذه القصة تدل على زهده بالمال وبالأكل وبحالته المعنوية، وربما أنه تأثر بقراء فلسفة الرهبانية، وكذلك التعذيب الجسدي في الديانة البوذية.

ولما عابوا عليه عدم اتصاله بالأمراء والخلفاء والوزراء وعليّة القوم ليحصلوا على مثل ما حصل عليه بقية الشعراء والعلماء من المال والجاه رد عليهم رداً مقنعاً[١٢٦]. " فقد قيل له: لم لا تقصد السلطان فتخدمه؟ فقال: لأني أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب، ولست أدري أي الرجلين أنا، ولست أرجو منه مقدار ما أخاطر به". وهذا الكلام قاله بعد نكبة البرامكة وأنت ترى أن تعليله منطق مادي، ليس تقوى وتركاً ما عند الناس إلى ما عند الله، إذن فهذا الكلام لا يدخل في باب الزهد.

وهو يقلد شخصية الحسن البصري، فيرسل إلى علية القوم ليهديهم إلى طريق الصواب، فقد أرسل إلى أبي يوسف القاضي يقول فيها: "أما بعد، فخف الله الذي أنعم عليكم بتلاوة كتابه، واحذر أن يكون لسانك عدة للفتنة، وعملك ردءاً للمعتدين، فإن أئمة الجور إنما يكيدون الصالحين باستصحاب أهل العلم"[١٢٧].

هذه الرسالة عندي هي أقرب أعماله إلى وجه الله ولها صلة وثيقة بتقوى الله.

ومما ذكروا في زهده قوله في خطبته: "أما بعد، فإنه لا يخبر عني فضل المرء أصدق من تركه تزكية نفسه" [١٢٨]. وأظنك أيها القارئ معي أنها لا تدخل في باب الزهد فكأنها حث إلى معرفته من جانب آخر.

وقالوا عن لبسه ولوم يحيى بن خالد له وإجابته بأنها تقشف وزهد: "وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وكان لا يبالي أي ثوبيه ابتذل فقال: أبعد الله رجلاً همه أن يكون جماله في لباسه وعطره، إنما ذلك حظ النساء، وأهل الأهواء، حتى يرفعه أكبراه: همته ولبه، ويعلو به معظماه: لسانه وقلبه" [١٢٩].

وهذه القصة ليس لها من الزهد والتقى حظ إنما هي عقلانية وأفكار بدوية وناتجة عن اختلاطه ومعرفته بالفارسية.

وذكر قصة أخرى له تفيد بعدم مبالاته: "رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحكم أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لوكنا في دار فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر. فقال فوعظ وقص ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسان أرنبة أنفه لم يدخل النار. فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه، ويقدره حتى يبلغها أم لا. فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟". وأنت ترى أنها قصة لتسويغ موقفه الذي يعيبه المثقفون واستهتار بعامة الناس الذين دخل عليهم لما رأوا حسن أسلوبه فصدقوه، وهي غلطة

---

(١٢٦) المحاضرات للراغب الأصفهاني ص ٩٢، العتابي ٣٨.

(١٢٧) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦١/٢٦٢.

(١٢٨) البيان والتبيين ١٤١/٢.

(١٢٩) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

تؤخذ على العتابي.

وأنت إذا نظرت إلى تعريف واحد من حدود الزهد تجده لا ينطبق على ما ذكرنا، فمثلاً "الزهد هو في عدم اتباع هوى النفس، فإذا هانت على المرء نفسه، لم يبال على أي حال أمسى وأصبح" (١٣٠). وإذا قارنت هذا التعريف بالآثار الواردة عن العتابي، والتي استشهدوا بها في زهده فإنك لم تجدها مطابقة لتعريف الزهد، بل هو يعلل تصرفه بشيء لا يطابق الزهد، وإنما يرجع إلى حالته الاجتماعية والنفسية وإني أرجع تصرفه إلى ما يلي:

- بداوته وعصبيته وقبليته وعزة نفسه فكل ذلك أكسبه الخشونة بل الزهد بمظاهر الحضارة وكمالياتها، فهو لا يعرف كيف يتصرف بها، بل من أين يأتي بها؟
- ثم من الجانب الآخر جانب الحضارة، فهو جامع بالعلوم الفارسية درس آدابها وحكمها وهذه تجعله يزهد في المال.
- دارسته للكتب الإسلامية وتاريخ الصحابة والتابعين وأثرها في نفسه، ولابد أنها أكسبته تقوى، لكن ليس إلى حد الزهد والورع.
- والأحداث والمصائب التي في عصره زهدته في المال بل خوفته، فالخلفاء والأمراء يعطون الأموال لكن لفئة قليلة من البشر، والباقون يكدون ويكدحون، فما يتبلغون لقمة العيش، بل إن النعمة التي يسديها الخلفاء سرعان ما ينال صاحبها العقاب الفادح من القتل والصلب والسلب والنهب، كما أجاب زوجته حينما لامته على ذلك:

تلومُ علـى تَـرْكْ الغِـنى باهليّـةٌ ... زوى الفقر عنها كل طِرْفٍ وتالـدِ
رأت حولهـا النِّسـوانَ يَـرْفُلْنَ ... في الثرا مُقَلَّـدة أعناقهـا بالقلائِـدِ
أسَرَّكِ أنِّي نلْتُ ما نـال جعْفـرٌ ... من العيش أو ما نال يَحْيَىَ بنُ خالِـدِ
وإنّ أمـيرَ المَـؤمِنينَ أغصـنِي ... مغصـهما بالمشـرفات الحدائـد
رأيتُ رفيعـاتِ الأمـور مشـوبةٌ ... بمسـتودعاتٍ في بُطـون الأسـاودِ
دعـيني تَجـئني ميـتتي مطمئنـة ... و لم أتجشّـم هـول تلـك المـواردِ

ومن هذا ندرك أنه لم يرد أن يخاطر بحياته في سبيل المال، وقد قال الخطيب البغدادي: "وكان يتجنب غشيان السلطان قناعة وتكرها، وصيانة وتقززاً. وكان يلبس الصوف ويظهر الزهد" (١٣١).

ومن هذا أرى أنه إنسان يخاف الله ويتقيه، لكن بدرجة لم تصل إلى الزهد الذي وصل إليه الحسن البصري، بل وإلى من هو دونه بكثير، إنما هي عوامل طبيعية وعوامل تأثر بها فجعلته يسلك هذا التصرف.

وقد تعددت الكتب التي تحدثُنا عن العتابي وبعضهم يلصق به الاعتزال وذلك من القدماء وتابعهم بعض المحدثين، فقد ذكر الجهشياري أنهم اتهموه بالاعتزال وأخبروا الرشيد بذلك قال: "حدثني عبد الواحد بن محمد، قال (١٣٢): كان العتابي يقول بالاعتزال، فاتصل ذلك بالرشيد، وكثر عليه في أمره، فأمر فيه بأمر عظيم. فهرب

---

(١٣٠) الطريق إلى الله ٧٢.

(١٣١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ط٢ ٣١٠.

(١٣٢) كتاب الوزراء والكتاب ٢٣٣.

إلى اليمن، فكان مقيماً بها فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من رسائله وخطبه، فاستحسن الرشيد ذلك وسأل عن الكلام لمن هو؟ فقال: هذا للعتابي، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام، ويصنع لهما خطباً، لكان ذلك أصلح، فأمر بإحضاره، فأخذ الأمان له.. إلخ".

وكما قال فيه ابن المعتز على لسان جعفر المالكي قال: "ما سمعت كلاماً قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابي"(١٣٣).

وقد أنكر الأستاذ أحمد أمين أنه من المرجئة، حيث اتهمه بذلك الشهرستاني فقال: "حتى لقد رأيت الشهرستاني قد عد من المرجئة شاعرين معروفين كبيرين، وهما الفضل الرقاشي والعتابي، فلما راجعت ما كتب عنهما فيما بين يدي من كتب وما روي من شعرهما لم أجد فيه أثراً واضحاً من أثر الإرجاء" (١٣٤).

لكن الدكتور شوقي ضيف جعله من شعراء المعتزلة فقال: "لم يلبث أن شغف بالمعتزلة والاعتزال" (١٣٥). وقال أيضاً: "وكان طبيعياً أن يؤدي به اعتزاله إلى قراءة كتب الفلسفة". والذي أراه أنهم اتهموه بالاعتزال لأمور منها:

- تأليفه في كتب المنطقة والفلسفة.
- دراسته لكتب الفرس ومجالستهم لهم والخوض في الجدل معهم.
- عقلية الرجل في أدبه، فشعره يظهر فيه أنه منطقي، والاعتزال مبني على إيراد الحجج والرد العقلي، إذن فصبغته توحي بأنه يحب المنطق ويقنع بالحجة، لهذا اتهم بالاعتزال.
- مجالسته للمأمون، الجميع يعرف أن المأمون اتخذ الاعتزال مذهب الدولة الرسمي، وأيده بسلطان الدولة، ومن هنا يُتهم العتابي بأنه سيوافق المأمون.

وأغلب الظن أنهم اتهموه بالاعتزال مكيدة لأن الذين اتهموه بالاعتزال لم يوردوا نصاً يدل على اعتزاله، ويكون شاهداً لهم.

أما مع المأمون فإني أتصور انحرافه كبقية الناس تؤيد السلطان ولا تعارض، بل لم يسمع أنه أيده، بل إنه توفي قبل أن يقوم المأمون بحث الناس على الاعتزال. ثم زد على ذلك أيضاً أنه كان يعيب على الصاحب اعتزاله كما روى القصة أبو حيان التوحيد (١٣٦):

"وحدثني العتابي: قال: الرجل لا دين له، سمعته يقول في الخلوة، وقد جرى حديث المذهب، كيف أنزل هذا المذهب – يعني الاعتزال – وقد نصرته وشهرت به نفسي، وعاديت الصغير والكبير عليه، وانقضى عمري فيه. قلت للعتابي: ومن أين وقع في هذا الإلحاد؟ فقال: لم يزل مترجحاً، قليل الطمأنينة، سيئ اليقين، ولكن أهلكه مقعده الذي يقال له النصيبي أو إسحاق".

وقد سادت موجة الزندقة بسبب ما اكتسبه الفرس من حرية أثر مؤازرتهم العباسيين، وصار لهم القدح

---

(١٣٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٢.

(١٣٤) ضحى الإسلام ٣٢٨/٣.

(١٣٥) العصر العباسي الأول ٢١٩.

(١٣٦) مثالب الوزيرين ١٩٦.

المعلى، ثم بما تُرجم من كتب أمام أهل العصر يتداولونها ويدرسونها، ثم هناك الفرس الـــذين يســـتترون وراء الدين، كل هذه لها أثر كبير في التأثير على العقائد، لكن الدولة تنبهت إلى تلك الموجة وحاربتها، وقام بـــذلك الخلفاء المهدي والهادي والرشيد، وهم لا يمهزون [١٣٧] عليها إلا بعد أن يتأكدوا من الزندقة المؤدية للإلحاد عن طريق مجلس للعلماء، لكن بعض الناس يرى أن المجون والتهاون ببعض واجبات الدين زندقة، وهذه لا يعاقـــب الخلفاء عليها بالقتل إنما بالتعذيب.

وصارت تهمة الزندقة وسيلة من وسائل الانتقام في ذلك العصر، فإذا ما غضب الشاعر أو الكاتـــب أو العالم على زميله وجه إليه تهمة الزندقة، وإذا ما وجد شاعر ماجن خالع اتهموه بالزندقة، وإذا ما جلس شـــاب إلى هؤلاء الشعراء المّجان اتهموه بالزندقة أيضاً، فضلاً عن الصداقة والمسامرة، وأظن أن هذه الأسباب هي التي جعلتهم يرمون العتابي بالزندقة، فهو مر البصرة وجالس بشار بن برد الذي قتل بتهمة الزندقة، ومكث العتابي بالكوفة مدة من الزمن، وجالس ونادم حماد عجرد ومطيع بن إياس وخلافهم، وهم متهمون بالزندقة، لذا فإن الطاعن والحاقد عليه يكاد يجد الحجة له على العتابي، كما أن علمه بالفارسية وغرابته على العرب، واتصـــاله بالبرامكة وآل طاهر وغيرهم يزيد من التهمة، وقد أدرك ذلك بنفسه فتحاشى بعض الأفكار خوفاً من اتهـــام الناس له فقال [١٣٨]:

إني لأخفى من علمـــى جـــواهرَه ... كى لا يرى العلم ذو جهل فيفتَتِنـــا
ورب جوهر علم لـــو أبـــوح بـــه ... لقيل لي أنت ممـــن يعبـــد الوثنـــا
ولاستحل رجال يبتغـــون دمـــى ... يرون أقـــبح مـــا يأتونـــه حســـنا
وقد تقدم في هـــذا أبـــو حســـن ... أوصى حسيناً بما قد خـــبر الحســـنا

والذي أجزم به أنه براء من هذه التهمة لخلو آثاره وأخباره وأحاديثه وقصصه وحكايتـــه منـــها. ثم إن الأدباء لم يجزم أحد منهم بأنه كان زنديقاً، وإنما حكي أنه اتهم بالزندقة، واكتفى بهذا و لم يأت بالدليل. وأيضاً أنهم لم يذكروا عربياً صلبية تزندق بأن كفر بالله أو أشرك به.

وفاته:

كما أن ولادته لم تعرف فإن الاختلاف وقع أيضاً في سنة وفاته، وأقدم ما وصل إلينا في هذا ما ذكـــره فوات الوفيات من أنه توفي سنة ٢٢٠ه [١٣٩]: "توفي في حدود العشرين والمائتين"، وذكر صاحب الأعـــلام أن وفاته سنة ٢٢٠ الموافق ٨٣٥م [١٤٠] وقد جاراهما في ذلك جرجي زيدان حيث ذكر في كتابه بأنه توفي ســـنة ٢٢٠[١٤١].

---

(١٣٧) يمهزون: يدفعونهم.

(١٣٨) تاريخ بغداد ٤٨٩/١٢.

(١٣٩) فوات الوفيات ٣: ٢١٩.

(١٤٠) الأعلام ٦/ حرف الكاف.

(١٤١) تاريخ آداب اللغة العربية م١ ص ٣٩٦.

أما الدكتور شوقي ضيف فقد ذكر بأنه توفي سنة ٢٠٨ حيث قال[١٤٢]: "وقد ظل الناس يفتنون بشعره، وهو يعرض عليهم مبتكراته في معانيه، حتى انتقل إلى جوار به في سنة ثمان ومائتين".

والذي أرجحه هو أنه توفي سنة ٢٠٨ه وذلك لأنه أدرك بعض عهد المأمون، والمعلوم أن المأمون توفي سنة ٢١٨ه، ولو بقى العتابي بعد المأمون لرثاه، أو لقال فيه، أو لذكره مؤرخو الأدب.

آثاره:

لقد كان العتابي أديباً عالماً يحب العلم، ويجلس مع الكتب الساعات الطوال، لذا فقد كان شاعراً ترك ثروة من الشعر سنتحدث عنها في الباب الثاني، ونثراً عظيماً سيكون حديثنا أيضاً في الباب الثالث، كما أنه ألف كتباً في علوم شتى تدل على سعة أفق الرجل وكثرة اطلاعه، وكتبه هي [١٤٣]: كتاب المنطق، وكتاب الآداب، وكتاب فن الحكم، وكتاب الخيل، وكتاب الألفاظ الذي رواه أبو عمر الزاهد عن المبرد، وكتاب الأجواد.

(١٤٢) العصر العباسي الأولى ٤٢٥.

(١٤٣) الفهرست لابن النديم ١٨١.

الباب الثاني

شعره

الفصل الأول أغراض شعره

المدح:

إن الدارس لتاريخ الأدب العربي يلمس أن المدح في العصر العباسي قد اتسع مداه حتى أصبح مهنة، ولابد لكل ممتهن من إتقان مهنته ليكسب العيش الرغيد، ويتفاضل الشعراء في الجودة بمقدار تفاضلهم بما يملكون من مميزات أدبية ونفسية، وخاصة إذا تمكن من الوصول إلى الخلفاء وكبار القوم، والشعراء الذين وصلوا إلى الخلفاء هم في القمة بين الشعراء لا في الأدب فقط، وإنما في المقدرات النفسية في معرفة المدخل إلى قلب الخليفة، وكذلك المخرج من المآزق - وما كان أكثرها -. أما المدخل إلى القلوب - في معظمها - فهو المدح. ونقول في - معظمها -؛ لأن القلة القليلة من الخلفاء كانت تأبى المدح، ولا ترضاه تورعا وتديّنا. وذلك لأن المدح وسيلة خادعة لنيل حاجات يريدها الشاعر، فالشاعر بالمدح يرقق القلب، ويستهوي النفس للعطاء، فيحقق المادح بذلك غايته بطريقة نفسية مخادعة، تسلق إليها بوسيلة أدبية ساحرة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:" إن من البيان لسحرا" يُسحر به الممدوح عن نفسه ويُسحب به من هواه.

ولقد استخدم شاعرنا هنا أساليبه المختلفة، والأساليب تتنوع باختلاف الممدوح. فمنهم من يعجبه المدح بالكرم، ومنهم من يحب التمدح بالشجاعة، ومنهم من يحب الفخر بالدين والأصل العريق في التقوى. وهذا ما نلاحظه على وجه الخصوص في مدائح شاعرنا في بني العباس، وهم أهل العزة وأهل البيت - بيت النبوة -، وقد قام ملكُهم على أساس دعوتهم إلى ذلك، وناصرهم من ناصر لأجل ذلك، فكانوا أحق الناس - عند ظنهم- بالفخر بهذا والتمدح به والتمسك به.

وهكذا نرى شاعرنا يستغل هذه الميزة أعظم استغلال في مدحه لخلفاء بني العباس، ويركز على هذه النقطة في كل ما يقوله لهم، مادحا أو معتذرا أو واصفا.

فكلمات مثل (حوزة الدين) و (إمام المسلمين) و (تقديس الوحي لكم) و (عصا الدين)،كل ذلك فيه مدح ديني يعجب الخلفاء ومن حولهم، ويحقق في النفوس ما يريدون تثبيته والإلحاح عليه. ومع ذلك فإن شاعرنا لا ينسى المدح بالآباء والأجداد، فإن ذلك عائد أيضا إلى الأرومة الدينية عند جد الخلفاء العباسى بن عبد المطلب رضي الله عنه، وفي هذا إرضاء للنزعة الدينية وإرضاء للنزعة العصبية، فإن أصابت إحداهما فقد كفت الشاعر.

وكذلك فإن من أساليب المدح الجديدة المدح بالثقافة والمعرفة والسياسة وإدراك الأمور، وكلها أشياء جديدة لم تكن معروفة على مثل هذا المستوى، فقد أصبح مما يسر الخلفاء أن يقال لهم مثل ما قاله العتابى في الرشيد:

مُسْتَنْبطٌ عَزَماتِ القَلْب مِنْ فِكَر ... ما بينهنَّ وبين الله معمورُ

حتى جعل هذا البيت ميزانا لدخول بعض الشعراء على الأمراء.

ولا غرو في جعل الفكر مما يمتدح به في هذا العصر، وقد رفع من شأنه الإسلام رفعا كبيراً، وتحقق للمسلمين في هذا العصر وعلى أيدى الخلفاء الذين مدحهم كالرشيد والمأمون ما لم يتحقق في عصر غيرهم من ارتقاء العلم وتسجيله وإنشاء الدور والمدارس، لذا فقد عاش شاعرنا في فترة تنافس الناس فيها أيما تنافس بالعلم والعلماء، فلا عجب أن يفيض بيانه في وصف ذلك أو التمدح به. فإذا خضنا في غرض المديح فإننا:

١ – نبدأ مدائحه بأشهرها، وهي تلك التي قيل إنها في عبد الملك بن صالح، كما ذكر ذلك صاحب الأغاني، حيث ذكر أنه قالها حينما جرد عبد الملك السيف في ربيعه، حيث "دعا بأبي عصمة أحد قواده، فقال: اخرج فجرد السيف في ربيعه، فخرج وقتل منها مقتلة عظيمة، فقال كلثوم بن عمرو العتابى قصيدته التي أولها [١٤٤]:

ماذا شجاكِ بحوّارين مِنْ طَلَل ودمنةٍ كشفتْ عنها الأعاصيرُ

فبلغت القصيدة عبد الملك.. فأمر أبا عصمة بالكف عنهم.

والرأي الذي أرجحه والأكثر رواجاً أنها قيلت في الرشيد، كما هو في أكثر كتب الأدب، ولا سيما أن صاحب الأغاني يشكك في الخبر الذي يقول: إنها في عبد الملك فيقول: وهذا الخبر عندي فيه اضطراب؛ إن القصيدة المذكورة التي أولها:

ماذا شجاك بحوارين من طلل

للعتابى في الرشيد، لا في عبد الملك، و لم يكن كما ذكره في أيام الرشيد متنقصاً منه [١٤٥].

وهذه القصيدة كاملة [١٤٦]:

ماذا شجاكِ بحُوَّارين [١٤٧] من طَلَل ودمنةٍ [١٤٨] كشفتْ عنها الأعاصيرُ
شجاكِ حتّى ضميرُ القلب مشتَرَكٌ والعينُ إنسانُها بالماء مغمورُ
في ناظريّ انقباضٌ عن جُفُونِهما وفي الجُفُونِ عِن الآماق [١٤٩] تقصيرُ
وكنتِ تدرينَ ما شوقى إذَا جَعَلَتْ تنأى [١٥٠] بنا وبكِ الأوطانُ والدورُ
لبست أرْدِيةَ النوار مِنْ طلل وزلتَ أخْضر تعلوكَ الأزاهيرُ
علمتُ أنَّ سُرَى [١٥١] ليلى مِنْ بَيْتِ نَجْران [١٥٢]والغوْرَيْنَ

---

(١٤٤) الأغاني ١٢٢/١٣.

(١٤٥) الأغاني ١٢٤/١٣.

(١٤٦) الأغاني ١٢٤/١٣، طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.

(١٤٧) بحوارين: بضم أوله وتشديد الواو وكسر الراء وباء ساكنة هي قرية من قرى حلب.

(١٤٨) دمنة:آثار الدار.

(١٤٩) الآماق: جمع موق، مجرى الدمع في العين.

(١٥٠) تنأى: تبعد.

(١٥١) سرى: السير في الليل.

إذا الركائبُ مَخْسوفٌ نواظرها كما تضمّنتِ الدُّهنَ القواريرُ
نادتك أرحامُنا اللاتي نَمُتُّ بها كما تنادي جلادَ (١٥٥)
مُسْتَنْبطٌ عزماتِ القلب مِنْ فِكَر ما بينهنَّ وبين الله معمورُ
فُتَّ المدائحَ إلا أنَّ أنفسنا مستنطَقاتٌ بما تحوى الضّمائيرُ
ماذا عَسى مادحٌ يُثْنى عليك وقَدْ ناداك في الوحى تقديسٌ وتطهيرُ
إنْ كان منَّا ذَوُو إفْكٍ وعصبة (١٦٠) دينُها العدوانُ الزُّورُ
فإنّ منّا الذي لا يستحَثُّ إذَا حُثَّ الجيادُ وحازتْهَا(١٦١)
وَمِنْ عرائقه السّفّاح عندكم مجرّبٌ (١٦٣)من بلاء الصِّدق مخْبُورُ(١٦٤)
الآن قد بعُدت في خطْو طاعتِكُمْ خُطاهم حيثُ يحتل الغشاميرُ(١٦٥)

بدأت القصيدة بالاستفهام المحير المباشر الذي يلفت الانتباه، ويجعل محبوبته تتفكر ماذا سيقول لها؟ ثم واجهها بعد هذا التحيّر بقوله "شجاك "إنها لكلمة محزنة حقا يزيد أثرها وقوعها بعد استفهام، فإذا هو يناجي هذه الأطلال التي تربى في أحضانها فنشأ حبها مع نشأته، ثم حكم عليه القدر بمفارقة حبيبته وديارها.

وقد عبر عن امتداد العهد وطول الزمن بكناية جميلة لطيفة في قوله:

(ودمنة كشفت عنه الأعاصير) فالمنطق أنها تبقى أثرا ظاهرا جديدا بعد الرحيل، لكن الرياح تمر عليها في أزمان متعاقبة بكرة وعشيا، حتى أخفتها عن الوجود، فتدور دورة الزمان، وتبدأ بإظهار معالمها من جديد. فوقف بأطلالها فأثارت كوامن نفسه، وحركت أشجانه ولواعج الشوق.

شجاكِ حتى ضميرُ القلب مشتَرَكٌ والعينُ إنسانُها بالماء مغمورُ

فأنت تلاحظ قوله "ضمير القلب "يدل على أن الحب والإخلاص لهذه الحبيبة مبدأ متأصل في نفسه، غارس في أعماقها، وليس ذلك من أثر موجة عاطفية تمر وتذهب، وإلا لكفاه قوله "شجاك القلب".

وأيضاً تلاحظ كلمة "مشترك "وهي جديدة على الشعر، إذ هي تدل على التقسيم المنطقي

---

(١٥٢) نجران: موضع في البحرين وموضع قرب دمشق، وهو المقصود ونجران المدينة المشهورة رحلته لليمن ربما عرج عليها. بل هي الأقرب لأن تكو الإشارة.
(١٥٣) التغوير: الدخول في الغور.
(١٥٤) نتصل بها.
(١٥٥) الجلاد: النوق الصلاب وما غزر لبنها أو قل.
(١٥٦) الجلة: المسان من الإبل.
(١٥٧) الخور: جمع خوارة وهي الناقة الغزيرة اللبن.
(١٥٨) الإفك: البهتان.
(١٥٩) المارقة: الخارجة على الدين.
(١٦٠) عصبة: عصبة الرجل قومه اجتمعوا وأحاطوا به.
(١٦١) حازتها: منحتها وجمعتها وحصلت عليها.
(١٦٢) المضامير: جمع مضمار وهو الموضع الذي تضمر فيه الخيل. وروي: وضمتها المضامير
(١٦٣) مجرب: كثير الممارسة ومرت عليه أحداث عظام.
(١٦٤) مخبور: مختبر.
(١٦٥) الغشامير: من الغشمرة وهي التهضم والظلم.

الذي امتاز به الشاعر، مما يدل على تأثير العلم عليه.

وقد ظهرت علامات الحزن العميق على عينيه، فهي ممتلئة بالدموع الساخنة، حتى أن الجفن الأعلى لا يصل إلى الأسفل لما فيها من الدموع وتوتر الأعصاب كما وضحها في قوله: "والعين إنسانها بالماء مغمور".

وقد أعجب بأزهار النوار والأعشاب على الأطلال، ودعا لها أيضا في قوله:

لبست أردية النوار من طلل وزلت أخضر تعلوك الأزاهير

وهو يعود إلى تذكر حبيبته بقوله:

لو كنْتِ تدْرينَ ما شوقي إذا تنأى بنا وبكِ الأوطانُ والدورُ

علمتِ أن سُرَى ليلي ومُطلّعي من بيتِ نَجْران والغورين تغويرُ

وهذان البيتان يدلان على حرارة الشوق مع اتصال أسفاره، فلا يستقر ليلاً ولا نهارا، حتى أن ركائبنا قد أضوت وغارت عيونها كما يقول:

إذا الركائبُ مخسوفٌ نواظرُها كما تضمنت الدُّهنَ القواريرُ

ونكاد أن نجزم بأن المقصود هنا هو نجران المدينة الواقعة جنوب المملكة العربية السعودية وشمال اليمن، وهي إحدى مناطق السعودية.

وقد قال الدكتور أحمد محمد النجار عن الكناية في هذا البيت [١٦٦]: "أثار إعجاب البلاغيين لما في التشبيه من جديد يصور نحول المسافرين وضمور الإبل وشدة التعب، دون أن يوضحوا عناصر الصورة في تشبيه شحمة العين من محجرها، وقد غارت بالدهن في القوارير، مع ما قد تحمله الصورة أيضا من تفاصيل أخرى تثيرها الملاحظة الدقيقة لركني التشبيه".

ولقد لفت انتباهي في هذا البيت تعبيره الجميل " إذا الركائب مخسوف نواظرها "، فكلمة "نواظرها" لها المترلة البلاغية الجميلة، فعبر بالنظر عن العين التي يشع منها النور. وهذا يدل على أن النظر غائر جدا ويصدر عن بعد، ومن ثم يدل على أن العين أكثر بعدا وغائرة جدا في الرأس وهي كناية عن الإنهاك والتعب.

وقوله: "تضمنت" يدل على أن في القارورة شيء قليل جدا، وفي آخرها، والعين غائرة في الرأس، وقد اكتنفتها العظام الناتئة من كل ناحية كالدهن في أسفل القارورة.

ومن هذه الجزئيات تكوّن عندنا تشبيه رائع، إذ حق للبلاغيين أن يعجبوا بهذا البيت. وقد هدف من هذا البيت إلى تصوير حالته أمام محبوبته وأمام ممدوحه أيضا، حيث جعله تمهيدا لغرضه، وهذا حسن تخلص انطلق منه إلى أفضل مواجهة لممدوحه، حيث واجه ممدوحه بصلة الرحم، فهي الرابط الذي دعاه إلى الزيارة والمدح.

نادتك أرحامُنا اللاتي نَمُتُّ بها كما تنادي جلادَ [١٦٧] الجِلّة[١٦٨]

---

(١٦٦) العتابي ٥٧.

(١٦٧) جلاد: النوق الصلاب التي غزر لبنها أو قل.

(١٦٨) الجلة: المسنة من الإبل.

(١٦٩) الخور: كثيرة اللبن وغزيرته.

فانظر إلى تأثير كلمة "نادتك" ففيها لفت انتباه، ثم من المنادي؟ إنها الأرحام، فقد خاطب الضمير وحركه، ثم هو يصور الموضوع تصويرا بدويا، حيث شبه الخير والعطاء في يد الخليفة والرابط الرحم بينهما بالإبل الغزيرة اللبن المعطاء التي يكرم منها إلى جانب الإبل الصلبة التي لا تدر اللبن، لكن الحاجة إليها ماسة وقت الأسفار. فكأنه يقول: أنت تعطينا الخير وأنت منا ونحن نشد أزرك عند الملمات. وأظنك توافقني بأن كلماته لم تف بغرضه الذي يقصده من هذا البيت. ثم ينطلق إلى درجة أروع في المدح حيث يقول:

مستنبطٌ عزماتِ القلب مِن فِكَر ما بينهنَّ وبينَ الله معمورَ

حقا لقد أبدع في هذا البيت أيما إبداع في قوله: "

"مستنبط عزمات القلب من فكر" إنه لمدح معنوي، وهذا الذي ينشده الخلفاء والأمراء من أيام عبد الملك.

فإن تصرفاته التي تنتج عن قلبه وعاطفته كأنها صادرة عن طول تعقل وتفكير، فضلا عن أن هذا التفكير، متصل بالله، خائف منه، محافظ على حدوده، هذا منطق يوحي بحسن تصرفه العاطفي، فكيف بتصرفه العقلي. لكنه جمع بينهما فالفكر الصائب يتفاعل معه الوجدان.

بهذا التصرف وأمثاله تجاوزت المدائح مع هذه المعاني الجميلة؛ فنحن عندما نحاول مدحك لا نستطيع أن نفي بصفاتك، وإنما نقول ما يجلجل في صدورنا وضمائرنا.

فُتَّ المدائحَ إلا أنَّ ألسننا مستنطقاتٌ بما تخفي الضمائر

وفي هذا البيت معنى جميل بلفظة جميلة موحية في: "فت المدائح"، ف" فات" تصور حركة الخليفة في سرعة تجاوزه المدائح وتركها وراء ظهره.

كما أن كلمة (مستنطقات) على اسم المفعول تعطي معنى جميلاً آخر، فإن الأنفس هنا تستنطق من خارجها بقوة مفعول جلال الخليفة وجمال أعماله وأفعاله، حتى كان المديح لا يخرج بِطوْعِ الشاعر الداخلي بل رغما عنه ومن قوة خارجة عن إرادته.

وشاعرنا ذو ثقافة عالية، فلا يفوت عليه ما يرد في آل البيت من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فهو يشير إلى قوله تعالى:" إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" وذلك في قوله:

ماذا عسى مادحٌ يُثْني عليك وقدْ ناجاك في الوحي تقديسٌ وتطهيرُ

وقال الدكتور النجار عندما عرض لهذا البيت [١٧٠]: ((والاستفهام في البيت المذكور يعتبر التعجيز عن الإتيان بما يستحق الذكر في الثناء على الممدوح الذي عظم شأنه، وسما سموا كبيرا،حتى لم يعد ثمة مجال لقول قائل أو زيادة لمستزيد. بعد أن ناجاه في الوحي تقديس وتطهير")). وهو بعد المدح الذي يزيل ما في سويداء القلب من إحن[١٧١]، يؤكد ذلك ببراءته من أولئك المارقين على

(١٧٠) العتابي ٦٠.

(١٧١) الإحن: الحقد والكراهية.

الطاعة بأسلوب منطقي عقلي واضح فيقول:

إنْ كان منّـا ذَوُو إفـكٍ ومارقـةٌ وعصبةٌ دينُهـا العـدوانُ والـزورُ

يشير بذلك إلى الذين خرجوا على الخلافة مثل الوليد بن طريـف الخـارجي ومالـك بـن طـوق، لكنْ منا الطيبون ومنا المخلصون الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل إرضـاء الخليفـة والحفـاظ علـى أمن الدولة وحمايتها:

فإنَّ مِنَّـا الـذي لا يسـتحثُّ إذَا حُـثَّ الجيـادُ وحازتْهَـا

يعني بذلك يزيد بن مزيد الشيباني، وعبد الله بن هشام بن بسطام التغلبي.

وفي البيت كناية تدل على الشجاعة المتأصـلة، فأغلـب النـاس ليحتـاجُ إلى مـن يحثـه ويحمسـه ويؤجج صدره حتى ينهض إلى الحرب، لكنك تعرف أيهـا الخليفـة أن في بـني عمـك أناسـاً ينهضـون عند سماع المنادي، فلا يتـرددون، ولا ينتظـرون. ثم اختـتم القصـيدة بمـا يـوحي بحنكـة العباسـيين وتجاربهم واستتباب الأمن:

ومِنْ عرائقـه السّـفّاح عنـدكم مُجـرب مـن بـلاد الصـدق

الآن قد بعُدت في خطْو طـاعتِكُمْ خُطـاهم حيـثُ يحتـل

إن هذه القصيدة لرائعة من روائع المدائح التي قيلت في الرشيد لما تحويـه مـن معـان تتواصـل مـع المثالية العقلية والدينية والعاطفية، لذا لا غرابة أن تكـون ميزانـا لإجـادة المـدح في العصـر العباسـي، حيث جعلها صاحب المأمون مقياسا للشعراء كما روى صـاحب الأغـاني(١٧٥): أخـبرني الحسـن بـن علي، قال حدثني القاسم بن مهرويه، قال: حدثني جعفر بن المفضـل، عـن رجـل مـن ولـد إبـراهيم الحراني، قال: كثر الشعراء بباب المأمون، فـأوذن بهـم "فقـال لعلـي بـن صـالح صـاحب المصـلّى: اعرضهم، فمن كان منهم مجيداً فأوصله إلي، ومن كان غير مجيد فاصـرفه. وصـادف ذلـك شـغلا مـن علي بن صالح كان يريد أن يتشاغل به عن أمر نفسه، فقـام مغضـباً، وقـال: والله لأُعمنـهم بالحرمـان، ثم جلس لهم، ودعا بهم، فجعلوا يتغالبون على القرب منه، فقال لهم: على رسـلكم، فـإن المـدى أقـرب من ذلك، هل فيكم من يحسن أن يقول كما قال أخوكم العتابى:

ماذا عسى مادحٌ يُثْني عليكَ وَقَـدْ ناداك في الوحى تقـديسٌ وتطهـيرٌ

فُـتَّ الممـادحَ إلا أن ألسـننا مستنطقاتٌ بما تحـوي الضـمائرُ

قالوا: لا والله ما بنا أحد يحسن أن يقول مثل هذا، قال: فانصرفوا جميعاً".

وقد جعلها عبد الله بن طاهر بن الحسين أيضا ميزانا لشعره(١٧٦):

---

(١٧٢) المضامير: الموضع الذي تضمر في الخيل.

(١٧٣) مخبر: مختبر ومجرب.

(١٧٤) الغشامير: من الغشمرة، وهي التهضم والتظلم.

(١٧٥) الأغاني: ١٠٩/١٣، ١١٠.

(١٧٦) الأغاني: ١١٢/١٣.

"ذكر أحمد بن طاهر أيضا أن مسعود بن عيسى العبدي، حدثه عن موسى بن عبد الله التميمي، قال: وفد إلى عبد الله بن طاهر جمع من الشعراء، فعلم أنهم على بابه، فقال لخادم له أديب: اخرج إلى القوم وقل لهم: من كان منكم يقول كما قال العتابي للرشيد:

مستنبط عزمات القلب من فِكَر ... ما بينهنَّ وبينَ الله معمورُ

فليدخل، وليعلم أني إن وجدته مقصرا عن ذلك حرمته، فمن وثق من نفسه أنه يقول مثل هذا فليقم، قال: فدخلوا إلا أربعة نفر".

لكن بعض النقاد وجه إليها نقداً يفيد بأنه غير معجب بالقصيدة [١٧٧].

ثم قال في هذه القصيدة:

ماذا عسى مادحٌ يُثْني عليك وَقَدْ ... ناداكَ في الوحي تقديسٌ وتطهيرُ

فُتَّ الممادحَ إلا أن ألسننا ... مستنطقاتٌ بما تخفي الضَمائِرُ

فقال: "الممادح"، والمدائح أحسن منها وأخف على السمع وأشبه بألفاظ الحذاق والمطبوعين وقال: "مستنطقات"، ونواطق أحسن وأطبع، ثم قال: " الضمائر " فختم البيت منها بأثقل لفظة لو وقعت في البحر لكدرته، وهي صحيحة، ولكنها غير مألوفة، ولا مستعذبه، وما شيء أملك بالشعر بعد صحة المعنى من حسن اللفظ، وهذا عمل التكلف وسوء الطبع". وقد قال عنها النقاد المحدثون الكثير، فمما قال الدكتور مصطفى الشكعة[١٧٨]:

"وفي هذه القصيدة الرائية يجمع العتابي بين رقة القول غزلا، والإشادة بالخليفة مديحاً، وخفض الجناح اعتذارا، واصطناع الحيلة فخراً، وابتداع الحكمة تقرباً، مع أسلوب عذب وإيقاع جميل، وهي من أشهر قصائده، وكثرة من النقاد يستجيدونها، وعدد كبير من متذوقي الشعر يستحسنونها، ويتمثلون ببعض أبياتها ذات المعاني الحكيمة، والحق أن القصيدة من أرق شعر المديح مجملة أو مفصلة، إنها قصيدة مخططة الفكر منسوجة المنهج، أدخل فيها الشاعر عامل المنطق العقلي، والحِجاج القولي".

٢ – ومن مدائحه في الرشيد قوله[١٧٩]:

أوافي أميرَ المؤمنينَ بهمةٍ ... تَوَقَّلُ [١٨٠] في نيل المعالي فنونُها

رعى أمةَ الإسلام فهو إمامُها ... وأدى إليها الحقَّ فهو أمينُها

وَيسْتنتجُ العقماء[١٨١] حتّى كأنَما ... تغلغلُ في حيثُ استقرَّ جنينُهَا

وما كلُّ موثوق له الحقُّ يهتدِي ... ولا كلُّ مَنْ أمَّ الصوى[١٨٢] يستبينُها

مقيمٌ بمُستَنِّ[١٨٣] العُلاَ حيثُ تَلتقي ... طوارقُ أَبكار[١٨٤] الخطوب

---

(١٧٧) الموشح٢٦٦.

(١٧٨) الشعر والشعراء د. مصطفى الشكعة ٥٠٨.

(١٧٩) الحيوان ٦٣/٣، زهر الآدب٦٧٨/٣، العصر العباس الأول٤٢٢.

(١٨٠) توقل: صعد بها إلى الأعالي.

(١٨١) العقماء: هي التي لا تلد، ومعناه هنا المصيبة العظيمة يجد لها حلاً.

(١٨٢) الصوى: العلامات الهادية.

(١٨٣) بمستن: مكان الاستنان وهي سرعة العدو.

(١٨٤) أبكار: هي التي لم تتزوج ويقصد بها المعيبة الجديدة التي يسبق لها مثيل.

(١٨٥) العوان: النصف في سنها أي تمتاز بالقوة والتجارب.

لقد أعطى ووهب الله أمير المؤمنين حسن التصرف بعزيمة قوية صائبة، بها وصل إلى أسمى المعاني وأرقاها، بل هو يختار بين المعالي، ويطرق أفضلها وأسماها كما يقول:

أُوافي أمير المؤمنين بهمةٍ توقّلُ في نيل المعالي فنونُها

إن من عنده هذه القدرة والتصرف في معالي الأمور فإنه يستحق أن يكون راعي الأمة وحاميها والمسؤول عن شؤونها وقائدها في السراء والضراء، وسيؤدي الحق الذي على الراعي كاملاً غير منقوص، كما يقول شاعرنا:

رعى أمة الإسلام فهو إمامُها وأدى إليها الحقَّ فهو أمينُها

لا يُعرف الحكيم إلا عند الملمات، كما لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب، فإذا ما استعصى الأمر الجلل، وصعب على الناس، وعقم، فلا يستطيع أحد أن يتوصل إليه، فهو أبوها ورائدها، يحلها، ويبينها، ويستقصي ما خفي منها كما يصوره هذا البيت.

ويستنتج العقماءَ حتَّى كأنما تغلغلُ في حيثُ استقرَّ جنينُها

فامتاز هذا البيت بعمق الفكرة وجمال الكناية، مما يتضح تعمقه البلاغي وإدراكه لها فلفظة " العقماء " تدل على أن العقلاء والعلماء الأذكياء قد حاولوا فكها وتمحيصها، ولكن بدون فائدة تذكر، فلم يتوصلوا إلى حلها، بينما الرشيد يستطيع أن يلم بجميع جوانبها ويدرسها، وهو لا يقول حكمه جزافا، بل يتدبر ويدرس جميع المعلومات حتى يتوصل إلى جوهرها، ومن ثم يعالج المشكلة ويستأصلها من منطقة الإحساس والانبعاث، كما توحي بذلك كلمة "تغلغل " التي تجعل القارئ يحس بها ويجد نفسه كأنه هو الذي يقوم بالعملية، ثم إتيانه بها فعلا مضارعا يدل على التكرار ومحاولة الإعادة. وقوله: "في حيث استقر جنينها" تعبير دقيق حقا، فهو لم يكتف بمشاهدة وملامسة الجنين،بل يصل إلى نقطة الاستقرار حتى يستأصله. وهذا يدل على مدى تعمقه ودراسته للأشياء الشائكة، فهو لم يكتف بالاطلاع على الحوادث والبت في حكمها، بل يلج في أعماقها، فإذا ما أحاط بظروفها، وحدد ماهية المشكلة وأسبابها أصدر حكمه، ومن ثم يكون رائدا فيها.

إن العلوم منتشرة ومشاعة لكل من أراد أن ينهل منها، وكذلك الأعمال الخيرة والمروءة والشهامة والارتفاع إلى المعالي وأرفعها، لكن هل كل الناس توصلوا إليها؟، الإجابة بالتأكيد لا، كما يوحي بهذا البيت التالي:

وما كلُّ موصوفٍ له الحق يهتدِى ولا كلُّ من أمُّ الصوى يَسْتَبِينُها

هذا البيت دلالة ضمنية على البيت السابق له، فإن كثرة العجز عن حل المشاكل لا يمنع من وجود شخص محنك أن يحلها ويستجلبها. والخليفة دائما على أهبة الاستعداد كالجواد الصابن [١٨٦]، فهو في ميدان السباق للمعالي تمر عليه جلل الحوادث أدناها وأقصاها، يحل ما يستطاع حله من غيره وما لا يستطاع لغيره.

مقيمٌ بمستن العُلا حيثُ تلتقي طوارقُ أبكار الخطوبِ وعونُها

فكلمة "مستن " أوحت لنا بأنه دائما في حل الملمات وكأنه دائما يعدو في ميدان المعالي،

(١٨٦) الصابن: الجواد الذي يدفع ما يكره.

وتتناهى دقة التعبير في قوله " طوارق أبكار " فكل منها تدل على مقدمة الشيء وأوله بل بالسبق، (فطوارق أبكار) توحي بأنها لم تمس من قبل و لم يحدث مثلها، و لم يحاول أحد حلها، كما أنه يحل الأشياء التي طُرقت من قبل، ومرت على غيره.

إن هذه الأبيات قطعة مدح خالص تدل على عمق الفكر، فهو يغوص وراء أعماق المعاني ليستجلي كوامنها، ونستدل على ذلك بما يلي:

وجود "حيث " وتكرارها التي تدل على المنطق والاستدلال.

- دخل العتابي على عبد الله بن طاهر، فمثل بين يديه وأنشده (١٨٧):

حُسنُ ظني وحسنُ ما عودَ اللهُ سِواي منك الغداةَ أتى بي
أيَّ شيء يكونُ أحسَن مِنْ حُسن يقين حدا إليك ركابي

قال: فأمر له بجائزة، ثم دخل عليه من الغد، فأنشده:

ودكُّ يكفينيك فِي حاجتي ورؤيتي كافيةٌ عن سؤالْ
وكيف أخشَى الفقرَ ما عشتَ لي وإنَّما كفّاك لي بيت مالْ

فأمر له بجائزة، ثم دخل في اليوم الثالث فأنشده:

بَهجان الثِّياب يُخلِقها الدهَّرُ وثوبُ الثّناء غضٌّ جديدُ
فاكسُني ما يبيد أصلحَكَ اللهُ فاللهُ يكسُوكَ ما لا يبيدُ

فأمر له بجائزة، وأنعم عليه بخلعة سنية.

ونرى في ختام المدح، عدم إطالة نفس الشاعر في قصائده، فهو لم يسرف، و لم يبالغ، وإنما يعتمد على دقة المعاني والاقتصاد في الوصف وقرب المأخذ.

كما حاول أن يمدح بأفضل الأخلاق والقيمة الإسلامية ليسمعها الخليفة، ويرى أنها المثل الأعلى للناس، فيسير على نهجها، وقد لاحظ ذلك الدكتور شوقي ضيف في شعراء الدول العباسية حيث قال(١٨٨):

"وألهم الشاعر الإسلامي شاعر بغداد والبصرة والكوفة أن يضيف في مديح الخلفاء والوزراء إلى هذه المثالية الخلقية في الشيم والطباع مثالية رقيقة في الحكم والسلطان، فتغنى لهم بتقوى الله والتمسك بالشريعة وبالعدالة التي لا تصلح حياة جماعة بدونها، وإلا تحولت إلى ضرب من الاسترقاق يحتمل فيه الناس من ألوان البؤس والمسغبة ما يطاق وما لا يطاق.

الاعتذار

إن الاعتذار في الشعر العربي له دوره الفعال، وذلك لأنه المجس الذي يتغلغل في أعماق النفس الإنسانية، فيبعد ما فيها من شوائب وأحقاد قد تكون متولدة من خطأ وقع، وقد تحدث بفعل الوشاة وحدس الظنون، فالاعتذار بحد ذاته له أهميته ووقعه في النفس إذا كان بأسلوب لغة الخطاب النثرية العادية، فكيف إذا كان مصوغاً بموسيقي العرب المؤثرة في قصائد الشعر الموزونة

(١٨٧) الأغاني ١٣/ ١١٦، ١١٧، العتابي ٦٧، فوات الوفيات ٢٢١/١، العصر العباس الأول للدكتور شوقي ضيف ٤٢٣،٤٢٤.

(١٨٨) فصول في الشعر ونقده.

المقفاة، وقديماً طرق الشاعر العربي النابغة الذبياني فن الاعتذار، ووصل فيه شأناً بعيداً نال إعجاب من درس الشعر العربي، فقد اشتهر باعتذارياته، مما جعل الأدباء والنقاد العرب يعتبرونه المثل الأعلى في هذا الفن، فيلحقون به كل من يبدع في هذا الغرض، وهذا ما فعلوه عندما درسوا غرض الاعتذار في شعر العتابي، فقد قال عنه الحموي(١٨٩):

((وكان حسن الاعتذار في رسائله وشعره، يشبه في المحدثين بالنابغة في الجاهلية)).

وقال عنه الحصري(١٩٠): "وهو مشبه في حسن الاعتذار بالنابغة الذبياني".

وقال عنه صاحب فوات الوفيات(١٩١): "وكان حسن الاعتذار في رسالته وشعره ".

وقال عنه الدكتور مصطفى الشكعة(١٩٢): "ولم يكن العتابي رجل جلاد ونضال، إنما كان يفضل الحياة الهادئة دون كدر أو صخب أو خصام، ومن تكن هذه طبيعته يكثر الاعتذار على لسانه، فإذا كان صاحب هذا اللسان العتابي بكل صفاته ومؤهلاته، فلن نجد عناء كبيراً في أن نستنتج أن نابغة عباسياً في الطريق إلى الميلاد، وسوف يكون امتداداً وإحياء لنابغة بني ذبيان في اعتذارياته، وقد صح ما توقعناه".

وقد قال عنه أيضاً: "وللعتابي اعتذاريات طويلة تذكرنا بروائع النابغة(١٩٣)".

ولعلنا لا نوافق الدكتور الشكعة كل الموافقة في الحكم الذي أطلقه، واستنتج منه إبداع العتابي في الاعتذار، فليس مسلّماً أن تكون الطبيعة الهادئة دون صخب أو خصام هي سبب إكثاره من الاعتذار؛ لأن العتابي كغيره أقدم على مشاكل الحياة، وجالس وناظر وأحب وأبغض مثل أي شاعر.

ثم ألا نجد النابغة قد أبدع في الاعتذار مع أنه لم يكن ذا طبيعة هادئة وحب لعدم الخصام والصخب؟ بل نجده قد تنقل بين القبائل، وتعرض للمصاعب، واصطدم مع غضب النعمان، وتعرض لغضب الشعراء في سوق عكاظ عندما كان يحكم بينهم فيقول رأيه بكل صراحة، وتعرض لمنافسة الشعراء في ديوان النعمان بن منذر، فقد كانت حياته كلها مصاعب ومشاكل ومع هذا فقد أبدع كل الإبداع.

وبهذا نقول إن الإبداع في الاعتذار ليس معناه أن طبيعة الشاعر هادئة لا تحب الخصام، بل معناه أنه ذو طبيعة جريئة، فلولا هذه الجرأة وحب الخوض في غمار الحياة ما غضب عليه أحد، لأن غضب المعتذر إليه يدلنا على أن المعتذر تجرأ وتخاصم مع الخليفة أو الأمير أو أي شخص عظيم ثم يجيء ليعتذر إليه، وهكذا تدور رحى الحياة.

إنما الإبداع في الاعتذار يرجع إلى سليقة الشاعر القوية، وكذلك ـ وهو الأهم ـ إلى

---

(١٨٩) معجم الأدباء ٦/ ١١٣.

(١٩٠) زهر الآداب ٣/ ١٧٨.

(١٩١) فوات الوفيات ٣ /٢١٩.

(١٩٢) الشعر و الشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥١١.

(١٩٣) الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥١١.

الظروف التي يمر بها، وكذلك إلى شخص من يعتذر إليه ومكانته لدى الشاعر، ومن ذلك:

١- وأشهر اعتذارياته تلك التي اعتذر فيها لهارون الرشيد، ومطلعها(١٩٤):

وأشعثَ(١٩٥)مشتاقٍ رمى في غريب الكرى بينَ الفجاج(١٩٦)

واستمر بعد هذا البيت يصف حالته، وما يقاسيه في أسفاره من عذاب ونصب وسهر وشقاء، حتى انتقل إلى الاعتذار وهو الغرض المقصود من هذه القصيدة، فيقول العتابي: حينما غضبت علي يا أمير المؤمنين لم أدفع إليك وسيطاً ليطلب منك أن تصفح عني، إنما جعلت رجاء العفو عذراً أتقدم به إليك، فأشرح لك همومي وآلامي، وهذا العذر خلطته ومزجته بهيبتك، فأنت الذي ستقرر ما ينتظرني من عفو أو عتاب، أو تردني إلى ذلك الحصن المنيع الذي كان يحميني من المصائب، وألجأ إليك كلما داهمتني داهية، أما الآن وقد حل بي هجرانك، فقد اعتصرني اليأس وذقت مرارة الابتعاد والهجران والحرمان، وقد كنت قبل ذلك أنعم في خيراتك، وأرتع في واد منك كثير الموارد(١٩٧).

جعلتُ رجاءَ العفو عذراً وشُبْتُهُ بهيبةِ إمـا غافر أو معاتب

وكنتُ إذا ما خفتُ حادثَ نبوةٍ جعلتك حِصْناً من حِذَار النوائب

فأنزل بي هجرانُك اليأسَ بَعْدَ ما حَللت بوادٍ منْكَ رحب(٢٠٠)

ولكن بعد هذه النعمة حلت به نقمة اليأس والألم، فحياته كلها عذاب، فإن بقي في مكانه فما حوله من مراع تبقى مجدبة، كما هي لا يخضر شجرها، و لا ينضر عودها.

وإن تحرك ليرَد غير الخليفة فإنه يرد إلى مياه راكدة ليست صافية كما أنها ناضبة، وهو يعني بهم من يقصدهم ويلتجئ إليهم بعد الخليفة فهو يقول(٢٠١):

أظلُّ ومرعاي الجديب(٢٠٢)مكانه وآوي إلى حافات(٢٠٣)أكدرَ

لذا كادت نفسي أن تهلك، ولكن الأمل في عفوك ما يزال يراودها فيصد عنها حبال المنون، فها أنا أتعلق ببقية باقية من صفحك عني، وهذا الخيط من الأمل ما زلت أمسك به.

---

(١٩٤) زهر الآداب ٦٧٩/٣٣، ٦٧٨/٣.

(١٩٥) الأشعث: المغبر الرأس.

(١٩٦) ا الفجاج: الطرق الواسعة بين الجبلين.

(١٩٧) زهر الآداب٣ /٦٧٨.

(١٩٨) نبوة: نبا السيف أي ارتفع عن مكانه و لم يؤثر.

(١٩٩) نوائب: جمع نائبة وهي النازلة والمصيبة، والنوائب تطلق على الحوادث خيراً كانت أو شراً.

(٢٠٠) رحب: واسع.

(٢٠١) زهر الآداب٣ /٦٧٨.

(٢٠٢) الجدب: انقطاع المطر ويبس الأرض.

(٢٠٣) الحافات: جوانب الغدير.

(٢٠٤) ناضب: غار الماء وقل.

لم يَثْن عن نفسى الردى غير أنها تنوء[٢٠٥]ببـاق مـن رجائـك

بل أني لست أفكر في غيرك و لا آمل النصرة من سواك، فأملي موقوف عليك، وتطلعي منقاد إليك:

هي النفسُ محبوس عليك رجاؤُها مُقيدة الآمال دونَ المطالب

ألا تلاحظ أنه قد قدم الجار والمجرور وهو ضمير المخاطب على نائب الفاعل في قوله: "محبوس عليك رجاؤها" ففيه من البلاغة القصر، فالرجاء محصور على الممدوح لا يتعداه إلى سواه؛ لأنه هو الملجأ والمعتصم.

وفي قوله: "مقيدة الآمال دون المطالب " زيادة إيضاح وتأكيد، حيث إن كل إنسان لابد أن تكون لديه آمال عراض أوسع من المطالب التي تتحقق له، ولكن الآمال الموجودة لدى الشاعر والمتجهة إلى غير الممدوح مقيدة، فليس لها خلاص إلا بالاتجاه إلى أمير المؤمنين، وما دامت الآمال مقيدة، وهي أعم وأوسع من المطالب والحاجات، فإن ما هو أخص منها وهي المطالب ستكون مكبلة أيضاً، ولا تتجه إلا إلى المعتذر إليه. وفيه تصوير للمعنى بصورة الحس.

ثم بين حالته التي وصل إليها أمام ممدوحه بقوله:

وتحتَ ثياب الصبر مني ابنُ لوعةٍ يظلُّ ويمسى مستلين الجوانب

فلم يستطع إخفاء هذه الحالة كما أخفاها أبو ذؤيب الهذلي:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

و لم يبلغ درجة النابغة في التصوير حيث يقول[٢٠٧]:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابه السم ناقع

وهو يبين أسباب غضب الخليفة حيث يقول:

فتىً ظفُرتْ منه الليالي بزلةٍ فأقلعنَ عنه داميات المخالب

ولعلي أراها مع الاعتزاز ذريعة للصفح باعتبار الفتى موضع الزلل. ولفظة "فتى" تدل على اعتزازه بنفسه وقوته، وقوله: "ظفرت "يدل على تمكن الانتصار لليالي على هذا الفتى، وفي تقديم الجار والمجرور "منه" على الفاعل دلالة على هزيمته أمام الليالي. وهذا الضعف هو الذي رده إلى الخليفة ليطلب الود والحنان منه:

حنانيك إنّي لم أكن بعت عزة بذل وأحرزت المنى بالمواهب

إنني أيها الخليفة العظيم أتحنن وأتودد إليك، وهذا الحنان والعطف هو ما أرجوه منك، وهأنذا خاضع إليك، وقد كنت قبل هذا رافعا رأسي، و لم يحدث أن سمت نفسي الذل والهوان بدل العزة،

---

(٢٠٥) تنوء: تنهض بجهد ومشقة.

(٢٠٦) ثائب: اجتماع الماء في الحوض.

(٢٠٧) ديوان النابغة ص ٨٠.

كذلك لم أكن قد أحرزت ما أتمناه بالعطايا والهبات من الأمراء، بل كنت شامخ الرأس، وإذا عنَّ طلب أخذته من غير استجداء لأحد. ولكن اليوم قد طأطأت رأسي أمام شموخك، وكيف لا يحدث هذا وقد بدا لي هجرانك؟

فقد سمتني الهجران حتى أذاقني عقوبة زلاتي وسوء مناقب

وفي ختام القصيدة يضع نفسه أمام الخليفة وقد ترك وراء ظهره كل ما يغضب الخليفة:

فها أنا مقصى في رضاك وقابض على حد مصقول الذنابين

ومنتزعٌ عما كرهت وجاعلٌ هواكَ مثالا بين عيني وحاجبي

وإذا كان لنا من نظرة على بائية العتابى السابقة فإنها نظرة عادية سيصدر عنها حكم معتدل، ذلك أننا لن ندبج فيها الإطراء والمديح الذي يرفعها إلى عليين، ولن نحطمها التحطيم الذي يهوى بها أسفل سافلين.

فمن ناحية المعاني نجدها تدور في فلك المعاني التي طرقها الشعراء قبله في الاعتذار، فقد بدأ القصيدة بتصوير نفسه في السفر الذي نتج عن طرد الرشيد له، وما حصل له من آلام أثرت فيه وفي راحلته وكذلك في رفاقه، ثم يذكر الآلام النفسية التي تلهبه بسياطها، وهو مقصى عن المعتذر إليه، وبعد ذلك يتحدث عن ذله وخضوعه لصاحبه، وأنه قد جاء صاغرا ليطلب العفو، وأنه سيأتمر بأمره، ولن يعود إلى معصيته مرة أخرى.

وهذه المعاني تطالعنا في جميع قصائد الاعتذار، فأفكاره إذاً مطروقة ومعروفة، ثم لا نجد في أفكاره ما يدل على أن سبل الحياة سدت أمامه وأن الخليفة سيدركه وسيبطش به إذا لم يعتذر له، فالبلدان والأمصار مفتوحة أمام العتابى إذا أراد الاستغناء عن الرشيد، فلو أتينا مثلاً إلى النابغة لوجدناه يقول إنه ليس له مفر مهما حاول، فجميع الطرق مسدودة، فالملك كالليل الذي لابد أن يدركه:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وليس معنى هذا أن العتابي ليس لديه صور وأخيلة، بل لقد حشد في اعتذاره صورا رائعة كمثل تصوره بقية الأمراء غير المدوح وورود إياهم كمن يرد إلى نهر ناضب مياهه كدرة:

أظل ومرعاي الجديب مكانه وآوي إلى حافات أكدر ناضب

وتعتبر هذه القصيدة من مطولات العتابى، فشعره الذي وصل إلينا أكثره مقطوعات، لكن الظرف الذي ألم به، وعظم صاحبه الذي هجره جعله ينفث أنفاسه بهذه الرائعة التي امتازت بالأفكار العميقة والتصوير المكثف فيها الذي حفز الشاعر ليظهر لنا هذا الحزن والحسرة والألم الذي اعتصره من بداية أسفاره إلى لقائه بالخليفة.

وقد بين الدكتور النجار بعض الصور البلاغية في القصيدة حينما قال[٢٠٨]: "وما اختاره أهل الصناعة قائم على إحساسهم بجمال الاستعارة ودقة التصوير في مثل قوله: "رمى في جفونه غريب

(٢٠٨) العتابي ٥٠.

الكرى " وأنه " سحب له ذيل السرى، ولبس دجى الليل". وأدرعه حتى انجلى وحتى مج ضوء الكواكب " وأنه أركب لبانته مطيته" وأحل له أكل ذراها وغواربها في تشخيص جميل، ثم ما نحس به نحن من دقة الصورة التي رسمها لشخصه، وقد صار دقيقاً نحيلاً ضامرا كبقية الحسام، والصورة التي رسمها لصاحبه عندما ترك عناء السير في الليل آثاره في عيونهم، وأضناهم اجتياز الفيافي، فبدت وجوههم شاحبة هزيلة".

وقد تميزت القصيدة بالموسيقى الشجية حيث الأسفار والعذاب والزفرات التي تقاطع القلب، ثم هو اختار لها القافية المجرورة التي تدل على عمق الأثر في نفسه وحالته التي تحتاج إلى من يشد من أزرها.

٣ – ومن اعتذارياته هذه الأبيات(٢٠٩):

رَحَلَ الرجاءُ إليك مغتربا ... حُشِدَت عليه نوائبُ(٢١٠)الدَّهْر

ردَّتْ إليك ندامتي(٢١١)أملى ... وثنى إليك عنانُه(٢١٢)شُكْري

وجَعَلْتُ عتبكَ عَتْبَ موعظةٍ ... ورجاءُ عفوك منتهى عذري

إنه أرسل إليك رجاءه وأمله بعد أن أحاطت به جيوش المصائب من كل جانب، وأدركه الهلاك المحدق به، فانطلق إليك يطلب النجدة والإغاثة، ومن هذه حالتُه حق له أن يندم على فعله وعلى ما فرط فيه، وحق لشكري أن يرتد إليك بعد أن عرف فضلك، وعرف قدرك، وجرب غيرك، فعتابك أصبح لي درسا وموعظة، وغايتي هي الصفح والغفران.

إنها أبيات ذات أسلوب بليغ ومعان تمس شغاف القلوب، وقد حشد فيها صورا حسية وضعها أمام من يعتذر إليه لتكون وسيلة للغفران.

العتاب:

١ – وقد قال في العتاب مقطوعات منها التي أرسلها إلى المأمون حينما منع من الدخول عليه(٢١٣):

ما على ذلك افترقنا بسندا (٢١٤) ... ن ولا هكذا عَهِدْنا الإخاءَ

لم أكن أحسب الخلافة يزدا ... د بها ذو الصفاء إلا صفاءَ

تضربُ الناسَ ... على غدرهم وتنسى الوفاءَ

لقد عهدتك ذلك الرجل الهين الحليم حسن المعاشرة، حسن الموادعة، تلقى الأحبة والأصدقاء، وتمش، وتبش لهم، وكنت آمل وأعتقد أن الخلافة التي أعرف بأنها ستصير إليك ستزيد من الحلم

---

(٢٠٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة، الحيوان ٣/ ٤٨٣، طبقات ابن المعتز ٢٦١.
(٢١٠) نوائب: النوازل والمصائب.
(٢١١) ندامتي: التندم على فعل ما الأسف والتحسر عليه.
(٢١٢) العنان: حبل يوضع في رأس الدابة لتقاد به.
(٢١٣) زهر الآداب ٣ /٦٧٦.
(٢١٤) سندان: المقصود بها سندان و هي منازل إياد أسفل سواد الكوفة
(٢١٥) المثقفة: الرماح المسواة من اعوجاجها.
(٢١٦) السمر: صفة من صفات الرمح.

واللين ومعاشرة الأحبة والأصدقاء، وتزيد روحك شفافية وصفاء، لكن أكاد أرى أن ما كنت أتصوره لم يوجد إلا في الخيال، بل تحولت تلك السهولة والمودة إلى الصلابة والقساوة والضرب بأقصى القوة، وتنسى نفسك بأنك لم تف لأخيك ولا لأصدقائك. وبهذه الأبيات يفتح المأمون صدره ومجلسه للعتابي.

٢- ومن عتابه أبيات كتبها لعمرو بن مسعدة[٢١٧]الذي وشى به عند المأمون فقال[٢١٨]:

قَدْ كُنْتُ أرْجو أنْ تكونَ نصيري ... وعلى الذي يبغي [٢١٩]عليَّ ظهيري
وطفقتُ [٢٢٠]آمل ما يرجى ... حتى رأيتُ تعلُّقِي بغرور
فحفرت قبرك ثم قلتُ دفنتَهُ ... ونفضت كفي من ثرى المقبور
ورجعتُ مُغْتَريا على الأمل الذي ... قد كان يشهدُ لي عليك بزور

الغزل:

في هذا العصر وهو القرن الثاني الهجري بلغت الدولة الإسلامية أوجها في الاتساع، وازدهرت حضارتها أيما ازدهار، وكثرت الأموال فظهر البذخ. فقد اجتمعت كل مقومات المتعة،فالأمن والاستقرار والنعيم أعمل أثره في الناس.

إن الشباب والفراغ والَجده ... مفسدة للمرء أي مفسده

لقد ظهر هذا الفساد في أخلاق الشعراء، فباحوا به في أشعارهم، فلو قرأنا شعر أبي نواس وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأضرابهم لوجدنا الشعر الفاجر والمجون، من تغزل بالقيان المذكرات والفتيان المتصفين بصفات الإناث ومجاهرة بشرب الخمور وغيرها. ولقد عاصر العتابي هؤلاء الشعراء وعاش معهم، لكنه لم ينهج نهجهم لأننا لا نجد في شعره المجون الذي وجد في شعر معاصريه، وهذا يتضح لنا في دراسة النماذج التي عثرنا عليها للعتابي.

وغزل العتابي تقليدي عفيف ينضح بالشوق والحنين والخوالج النفسية، وينأى عن المعاني الحسية والإباحية، والسبب في هذا الاتجاه هو نمط الحياة التي عاشها العتابي، فلقد عاش في الصحراء وأوقع به شظف العيش، وتأثر بصفات سكان البادية من عفة وشيم ومحافظة على التقاليد، فلم تؤثر فيه الحياة الناعمة حوله، بل جاء شعره رزينا عفيفا كما يفعل الشعراء السابقون.

فهو لا يتحدث إلا عن الصبابة والوجد والهيام، وهو يحب روحاً لا يحب جسما، وهو يشكو من الدموع والفراق. ونجد هذه الميزة في شعره حتى في عهد شبابه كهذه القصيدة، وهي من أقدم

(٢١٧) عمرو بن مسعدة أحد الكتاب المشهورين في عصر المأمون، وقد كان وزيراً للمأمون، مات وعنده الأموال الكثيرة.

(٢١٨) معجم الأدباء ٦/ ٢١٤.

(٢١٩) يبغي: من البغي وهو التجاوز.

(٢٢٠) طفق: ابتدأ وأخذ.

(٢٢١) ا سيبه: ذهب كل مذهب أي جرى الخير كل مجرى.

شعره في الغزل الذي وصل إلينا، وقد قالها أمام بشار بن برد:[٢٢٢]

أيصدفُ[٢٢٣] عن أمامــةَ أمْ يُقــيمُ ... وعهــدُك بالصِّــبا عهــدٌ قــديمُ
أقول لمستعار القلــب عفَّــى[٢٢٤] ... على عزماتهِ[٢٢٥]السِّير العــديمُ[٢٢٦]
أمــا يكفيــك أن دمــوعَ عــيني ... شآبيبُ [٢٢٧]يفــيضُ بهــا الهمــومُ
أُشِيمُ [٢٢٨] فــلا أردُ الطــرفَ إلا ... على أرجائــهِ مــاء سُــجومُ[٢٢٩]

إنها أبيات تمثل تصورات الشباب للغزل، وتمثل طفرة الشــباب في الشــعر، فهــو يتســاءل؛ أيعــرض عن أمامة أم يقيم عندها، وقد كان في قديم الزمان له خبرة وذكريــات بالحــب والعشــق، وقــد كانــت دموعه تنهمر وتنساب شآبيب بسبب الهموم، فلا يستطيع أن يرد الطــرف لأنهــا تفــيض بالــدموع بــل هي مملوءة دائماً. وقد قال الدكتور النجار في هذه الأبيات: " إنه فيض من القــول الــذي لا يــدل علــي تجربة عنيفة كانت قد مرت به، أو عانى منها ما يعانيه العشاق، ومــا هــو ألا يرضــي الشــاعر الشــاب شهوته من الكلام العذب في معرض الحديث عن الحب"[٢٣٠] وإني أؤيــد ذلــك فإنــا لــو ألقينــا نظــرة بسيطة على أفكاره لوجدناها ساذجة فهو: يجعل لنفسه الخيار هل يعــرض عنــها أم يقــيم معــه وهــل في الحب خيار؟. ومتى كان له عهد قديم بالحب وهو في ريعان شبابه.

ثم يقول عن نفسه بأنه مستعار القلب، والاستعارة ترجــع بســرعة لصــاحبه، ثم غــزارة الــدموع وسيلانها بعد أن كان يفكر ويحتار بين البقاء والذهاب.

٢- وما أن تتعمق في غزله حتى ترى أنه متأثر حقيقــة كمــا يتــأثر عامــة الشــباب، فقــد تــأثر بالعامرية أكثر من غيرها فهو يقول فيها:

تجنــــبَ دارَ العامريــــةِ إنّهــــا ... تكلفُهُ عَهْــدَ الصِّــبا والكواعــب
منازلُ لم تَنْظرْ بهــا العــينُ نظــرةً ... فتقلعُ إلاَّ عِــنْ دمــوع ســواكب
ولا وَصْــلَ إلاّ أَنْ تُعــاجَ مطيــةٌ ... على دارس الإعلام عافي الملاعــب

إنها أبيات تمثل الغزل البدوي على حقيقته، لكنها بعقلية العتــابى وتفكــيره، فهــو يتجنــب أن يمــر بديار العامرية حتى لا تمر بخاطره الذكريات فيتألم ويحزن، فعيناه إذا وقعت علــى تلــك الأمــاكن تنــهمر بالدموع الغزار، ويتفطر قلبه الهيمان، هذه الديار ليست على ممرنا وطريقنــا إلا إن عرجنــا إليهــا المطايــا

---

(٢٢٢) الأغاني ١٣ / ١١٣ الشعر والشعراء د.مصطفى الشكعة ٥٠٧.

(٢٢٣) يصدف: يعرض.

(٢٢٤) عفى:طمس.

(٢٢٥) عزماته: الشدة والثبات فيما يعزم عليه الإنسان.

(٢٢٦) العدم: منقطع النظير.

(٢٢٧) شآبيب: جمع شؤبوب وهي المياه المنصة.

(٢٢٨) أشيم: انظر واصلة أن يشيم البرق ينظر أين يقصد و أين يمطر.

(٢٢٩) سجوم: كثير.

(٢٣٠) العتابي ٤٢.

(٢٣١) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٢.

قاصدينها حتى نطلع على الدمن والعلامات التي أخفت الرياح أكثر معالمها، وتلاشت أماكن ملاعبنا.

إنه لغزل فاتر وإن كان فيه لهجة صادقة ناتجة عن المنطق العقلي الذي ساد القطعة، وذلك لأن الشاعر نفسه ليس عنده استعداد الشباب الذين يسبون قلوب الفتيات، وليس عنده أفراط في الغريزة الإنسانية المشتركة فيها كل البشر، غير أن النسيب تقليد عند الشعراء في مقدمة القصائد، فاهتبل(٢٣٢) الشاعر تلك المساحة ليقول بعض تجارب وخواطره.

٣- وله في الغزل مقطوعة هي قمة غزله الذي وصل إلينا، ويظهر فيها سلامة طبعه ورقته وعدم التكلف(٢٣٣):

رسُل الضَّمير إليكَ تَتْرَى ... بالشّوق ظالعةٌ (٢٣٤)وحَسْرى(٢٣٥)

متَزجِّياتٍ (٢٣٦)ما يَنَ ... ينَ(٢٣٧)على الوَجَى (٢٣٨) من بُعدِ

ما جَفَّ للعينين بَعْ ... دَكَ يا قريَر العين مَجْرى

فاسلَمْ سَلِمتَ مبرّأً ... مِنْ صَبْوتي(٢٣٩) أبداً معُرَّى

إن الصَّبابةَ لم تَدَعْ ... مِنِّى سوى عظم مُبَرَّى(٢٤٠)

ومدامع عَبْرى على ... كَبدٍ عليك الدَّهْرَ حرَّى(٢٤١)

إن تدفق الرسل إليك ينبيك بالمحبة والرابط العظيم بيني وبينك، إن اشتغال ضميري عليك وتكرار طيفك أمامه يجعلني أرسل الرسل متتابعين يحملون الأشواق على مطايا تأثرت أرجلها بالمسير، وبدا عليها الحفا والإعياء والتعب:

رسل الضمير إليك تترى ... بالشوق ظالعة وحسرى

قوله: "رسل الضمير" يدل على أن قلبه ووجدانه وأشواقه هي التي تتحكم به، وقوله: "ظالعة وحسرى" يدل على بعد المسافة بين الحبيبين، وأن الإبل بدا عليها العرج والتعب من طول المسافة ووعورتها.

ومطايانا رغم ما أصابها من الوجى والإعياء طائعات لأمورنا، صابرات لسرى الليالي الطوال:

متزجيات ما يَنَ ... يْنَ على الدجى من بعد مسرى

ثم هؤلاء الرسل والمطايا تحمل أنبائي وأوصاف حالتي وما أنا فيه من الشوق والحسرة، وأن مجرى الدموع لم يجف بعد فراقك.

---

(٢٣٢) اهتبل: اغتنم الفرصة واحتال عليها.
(٢٣٣) الأغاني ١٣ / ١١٠، العصر العباسي الأول ٤٢٤.
(٢٣٤) ظالعة: غمز في مشيته وظهر عرجه.
(٢٣٥) حسرى: نصب وأعيا.
(٢٣٦) متزجيات: المنساقة.
(٢٣٧) ينين: يبطئن ويفترن.
(٢٣٨) الوجى: الحنا.
(٢٣٩) صبوتي: جهل الفتوة.
(٢٤٠) مبرأ :مهزول منحوت
(٢٤١) حرى: المحترقة.

إن انشغال ووسوسة قلبي فيك وإطالة التفكير في الوصول إليك والوله والشوق إليك جعلني عارياً من اللحم ناحلاً، بل إن عظمي كأنه منحوت.

إن الصبايةَ لم تدع مني سوى عظم مبرى

وقال الدكتور النجار في تعليق له على هذه الأبيات:

"لم يعبر بهذا الشعر عن تجربة عاطفية، و لم يصدر فيه عن صبوة عاشق، على الرغم من التأنق الظاهر في اختيار ألفاظه وتنغيمها ورصف نظامها(٢٤٢)".

ومن هذا يتضح أن العتابي لم يكن محباً عاشقاً، بل كان متزناً، يقول الغزل تقليداً، وليس فيه إبداع ولا معان عميقة بالنسبة لبقية أغراض الشعر كما هو الحال في مدحه واعتذاره وإخوانياته، لكن للعتابي عذراً وهو تعمقه الفكري في كل شيء.

الوصف:

الإجادة في الوصف تتطلب أن يكون عند الشاعر الاستعداد في الذوق والإحساس بالجمال والاتساع في الأفق لمشاهدة المناظر الكثيرة، وذكاء في ربط الأشياء بعضها ببعض، ثم تفقه في التراث والعلوم العصرية عامة، حتى يستقى أفكار وخيالاته من تراثه وعصره.

والعتابي وهبه الله الاستعداد، ونمّى تجربته بكثرة مشاهداته التي نتجت عن أسفاره المستمرة. وكان يحفظ الكثير من القرآن الكريم والحديث الشريف والأشعار.

وكذلك معرفته باللغة الفارسية وآدابها وأفكارها ودقة معانيها ساعدته على الأوصاف الدقيقة والتصوير الرائع البليغ النادر، حتى لنراه قد أجاد في هذا الفن.

١- وإليك هذه القصيدة الرائعة في وصف المطر والسحاب(٢٤٣):

أرقتُ للبرق يخفى ثم يأتلق ... يخفيه طورا ويبديه لنا الأفقُ

كأنه غرةٌ شهباء،لائحةٌ ... في وجهِ دهماء(٢٤٤) ما في جلدها

أو ثغرُ زنجيةٍ تفترُ ضاحكةً ... تبدو مشافرُها طورا وتنطبقُ

أو سلة البيض في جأواء مُظلمةٍ ... وقد تلقت ظباها البيضُ والدرقُ(٢٤٦)

والغيمُ كالثوب في الآفاق منتشرٌ ... من فوقه طبقٌ من تحته طبقُ

تظنه مصْمتاً(٢٤٧) لا فتق(٢٤٨) فيه ... سالت عواليه قلت: الثوب منفتقُ

إن معمع(٢٤٩) الرعد فيه ... أو لَأْ لَأَ البرق فيه قلت: يحترقُ

---

(٢٤٢) العتابي ٧٣.

(٢٤٣) الشعر والشعراء د/مصطفى الشكعة ٥٧١، ٥١٨.

(٢٤٤) دهماء: الشديدة السواد.

(٢٤٥) البلق:الشديدة السواد والبياض.

(٢٤٦) الدرق: الصلب من كل شيء.

(٢٤٧) مصمتاً: قوي لا يقطر منه شيء.

(٢٤٨) الفتق: مشق الثوب.

تستكُّ[٢٥٠]من رعده أُذنُ السميع تعشى[٢٥١]إذا نظرتْ من برقه
فالرعدُ صهصلقٌ[٢٥٣]والريح والبرق مؤتلقٌ، والماء منبعقٌ[٢٥٥]
قد لاح فوق الرَّبا[٢٥٦] نورٌ له كأنهُ الوشيُ والديباجُ والسَّرَقُ[٢٥٨]
من صُفْرةٍ بينهما حمراء قانيةٌ وأصفرٌ فاقعٌ أو أبيضٌ يققُ[٢٥٩]

وهو بهذه القصيدة الوصفية الرائعة الصور، البديعة الأسلوب يتقدم إلى الأمام خطوات بشعره، فالبديع في أوائل معرفة الناس له، فلم يدخل بالتكلف وإنما له رونقه وجدته، فانظر إلى تلك الصور والمشاهد الرائعة التي يعرضها في القصيدة متوالية كلمعان البرق، فما يكاد يختفي حتى يظهر.

أرقتُ للبرق يخفى ثم يأتلقُ يخفيه طورا ويبديه لنا الأفقُ
كأنه غرةٌ شهباءُ، لائحةٌ في وجه دهماء ما في جلدها بلقُ
أو ثغر زنجيةٍ تفترُّ ضاحكةً تبدو مشافرها طورا وتنطبقُ
أو سلة البيض في جأواء مظلمةٍ وقد تلقت ظُبَاها البيضُ والدرقُ

إنه يصور حالة السهران الأرق الذي لم تغمض عيناه لأنه يشاهد ويتدبر البرق، فمرة يخرج، وأخرى يختفي، فيتابع عليك الصورة بسرعة، فهو يشبهه بالعزة الشهباء أو يشبه ثغر زنجية أو سلة البيض.

وهو مع سرعة التتابع لم تفارقه التفاصيل والدقة في رسم الصور، فقد أتى لك بالصورة، وفعل فيها بعض التفاصيل كما في قوله:

أو سلة البيض في جأواء مظلمة وقد تلقت ظباها البيض والدرق

ثم ينتقل ليرسم لنا صورة متكاملة عن السحاب يتقنه إتقاناً جيداً فيقول:

والغيمُ كالثوب في الآفاق منتشرٌ من فوقه طبقٌ من تحته طبقُ
تظنه مصْمتاً لا فتق فيه فإن سالت عواليه قلت: الثوب منفتقُ
إن معمع الرعد فيه قلت:منخرقٌ أو لَأْ لَأَ البرق فيه قلت: يحترقُ

بيض متراكم بعضها فوق بعض إلا على أقصر من الأسفل، ومن هذا التراكم تظهر تلك الطبقات، وأعد معي الكرة إلى هذا البيت، فإن الصورة تتجلى أكثر.

---

(٢٤٩) معمع الرعد: صوت الرعد.
(٢٥٠) تستك: تصم الآذان.
(٢٥١) تعشى: أي لا ترى شيئا.
(٢٥٢) الحدق: سواد العين.
(٢٥٣) صهصلق: شديد الصوت.
(٢٥٤) الريح منخرق: شديد تمزق ما يعترضها.
(٢٥٥) منبلق: أي يشقق كل شيء يعترضه.
(٢٥٦) الربا: المكان العالي.
(٢٥٧) الأرج: الريح الطيب.
(٢٥٨) السرق شقق الحرير.
(٢٥٩) يقق: شديد البياض.

والغيم كالثوب في الآفاق منتشـــر من فوقه طبق من تحته طبـــق

وتصويره يوحي ذلك بأن القشرة التي تليك لا يقطر منها شـــيء، فهـــي صـــماء لا خـــرق ولا فتـــق فيها، لكن إذا نزل المطر ذهبت تلك الحقيقة، وتبين لك خداع النظر وما كنـــت تعتقـــده مـــن الصـــواب، فاتضح أن الثوب يحتوى على فتوق كثيرة.

تظنه مصمتا لا فتـــقَ فيـــه فـــإن سالت عواليه قلت الثـــوبُ منفتـــق

ومن قوله:فإن سالت عواليه قلت الثوب منخرق " بـــدأ بإزالـــة معـــالم الصـــورة الأولى، ويتـــدرج أيضاً مع الموصوف حتى يصل إلى منتهاه.

وهو يزيد تمزيق الصورة لنا حينما يدوي الرعـــد فيـــه فتكثـــر معايـــب الثـــوب، وتتجلـــى أمامـــك حقيقة الثوب البالية المتهرية التي لا تمنع شيئا، والتي ظننتها فتقـــا بســـيطا، وأنـــت معـــي في الفـــارق بـــين منفتق و منخرق.

"إن معمع الرعد فيه قلت ينخرق"

فأتى بالفتق أولا في بداية الصورة لأنه أهون، ثم أتى بعده بما هـــو أكـــبر وهـــو الخـــرق " ثم يتـــدرج مرة أخرى إلى نهاية الصورة وتلاشيها، فالاحتراق والاشتعال نهاية صعبة لا أثـــر بعـــدها يبقـــى، فـــإذا مـــا لألأ البرق ولمع تأكدت بأن الثوب احترق.

"أو لألأ البرق فيه قلت محترق"

لقد رسم صورة كاملة أمامك، ثم أخذ يخفيها وأنت تراقب بدايتها ونهايتها حتى تلاشت.

ثم ينتقل ليصور السامع والمراقب لهذه الصورة فيقول:

تستكُّ من رعده أُذنُ السميع كما تعشى إذا نظرت من برقه الحـــدق

فإنه يعني أن مشاهدة تلك الصورة وسماعها يفقـــد المســـامع قوتهـــا حـــين الســـماع لأزيـــز الرعـــد والصواعق، كما تعشي عيناه من قوة النور الســـاطع، إلى آخـــر القصـــيدة الـــتي تظهـــر فيهـــا الصـــورة الكثيرة الجيدة.

وقد انتقد الدكتور مصطفى الشكعة أحد أبياته واعتذرله في آن واحـــد فيقـــول:" فـــنحن في حـــيرة من أمرنا إعجاباً و استحساناً لقوله:

فالرعدُ صهصلقٌ والريح منخـــرقٌ والـــبرقُ مؤتلـــق والمـــاءُ منبعـــقٌ

لكنه الغلو، والغلو ممجوج مرفوض في كل صـــوره وأشـــكاله وجوانبـــه، لـــيس في الشـــعر وحـــده وإنما في كل مظهر من مظاهر الحياة، وفي كل لون من ألوان الفنون(٢٦٠) ".

إن نظرة سريعة إلى القصيدة يلفت انتباهك من البديع من جناس وتقابـــل ومحاولـــة لإظهـــار ألـــوان متعددة في صوره، وذلك في مثل قوله: يخفيه ويبديه، غرة شـــهباء في وجـــه دهمـــاء، تبـــدو مشـــافرها ثم تنطبق، إلى آخر تلك الصور.

وتعتبر هذه القصيدة من أجود ما قاله محدث في وصف السحاب والقطر والرعد والبرق.

---

(٢٦٠) الشعر والشعراء د. مصطفى الشكعة.

٢- وله مقطوعة أخرى في الطيف تقوم على التصوير الهادئ والخيال المحلق:

و لما استقر النومُ في جفـــن عينـــه ... وماتت له أوصالُه والمفاصـــلُ[٢٦١]

رمت غمرات الموت رمياً بنفســـها ... ولليـــل ســـتر حولهـــا متـــهادِلُ

فأهدى إلينا الليلُ شخصاً تناســـبتْ ... إلى الحُسن منـــه صـــورةٌ وشمائـــلُ

فباتت غمامـــات النعـــيم تجودنـــا ... لها دِيَـــمٌ حـــتى الصـــباح ووابـــل

إنها قطعة تصف لنا حالته يوم يركن إلى النوم وتتراخي أوصـــاله ومفاصـــله، ثم تأتيـــه الصـــورة الـــتي يتمناه في خياله صورة وأخلاقاً وأدباً ربما لا توجـــد في الواقـــع بـــل في الخيـــال، ثم تأتيـــه وهـــو في أمـــن واطمئنان، فيبيت في ليلة هادئة يتمنى ألا يصحو من هذا الحلم الجميل.

٣ - وهو يصف لنا الكتاب ومجالسته فيقول[٢٦٢]:

لنا نـــدماءُ مـــا نمـــلُّ حـــديثَهم ... أمينون مأمونون غيبـــاً ومشـــهداً

يفيدوننا من علمِهم علم ما مضـــى ... ورأيـــاً وتأديبـــاً وأمـــراً مســـدداً

بلا علةٍ تخشى ولا خـــوف ريبـــةٍ ... ولا نتقي منـــهم بنانـــا ولا يـــدا

فإن قلت هم أحياءُ لست بكـــاذب ... وإن قلت هم موتى فلست مفنـــدا

فهم الذين يجلبون الأحاديث التي لم تسمع من قبل وتوسع العقـــل والقلـــب، وهـــم الأمنـــاء علـــى السر، فلا يخرجونه ولا يغتابون، ولا ينمّون، بل لهم هدف واحد وهـــو العطـــاء والهبـــة وتوســـعة العقـــول وزيادة الأفق، يهدون ذلك بلا مقابل و لا ريـــاء ولا خـــوف، فهـــم أحيـــاء بمـــا يحتـــوون، لكنـــهم لا ينطقون، ولا يمشون، إنها الكتب.

٤- وله في وصف الخمر قوله[٢٦٣]:

يـــا ســـاقيا خصـــني بمـــا تهـــواه ... لا تمـــزج أقـــداحي رعـــاك الله

دعهـــا صـــرفا فـــآتي أمزجهـــا ... إذا أشـــربها بـــذكر مـــن أهـــواه

الحكم:

ومن الظروف الصعبة التي عركته، والعلوم الجمـــة الـــتي نالهـــا والـــبلاد والمجتمعـــات الـــتي جابهـــا، وغيرها من الظروف التي أحاطت بحياة العتابي، كـــان لابـــد أن تتكـــون عنـــده خـــبرة وتجـــارب، ولـــذا تطالعنا بعض الحكم في شعره:

١ــ ومنها في رسالة بعث بها إلى مالك بن طوق[٢٦٤]:

إني بلـــوتُ النـــاسَ في حـــالاتهم ... وخبرتُ ما وصلوا مـــن الأســـباب

---

(٢٦١) طيف الخيال ٥٤، العتابي ٧١.

(٢٦٢) الشعر والشعراء د. مصطفى الشكعة ٤٩٩.

(٢٦٣) النجوم الزاهرة ١٨٦/٢، الشعر والشعراء د. مصطفى الشكعة ٥١٨.

(٢٦٤) الأغاني ١١٧/١٣.

فإذا القرابةُ لا تقرّبُ قاطعا وإذا المودةُ أقرب الأنساب

٢- ومنها قوله [٢٦٥]:

لا ترجو رجعة مذنب خلط احتجاجاً باعتذار

٣- ومنها قوله:

هيبة الأخوانَ قاطعة لأخي الحاجات عن طلبه

فإذا ما هِبْتَ ذا أمل مات ما أملت من سببه

٤- ومنها قوله:

فقد كنت أبكي على ما فات من وأهل ودي جميعاً غير أشتات

فاليوم إذا فرقت بيني وبينهم نوى بكيت على أهل المودات

هجاؤه:

وشاعرنا صناعته قليلة من الهجاء، و لم يقله إلا في حالات نادرة أو مع شخص معين، وقد وقع التهاجي في الشباب حيث الأخذ بالثأر ثم إن التهاجي يؤدي إلى الشهرة.

وهجاؤه يمثل الواقع في صاحبه، وهو يستعمل أسهل الأساليب وأقربها مأخذاً، ويبتعد عن المعاني العميقة والغوص وراءها في هجائه، وهو لم يكتف بهجاء الأفراد بل حقد على مجتمعه.

١- فقد أغضبه أن مجتمعه لم يعرف له حقه، و لم يعرف قيمته في الحياة، فهو العلامة و الشاعر المجيد والكاتب البليغ، فيصبح عندهم فقيرا معدما؛ لذا سبهم وهجاهم بقوله:

تساوى أهلُ دهرك في المساوي فما يستحسنون سِوى القبيح

وصار الناسُ كلهم غثاء بما يُرجون للأمر النجيح

وأضحى الجود عندهم جنونا فما يستعقلون سوى الشحيح

وكانوا يغضبون من الأهاجي فصاروا يغضبون من المديح

٢ - وهو يعين أفرادا مخصوصين من هذا المجتمع فيحقد عليهم، لأنه له اليد الطولى عليهم، كمثل قوله في منصور النمري عند طاهر بن الحسين حينما أراد الإصلاح بينهما[٢٦٦]:

أصحبتك الفضل إذ لا أنت تعرفه حقا ولا لك في استصاحبه أرب

ما من جميل ولا عرف نطقت به إلا إلي وإن أنكرت ينتسب

٣- وقد قال في صديق له استعد بقضاء حاجته، فأعطاه بعضها، وماطله بالباقي[٢٦٧]:

بسطتُ لساني ثم أمسكتُ نصفه فنصف لساني بامتداحك مطلق

فإن أنتَ لم تنجزْ عداتي تركتني وباقي لسان الشكر باليأس ينطِق

---

(٢٦٥) الأغاني ١١٧/١٣.

(٢٦٦) الأغاني ١١٨/١٣، العتابي ٨٠.

(٢٦٧) غرر الخصائص الواضحة ٢٩٦، ٢٦٤.

٤ – وقال في ذم الباغي [٢٦٨]:

بغيت فلم تقع إلا صريعاً كذلك البغي يصرع كل باغ

٥ – وقال في ذم البرامكة[٢٦٩]:

إنَّ البرامكَ لا تنفكُّ أنجية[٢٧٠] بصفحةِ الدين من نجواهم ندبُ[٢٧١]

تجرمتْ حججٌ منهم ومفصلهم مضرجٌ بدم الإسلام مختضبُ

فنراه قد اتهمهم في البيتين بأمور خطيرة منها:

١- حبك المؤامرات سراً (إن البرامك لا تنفك أنجية).

٢- محاولة الطعن في دين الإسلام (بصفحة الدين من نجواهم ندب)، وفي هذا إشارة إلى اتهامهم بالزندقة.

٣- وفيها محاولة لنبش تاريخهم في الكيد للإسلام ووقائعهم للقضاء عليه (ومنصلهم مضرج بدم الإسلام مختضب).

وفي البيتين صور بارزة واضحة منها:

١- صورة البرامكة وهم يتناجون، بل لا ينفكون عن هذه المناجاة فهي صورة حركية مسرحية.

٢- صورة الدين وقد تحول إلى صفحة بارزة حفرت النجوى فيها ندوباً غائرة مظلمة، ولعلنا لو بالغنا في خيالنا أو سايرناه في خياله لرأينا صفحة بيضاء ناصعة، وقد غارت فيها ندوب سوداء، شوهاء، فيصبح المنظر أمامنا أوقع في النفس، وأقوى على تحريك مشاعر الحقد على هؤلاء الذين شوهوا هذه الصفحة بهذه الندوب.

ويصورهم في البيت الثاني بصورة غريبة عجيبة واضحة ناصعة هي صورة البرامكة يقدمون في يسراهم حججاً على إخلاصهم للإسلام، وفي يمناهم سيف تضرج بدم الإسلام يقطر بالدماء الحمراء، ولعل القارئ يستغرب هذا الهجاء للبرامكة من العتابي الذي تردد على منتدياتهم، ولا إخالهم إلا وقد أجزلوا له العطاء، وأكثروا الشفاعة له عند الوجهاء، لكن النجم إذا أَفِلَ قل ضياؤه، ولعنا نلتمس له العذر ونحن نلوم، فالمتصفح لديوانه لا يرى له مدائح فيهم، وربما أنه أدرك نياتهم من خلال مجالسته إياهم فجاراهم ظاهراً وكرههم باطناً.

٩- وقال العتابي يذم[٢٧٢]:

---

(٢٦٨) العقد الفريد ١٥٧/٢.

(٢٦٩) زهر الآداب ٣/ ٦٧٥.

(٢٧٠) أنجية:تتناجى ويوسوسون لبعضهم.

(٢٧١) ندب: جروح.

(٢٧٢) بهجة المجالس وأنس المجالس ٥٩٧/١، البيان والتبيين ١٢٠/١.

فكم نعمـــةٍ آتاكهـــا اللهُ جزلـــةً مبْرأةً مـــن كـــلِّ خُلـــق يـــذيمُها
فسَلطتَ أخلاقـــاً عليهـــا ذميمـــةً تعاورهـــا حـــتى تغـــرَّى أديمُهـــا
وكنت امرءا لو شئتَ أن تبلغ المدى بلغْـــتَ بـــأدنى نعمـــةٍ تســـتديمُها
ولكن فِطامُ النفس أثقـــل محمـــلا من الصَّخْرةِ الصَّماء حين ترومهـــا

هذا ما عثرت عليه من هجائه، فهو شعر قليل لاذع، لكنه خالٍ من الغلو المفرط إلا مثل قوله:

وكانوا يغضبون مـــن الأهـــاجي فصـــاروا يغضـــبون مـــن المـــديح

ثم هو لا يحاول أن يجمع الصفات الخبيثة كلها، ويكيلها لمذمومه، إنما يخاطـــب الرجـــل بمـــا يعتقـــده فيه. و لم تكن قصائده مطولة في هجائه، وإنما أبيات يحاول أن تجري علـــى لســـان كـــل واحـــد ويســـهل حفظها. ثم هو لم يعتن بهجائه كل الاعتناء، فلم يورد فيه الحجج المقنعة والأفكار العميقة.

أغراض أخرى:

إن شاعرنا ذلك العلامة الشاعر الأديب البليـــغ الـــذي تـــراوده نفســـه إلى تـــرك أبـــواب الملـــوك والأمراء، كان يعود إلى نفسه بعض الأحيان، وتظهر هذه جليـــة في قصـــائده، وإن وجـــدت لهـــا بعـــض المناسبات الخاصة.

إن مثل هذا الشعر نستدل ونقتبس منه صفات العتابي على أكمـــل وجـــه، فالـــدارس لشـــعره يجـــد شخصية يجتاحها الجبن والخوف والرهبة والحذر من أن يتقـــدم خطـــوات إلى الأمـــام، وهـــذه شخصـــية العلامة، فإنه يحاول سياسة الأمـــور بالعقـــل لا بالتـــهور والتـــدبر، إن تفكـــيره هـــداه إلى الطريـــق، وإن تجربته في نفسه وفي غيره جعلته يدرك المصـــاعب الـــتي تواجهـــه حينمـــا ترنـــو نفســـه إلى أن يتجشـــم الأهوال لينال المال والجاه، ومع تعقله واتزانه فقد شرّد وأهدر دمه أكثـــر مـــن مـــرة، ثم هـــؤلاء الأمـــراء والوزراء العظام وأهل الجاه يسقطون من عل، إنهم البرامكة الذين يملكـــون خـــزائن المعمـــورة فلـــم تغـــن عنهم شيئاً ، زد على ذلك شيئاً هاماً في استعداد ونفسية العتـــابي هـــو زهـــده في المـــال وفي الكماليـــات، فهو يرى أن أهمية الرجل في لسانه وعقله، إذن فنحن أمام عقلية سيطر عليهـــا العقـــل والـــتفكير الطويـــل في المهالك، واعتبرت بما حولها، ويظهر ذلك في مخاطبته لزوجتـــه: تلـــك الزوجـــة الفقـــيرة المعدمـــة الـــتي تنظر إلى من حولها من النساء وهن يرفلن في الحرير ويلبسن أحســـن العقـــود والقلائـــد، فتتحســـر وتـــئن وتذهب إلى زوجها لتجادله، لم لَمْ يكن عندك همـــة الرجـــال الـــذين يفِـــدون علـــى الخلفـــاء والأمـــراء فيرجعون بالهبات والعطايا؟ أنت شاعر مثلهم ألست بليغاً وأديباً وعلامة؟ فيرد عليها بقوله:

تَلُومُ عَلَى تَـــرْكَ الغِنَـــى باهِلِيّـــةٌ زوَى الفقـــرُ عنـــها كُـــلَّ طِـــرف
رأتْ حَوْلَهَا النِّسْوَانَ يَرْفُلْنَ(٢٧٥)في مُقلَّـــــدة أعناقُهـــــا بالقلائِـــــدِ

(٢٧٣) طرف: الجديد، وفي البيت الأول روى الجاحظ الدهر بدل الفتر.
(٢٧٤) تالد : القديم.
(٢٧٥) يرفلن: يجررن ثيابهن في الأرض روى الجاحظ الكسا بدل الثرى، وأجيادها بدل أعناقها.

أَسَرَّكِ أني نلتُ مـــا نـــال جعفـــر من العيش أو ما نـــال يحـــيى بـــن
وإنّ أمير المـــؤمنين أغَصَّـــني[٢٧٧] مغصهما بالمشرقاتِ[٢٧٨] البوارد[٢٧٩]
رأيتُ رفيعـــاتِ الأمـــور مشُـــوبَةً بمستودَعَاتٍ في بُطونِ الأســـاودِ[٢٨٠]
دعيني[٢٨١] تُجْئَني مِيـــتتي مطمئنـــةً و لم أتجشَّم هَوْلَ تِلْـــك المـــواردِ[٢٨٢]

وقد رواها صاحب العقد الفريد برواية فيها اختلاف عـــن الأولى مـــن حيـــث اخـــتلاف الألفـــاظ وترتيب الأبيات وزاد فيها قوله:

فإن الذي يسمو إلى الرتب العلـــى سَيُرْمَى بألوان الفـــرى والمكايـــد

فيخاطب زوجته بهذه الأبيات: أيتها المرأة الحمقى أيتها المـــرأة الجاهلـــة ذات النظـــرة القاصـــرة، ألم تتدبري فيما حولك؟ ألم يكن لك واعظ من أولئك الذين قتلوا وصـــلبوا أترضـــين أن أكـــون مثلـــهم، أن أقتل مثل قتلهم؟

أسرك أني نلت مـــا نـــال جعفـــر من العيش أو ما نال يحيى بن خالـــد
وأن أمـــير المـــؤمنين أغصـــني مغصـــهما بالمشـــرقات البـــوارد

فإن كنت صديقة وتحافظين على ودي وحياتي فاتركيني أريح نفســـي مـــن ذلـــك العنـــاء الشـــاق، وأن تجيئني ميتتي ومنيتي كما تجيء أي إنسان عادي، فكلما عظمت الأمـــور عظمـــت المصـــائب المحيطـــة بها والدواهي الدائرة بها.

رأيت رفيعـــات الأمـــور مشـــوبة بمستودعات في بطـــون الأســـاود
دعـــيني تجـــئني ميتـــتي مطمئنـــة و لم أتجشم هـــول تلـــك المـــوارد

إنها فلسفة في هذه الحياة المبنية على الاتزان والعقل والإحجـــام، لكـــن أيـــن فلســـفته مـــن إقـــدام المتنبي وتهوره حيث يقول:

إذا غـــامرت في شـــرف مـــروم فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم
فطعـــم المـــوت في أمـــر حقـــير كطعـــم المـــوت في أمـــر عظـــيم

لكن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال كلمة أقول هي القاســـم المشـــترك حينمـــا قـــال: "الهيبـــة تجلب الخيبة، إن الموت واحد، وإن كان في الأعناق والنحـــور أو في الأدبـــار والظهـــور، لكـــن أحـــدهما أشرف من الآخر".

---

(٢٧٦) روى الجاحظ يسرك بدل أسرك والملك بدل العيش.
(٢٧٧) أغصَّني: من الغصة وهو ما يعترض في الحلق فتحتبس الأنفاس به، رواه الأغاني لكم الممزة في أن، رواها الجاحظ بالفتح.
(٢٧٨) المشرقات: السيوف اللوامع، وقد روى الجاحظ المرهفات بدل المشرقات.
(٢٧٩) البوارد: التي تثبت في الضربة ولا نتثني.
(٢٨٠) الأساود:جمع أسود وهي الحية، وروى الجاحظ كريمات بدل رفيعات.
(٢٨١) روى الجاحظ ذريني.
(٢٨٢) البيان والتبيين ٣/٣٥٣، ٣٥٤، عيون الأخبار ١/٢٣١، ٢٣٢، الأغاني ١٣/١٢٤،١٢٣
العقد الفريد٣/١٢٤، زهر الآداب ٣/٦٧٥.

ومن شعره الخاص قصيدته[٢٨٣] التي يغلب على الظن أن أكثرها ضائع، وأن أبياتها ليست متسلسلة أيضا، لأننا لم نستطع تبيان الموضوع والهدف من قولها من خلال الأبيات الموجودة، لكن يبدو إنها قيلت بمناسبة رحلة إما إلى محبوب أو إلى ممدوح، والثاني أقرب إلى الواقع لأنه قالها بعد أن تقدم في السن ومرت عليه أهوال الحياة والمصائب. وقد أيد الرأي الأخير الدكتور الشكعة[٢٨٤]، وتبلغ نزعة التشاؤم والشعور بالبؤس والإحساس بالوحدة ذروتها عند العتابى في إطار رحلة أغلب الظن أنها كانت إلى ممدوح ارتجى رفده".

٣ – وقصيدته في توديع جاريته تبين فلسفته في الحياة والصراع الدائر في ضميره بين أخذ وعطاء، بين أمل عريض ويأس قاتل يتجلى في مناقشته لجاريته ولنفسه[٢٨٥]:

ما غَناءُ الحِذَار والإشفاق ... وشآبيبُ دَمْعِكِ المُهْرَاق
ليسَ يَقْوَى الفؤادُ منك على الص ... دِّ لا مُقْلَتَا [٢٨٦] طَلِيح[٢٨٧] المآقي
غدرات الأيَّام منتزعَاتٌ ... ما غَنمْنَا من طول هذا العناق
إنْ قضَى اللَّهُ أنْ يكون تَلاق ... بعد ما قد ترين كان تَلاق
هَوِّني ما عليك واقنَيْ حيَاءً ... لستِ تبقين لِي ولستُ بَاق
أيّنا قدَّمَتْ صروفُ المنايا ... فالذي أخّرتْ سريعُ اللِّحاق
ويدُ الحادثات رَهْنٌ بمُرَّا ... تٍ من العيش مُصْبَرَاتِ [٢٨٨]المذاق
غُرَّ مَنْ ظن أن يفوت المنايا ... وعُراها قلائدُ الأعناق
كم صَفَيّين مُتّعا باتفاق ... ثم صارا لغُرْبَةٍ وافتراق
قلتُ للفرقدين والليل مُلْق ... سُودَ أكنافِه على الآفاق
ابْقَيَا مَا بقيتما سوف يُرمى ... بين شخصيكما بسَهْم الفِرَاق
بينما المرءُ في غَضَارةِ عَيْش ... وصلاح من أمره واتّفَاق
عطفتْ شِدّة الزمان فأدّتْه ... إلى فاقةٍ وضيق خِنَاق
لا يدومُ البقاءُ للخلق ول ... كنَّ دوامَ البقاء لِلخَلاَّق

والمطالع لهذه القصيدة بتعمق لا يرى فيها عاطفة جياشة تناسب المقام لإنسان يودع من يحب... بل يرى فيها حكماً عقلية صحيحة صادرة عن تجارب أو عن ثقافة واسعة، وكلاهما صادر عن عقل حصين لا عن قلب مُكْلَمٍ بالحب، ولننظر إلى الأبيات لنرى ذلك من خلالها عقلية الفلسفة:

---

(٢٨٣) مثبتة في ديوان الشعر.

(٢٨٤) الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥١٥.

(٢٨٥) زهر الآداب ٦٧٧/٣.

(٢٨٦) المُقْلِتَ: من تعرض للهلاك.

(٢٨٧) طليح: هزيل.

(٢٨٨) مصبرات: من الصبرة وهي شدة المرارة.

مـــا غنـــاء الحـــذار والإشـــفاق وشـــآبيب دمعـــك المهـــراق

فإن القلب الحزين المجروح لا يقول: (ما فائدة الحذار والإشفاق.. وما فائـدة الـدمع المهـراق) بـل إن هذا بالبيت هو كلام العقل للقلب وليس العكس.

وانظر إليه كيف أتى بالبيت الثاني:

ليس يقوى الفـؤاد منـك علـى الصد ولا مقلتـا طلـيح المـآقي

فإنه يقول في هذا البيت: أنه لا يقوى على فراقها ولا يصبر عنـها، وهـو في البيـت الأول يقنعهـا عقلياً بأنه لا فائدة من الحذر والدموع، فأنت ترى غلبـة العقـل علـى العاطفـة، ولا سـيما إذا نظـرت إلى البيت الثالث:

غـــدرات الأيـــام منتزعـــات ما غنما من طـول هـذا العنـاق

فإنه يضع حدّاً لهذا الحب؛ لأنه لما تدبر النتيجة وجـد عـدم الفائـدة فيهـا، فهـل هـذا كـلام عاشق؟

ثم انظر إليه يقول:

إن قضـى الله أن يكـون تـلاق بعد ما قـد تـرين كـان تـلاق

هـوني عليـك واقـني حيـاء لست تـبقين لي ولسـت بـاق

فأنت تراه يقول: ولنفترق الآن فإن قضى الله لنا بـالتلاقي فسـوف نتلاقـى، هـذا أشـبه بكـلام إنسان يريد أن يفر من مخاطبه فرار الجبان من الأسد، ثم يقول لهـا: (هـوني عليـك واحفظـي حيـاءك، فأنا لن أدوم لك، وأنت لست دائمة لي..) وهذا صحيح عقلاً مـن إنسـان لا يحـس لـذة ألم واحـدة، أما من لسعته نار الأشواق فإن مثل هذه الأحكام العقلانية الباردة تكـون أبعـد عـن تفكـيره ولسـانه، وإنما أقرب إليه هيجانه وهذيانه.

ثم استمرت الأبيات في سرد حكم القضاء والقـدر وذكـر الفـراق والتـأملات في الآفـاق حـتى البيت الرابع عشر، و لم يعد ذكر الجارية ظـاهر إلا بلفـظ مخاطـب أو بضـمير غائـب. لقـد تلاشـى ذكرها ليحل محله ذكر الحكم المقصودة في هذه القصيدة.

ربما أن مطلع القصيدة في ذكر الجارية كان فقط مدخلا لـذكر الفـراق والحكـم المتعلقـة بـذلك من نظره رصينة حزينة للكون وحوادثه وما فيه مـن مـرارة وآلام، بـل ربمـا أنـه صـورة حالـة مـن الحالات المحيطة به، فإن حالته لا تسمح له بشراء جوار وممارسة الحـب العـاطفي معهـا، وهـذا يجعلـه ينظر إلى الموضوع بميزان العقل لا العاطفة.

ولا مانع أن تكون هناك جارية في الحقيقة، وهي صـادقة في بكائهـا فراقـه وصـادقة في مشـاعره نحوه، لكنه على كل حال قابلها مقابلة عقلية منطقيـة فلسـفية لا بشـعور صـادق وعاطفـة جياشـة، ولعلنا نستخلص مما سبق:

١- الجو العام هو جو الحكم الرصينة، والحزن هو المسيطر على مناخ القصيدة.

٢- المشاعر هي مشاعر الفيلسوف الناطق بعقله لا بقلبه.

٣- في القصيدة مسحة سوداوية المزاج، لعل مصدرها حرمانه الشديد إلى جانب أمله الكبير، أو لعل مردها إلى الأحداث الجسام التي رآها في عصره تعصف بالكبار وتذرهم كالهشيم، وخاصة نكبة البرامكة الذين يعرفهم، وكان يعاشرهم ويخالطهم.

٤- ولعل القارئ للقصيدة لا تفوته بعض اللمحات الإسلامية والتصورات الحقيقية التي تنبع من الإسلام مثل معاني: أن لا خلود لأحد، قضاء الله هو النافذ، لا يفر أحد من الموت، افتراق الخلان بالموت، البقاء الدائم للخلاق سبحانه.

وبالإجمال فإن كل حكمة صائبة لها رصيدها من خزانة الحكمة الإسلامية، والشريعة كلها هي مصدر الحكمة الإنسانية الخالدة.

إن الفكرة الأساسية الشاملة لهذه القصيدة هي طلب الخلود والشوق إليه، وهي فكرة راسخة في شعور الإنسان يبحث عنها في كل مكان، ويصورها في مختلف الصور الشعورية والحسية وفي مختلف العصور والأزمان.

وهنا الشاعر حينما يحوم حول الشكوى من الزمان والبكاء على الفراق، والتحسر على الأيام وحوادثها إنما يشكو في الحقيقة قصر مدته وانعدام أجله وخوفه من نهاية قريبة تصيب كل إنسان، وتحطم كل كيان حتى شمل كيان ذاك الفرقدين بل الكون بأسره:

قلت للفرقدين والليل ملق ... سود أكنافه على الآفاق

ابقيا ما بقيتما سوف يرمى ... بين شخصيكما بسهم الفراق

إنها لقصيدة تمثل المذهب العتابى أكبر تمثيل، فهو لا يتجاوز الميزان العقلي قيد أنملة، ولا ينفث أو ينبس بكلمة قبل أن تمر على هذا الميزان، فهو تتبع الأفكار المستقاة من الدين والصبر والتجارب، وأخذ يقلبها في صور مختلفة، ويعرضها أمام جاريته ليقنعها.

الفصل الثاني

- خصائص شعره.
- آراء النقاد في شعره.

الخصائص المعنوية

وبعد أن قرأنا شعره، وحاولنا اقتباس نماذج منه للأغراض التي طرقها العتابي، ووقفنا عندها متأملين محللين فنه وطريقته، محاولين إعطاء القارئ فكرة واضحة عن كل غرض، وكيف يتفاعل مع الغرض ذاته، ويختار لكل غرض ما يناسبه من المعاني والأوزان والصور. ولسنا الآن بسبيل تحليل شعره من جديد، وإنما نحن بسبيل استخلاص بعض القضايا العامة التي تظهر لنا من فن العتابي. ولنبدأ بالأفكار والمعاني، وهي التي تمثل ما يدور فيه من آمال، وما يعيش فيه من واقع، وما يصطدم به من تجارب، وما يصدر عن عقله من جراء ذلك فضلاً عن انصهار ثقافته وعلمه وذكائه ومداركه في هذا الشعر، فإذا ما قدرنا على استنتاج ذلك من شعره فإننا نكون قد حققنا بعضاً من هدف دراستنا، ونحن في هذه الدراسة نحاول تتبع المميزات العامة في أفكاره ومعانيه والظواهر النفسية في شعره:

-١-

ومن هذه الظواهر ظاهرة الحرمان والحسرة التي تقابل اللهو والمجون عند أكثر معاصريه من الشعراء، فنحن إذا ما نظرنا إلى حالة الشعراء في عصره نجدهم أحسن الناس حالاً، وأكثرهم مالاً، وأقرب الناس إلى نفوس الخلفاء والأمراء، بل لهم الدرجة العالية في المجتمع، لما ينالونه من هبات وعطايا، وبسبب هذه الأموال والفراغ ساد المجون والترف والفحش بينهم.

ونحن إذا تتبعنا مسيرة العتابي وجدناه ابن البادية، ولكنه اختلط بشعراء المجون وصادقهم وجالسهم، وإن لم يشاركهم في لهوهم ومجونهم وكثرة استجدائهم، بل ظل ملتزماً بالسلوك الأفضل، فهو ابن البادية ترعرع فيها، ثم انتقل إلى الحاضرة وبقيت جذور البادية في أعماقه، فإخلاصه للقبيلة واعتزازه بها وافتخاره بحروبها وعزها كل ذلك لازمه طول حياته، فكان لا ينجرف مع الشعراء في لهوهم محافظة على العادات والتقاليد، وكان لا يقدم على الخلفاء وعلية القوم إلا نادراً، وتشاغل عن ذلك بمجالسة الكتاب والتزود بأنواع المعارف والتآليف، لكن هذا الإحجام سبب له الفقر، فاصطدم مع آماله العريضة، فتكونت عنده الحسرة والألم والحرمان. وذلك يقابل اللهو والمجون عند الشعراء، لذلك لجأ إلى التحدث عن نفسه وعما يعانيه من حرمان وشقاء ونصب، حتى إننا نلمح ظاهرة الحرمان والحسرة في أغلب أغراضه، وشعره ذلك كقوله:

إنّي امرؤٌ هــدمَ الإقتــارُ مــأثرتي واجتاح ما أبدت الأيّامُ من خطــرى
أنا ابنُ عمرو بن كلثــومٍ يُســوّدَهُ حيَّا ربيعةَ والأحيــاءُ مــن مُضَــرِ
أُرومــةٌ عطلــتني مــن مكارمهــا كالقوس عطلها الراميِ مــن الــوترِ

إذن فهو يشعر بالحرمان وهو متألم لأنه لم يصل إلى ما وصل إليه رجالات بني تغلب، كل ذلك بسبب الفقر والتشريد.

ويظهر[٢٨٩] ذلك الحرمان حتى في مدحه حينما يقول:

ما زلت في غمرات الموت مطرحــاً قد ضاق عني فســيح الأرض مــن
و لم تزل دائبــاً تســعى بلطفــك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

إنه مطروح لا حول له ولا قوة من الأهوال التي أحاطت به، ومن الخوف والفزع الذي يجتاح جوانبه، إنها غاية الحرمان، فهذا حرمان من الأمن والطمأنينة، وكل حرمان دونه يهون.

وهو يتحسر ويتألم حينما يقنع بالاطلاع ومتابعة العلم، ويجد فيها سلوته وأنسه، لكن هناك من يعيــب عليــه ذلك فهو يقول لهم[٢٩٠]:

يــا قاتــل الله أقومــاً إذا ثقفــوا ذا اللبِ ينظرُ في الأداب والحكــمِ
قــالوا ولــيس بهــم إلا نفاســته أنــافع ذا مــن الإقتــارِ والعــدمِ
وليس يدرون أن الحظ ما حُرِمُــوا -لحاهم الله – من علمٍ ومن فهــمِ

فتجده يتحدث عن الحظ والحرمان ويُعزّي نفسه بأن العلم والأدب والحكمة أفضل من طلــب المــال وجمعه، وهو كذلك، لكن في قرارة نفسه يحاول إحداث توازن في الجميع، فلا يترك هذا لهذا، ولا سيما وهو أديب شاعر وطابعهم في ذلك العصر جمع المال من الخلفاء والأمراء، وليس هو من أشباه أبي حنيفة وأحمد بــن حنبل حتى تقول: إنه مطابق لاعتقاده، ولو لم يؤثر فيه ما قال شعراً، ثم هو يطلب مكافأة على علمه وأدبه من المجتمع المحيط به. وهو حاقد على مجتمعه كله بسبب ما أصابه من الحرمان، فهو يهجو أهل الدهر كلهم بقوله[٢٩١]:

تساوى أهل دهــرك في المســاوي فما يستحســنون ســوى القبــيحِ
وصــار النــاسُ كلــهم غثــاءً فمــا يُرجــون للأمْــرِ النجــيحِ
وأضحى الجــود عنــدهم جنونــاً فما يستعقلون ســوى الشــحيحِ
وكانوا يغضــبون مــن الأهــاجي فصاروا يغضــبون مــن المــديح

---

(٢٨٩) الأغاني ١١٩/١٣.

(٢٩٠) الأغاني ١١٩/١٣.

(٢٩١) العتابي ٨٢.

هذا حرمان لازم العتابي، صرح به تصريحاً واضحاً، وهذا الحرمان نستطيع أن نتلمسه من ثنايا أسفاره كلها، فنجده يتحسر في غزله وفي مدحه وفي اعتذاره وفي إخوانياته، وهو يبدأ قصيدته في الرشيد بقوله:

ماذا شجاكِ بُحَّـــوارين مـــن طلـــلٍ ودمنةٍ كشـــفت عنـــها الأعاصـــيرُ

شجاكِ حتى ضمير القلب مشـــتَرك والعـــينُ إنســـانُها بالمـــاء مغمـــورُ

إن المدح وراءه آمال عريضة، فكيف يكون البداية بهذا الحزن النابع من أعماق القلب والمشترك مع العين وأجزائها.

وهو في القصيدة لم يتحدث عن نفسه بصفة خاصة، ومع ذلك تظهر علامات الحرمان والشكاية، فمثلاً قولـــه للرشيد في هذه القصيدة:

نادتك أرحامنا الـــلاتي نمـــتُّ بهـــا كما تنادي جـــلاد الجلـــة الخـــور

فالمناداة تكون عن بعد وفيها طلب العون والمساعدة، ولا يأتي الطلب إلا بعد شدة وحرمان. كما يظهر ذلك في مدحه لعبد الله بن طاهر حينما يقول:

ودُّكَ يكفينِيـــــــكَ في حـــــــاجتي ورؤيـــــتي كافيـــــةٌ عـــــن ســـــؤال

وكيف أخشى الفقرَ مـــا عشـــتَ لي وإنمـــا كفّـــاك لي بيـــت مـــال

فمنظره الذي ينبئ عن حالته، وهو أيضاً لا يكتفي بالخوف إنما ينتقل إلى مرحلة أعلى وهي الخشية، لكن الأبلغ في المدح هنا أن يذكر أقل درجة حتى يفسخ ما فوقها فذكر الخوف ينفسخ معنى الخشية، ولكن الخشية في هذا البيت لا تفسخ معنى الخوف، فالخوف ربما بقي، وأنا أذكر هذا لأني أمام العتابي البليغ المدرك لمثل هذه الأساليب البلاغية.

فإذا ما انتقلنا إلى الاعتذار فإننا نجد الحرمان وتصويره بصور متعددة كما في نفسية العتابي تماماً.

وتحت ثياب الصبر مني ابـــن لوعـــة يظل ويمســـى مســـتلين الجوانـــب

فـــتى ظفـــرت منـــه الليـــالي بزلـــةٍ فـــأقلعن عنـــه داميـــات المخالـــب

حنانيك إن لم أكـــن بعـــت عـــزة بذل وأحـــرزت المـــنى بالمواهـــب

فقد سمتني الهجـــران حـــتى أذقـــتني عقوبـــة زلاتي وســـوء منـــاقبي

فقوله: وتحت ثياب الصبر مني ابن لوعة.وظفرت الليالي بزلة، وسمتني الهجران.كلها ألفاظ تدل على مـــا يكابده من الحرمان، وما فيه من الشقاء وتعاسة العيش.

ونجد التشاؤم وشكاية الزمان والتحسر تظهر في شعره الخاص، حينما يجد أي مناسبة يقول فيها شـــعره، وأي مكان ينفث فيه روعه، فتظهر خلجات نفسه وحسراته المتقطعة وأحقاده الدفينة على الزمان، والمجتمـــع الذي لم يعرف قدره، و لم يحترمه، ويجعل له المكانة الرفيعة التي تجدر به فهو يقول:

أطفـــئ الحـــزن بالـــدمو ع إذا مـــا حمـــة الشـــوق أثـــرت في فـــؤادي

خاشع الطرف قد توشـــحنى الضـــر ر فلانـــت لـــه قنـــاة قيـــادي

ترب[٢٩٢] بؤس أخا هموم كـأن ال حـزن والبـؤس وافيـا مـيلادي
وكأني استشعرت مـا لفـظ النـا س مـن الغـائرات والأحقـاد

فالكلمات: الحزن، خاشع ترب بؤس، البؤس، النائرات، الأحقاد، الوحشة، كلها ألفاظ تدل على عمق ما يعانيه من الحرمان وخيبة الأمل، ثم هو يشكو البلاد والعباد والزمان:

لفظـتني الـبلاد، وانطـوت الأكفـاء دوني وملـني جـيراني
والتقت حلقة علـيَّ مـن الـدهر فماجـت بكلكـل وجـران
نـازعتني أحـداثها منيـة النـف س وهـدت خطوهـا أركـاني
خاشع للـهموم معتـرف القلـب كئيـب لنائبـات الزمـان

وهكذا ترى معالم الحرمان في أغلبية شعره، وخاصة ما يتحدث فيه عن نفسه، ولولا مخافة الإطالة لأتينا بالكثير، ولحللنا أبياته لنرى صوراً كثيرة من الحرمان عند العتابي.

-٢-

ومن السمات البارزة في شعره توليد الأفكار، فهو يطيل التفكير لسبر أغوار المعاني البعيدة، ساعدته على ذلك الثقافة الواسعة وتعلم الفارسية والاطلاع على تراثها، حتى أصبح الغوص وراء المعاني والأفكار صفة مدح عظمى في منظار العتابي، فهو يمدح الرشيد بها حيث يقول:

مستنبط عزمات القلب مـن فكـر مـا بينـهن وبـين الله معمـور

وهو في نفس القصيدة يتابع الإتيان بالأفكار العميقة والمعاني البكر حيث يقول:

فـتَّ المـدائح إلا أن ألسـننا مستنطقات بمـا تخفـي الضـمائير

فإنك تجاوزت المقاييس والمعايير للمعاني لكنا ننفث ما في صدورنا، ثم انظر إليه كيف يولد الأفكـار ويشعبها في تصويره للشكر:

فلو كان للشـكر شـخص يـبين إذا مـا تأملـه النـاظر
لمثلتـه لـك حـتى تـراه ولـتعلم أني امـرؤ شـاكر

وانظر إليه يقول:

أخضني المَقامَ الغَمْرَ إنْ كان غـرّني سـنا خُلّـب أو زلّـتِ القـدمان

وانظر إلى هذه المعاني التي تدل على الصنعة والتأني في الشعر:

ويسـتنتجُ العقمـاءَ حتّـى كأنمـا تغلغلُ في حيـثُ اسـتقرَّ جنينُهـا
وما كلُّ موصوف له الحقُّ يهتـدي ولا كـلُّ مِـنْ أمَّ الصُّـوى[٢٩٣]
مقيمٌ يستن العُـلا حيـثُ تلتقـي طوارقُ أبكار الخطـوبِ وعونُهـا

([٢٩٢]) ترب: المصاحب المساوي.

([٢٩٣]) الصُّوى: الأرض الغليظة المرتفعة.

فانظر إلى معاني هذه الكلمات: يستنتج، العقماء، تغلغل، استقر جنينها، طوارق أبكار الخطوب وعونها.

فإنها تدل على سرف الخيال الفكري إن صح هذا التعبير، ثم انظر إلى (حيث) وكيف موقعها في الشعر، فإنها تدل على أن هناك أفكاراً مرتبة، وانظر إلى وصفه طيف الخيال:

ولما استقرَّ النومُ في جفن عينه ... وماتت أوصالُه والمفاصلُ
رمتْ غمراتِ الموتِ رمياً بنفسِها ... وليلٌ سترٌ حولها متهادلُ
فأهدى إلينا الليل شخصاً تناسيت ... إلى الحسنِ منه صورٌ وشمائلُ
فباتت غمامات النعيم تجودنتا ... لها أديم حتى الصباح ووابل

إذن فهو يأتي بالفكرة ويحللها، ويرتب أفكاره الترتيب المنطقي العقلي: العتابي من أوائل الشعراء العرب الذين حاولوا ترتيب الأفكار والإتيان بها في قالب منطقي.

-٣-

ثم هناك الوازع الديني متلبس به غارس في أعماق ضميره، لذا تتكشف لنا معالم إيمانه ومحاولته لأن يكون العنصر الإسلامي هو العنصر الأفضل لسلوك البشرية، كما يتضح ذلك من مدحه، حيث يجعل التمسك بالتقاليد الإسلامية والحكم بالمنهج الإسلامي هما أفضل السمات وأعلاها، لذا نجده يمدح الخليفة بها ومدحه للخليفة يجب أن يكون قمة الصفات التي يتوصل إليها الشاعر في نظره على الأقل، بل هي القمة للقيم في نظر المجتمع، حيث جُعلت أبيات العتابي في مدح الرشيد الميزان للشعر، كما فعل ابنه المأمون [٢٩٤] وعبدالله بن طاهر الحسين [٢٩٥] وقد أوردهما سابقاً.

ونستنبط من استقراء شعره أن مدائحه تتسم بالطابع الديني فيقول:

إمامٌ له كفٌّ يضمُ بنانُها ... عصا الدين ممنوعاً من البري عودُها

ويقول أيضاً:

رعى أمة الإسلامِ فهو إمامُها ... وأدى إليها الحقَّ فهو أمينُها
مقيمٌ بمستن [٢٩٦] العلا حيثُ تلتقي ... طوارقُ أبكار الخطوبِ وعونُها

والعتابي يلجأ إلى التحليل والاحتمالات والحجج الدافعة في شعره والاستقصاء لأطراف الشيء، فانظر إلى قوله:

جعلتُ رجاءَ العفوِ عُذْرَاً وشبْتَهُ [٢٩٧] ... بهيبة إما غافرٍ أو معاتب

([٢٩٤]) الأغاني١٣/١٠٩.

([٢٩٥]) الأغاني ١٣/١١٢.

([٢٩٦]) بمستن: السنن الطرق ويقصد بها طرق الصحراء.

([٢٩٧]) شبته: خلطته.

وقوله:

وتحت ثيابِ الصبرِ مني ابـــن لوعـــةٍ يَظَلُّ ويمســـي مســـتلين الجوانـــب

وقوله:

ويســـتنتجُ العقمـــاءَ حتّـــى كأنمـــا تغلغلُ في حيـــثُ اســـتقرَّ جنينُهـــا

وترى التحليل والاستقصاء واضحاً في قوله:

إمـــامٌ لـــه كـــف تضـــم بنانُهـــا عصا الدين ممنوعا من البري عودُهـــا

وعـــينٌ محـــيط بالبريـــة طرفُهـــا ســـواء عليهـــا قربُهـــا وبعيـــدُها

وأصمع [٢٩٨] يقظان يبيتُ مناجيـــاً له في الحشا مســـتودعات يكيـــديها

وسمـــع إذا نـــاداه مـــن قعركربـــة مناد كفته دعـــوة لا يعيـــدها[٢٩٩]

فأنت ترى أنه قد استعفى كل جوانب الممدوح التي تؤهله للقيادة والرياسة.

الخصائص التعبيرية الفنية:

إن تحديد القيمة الفنية لشاعرنا أمر شائك وصعب بدليل اختلاف النقاد فيه، وبعضهم يقول أقوالاً عامة لا تقتبس منها خاصية بذاتها، وذلك مثل أحكام الأوائل فيه، كقول ابن قتيبة: "وكان شـــاعراً محســـناً" [٣٠٠] وقول ابن المعتز: "كان العتابي مجيداً مقتدراً على الشعر" [٣٠١] ما عدا الجاحظ فإنه حدد إحدى مميزاته فقرنـــه ببشار بن برد في البديع حيث قال [٣٠٢]: "وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع".

ثم إذا نظرنا إلى حكم النقاد المعارضين رأيناهم يختلفون فيه اختلافاً كبيراً، فهذا يضعه ضـــمن شـــعراء البادية، وآخر يضعه ضمن الشعراء المحافظين، وآخر يعتبره من واضعي أسس البديع. وأنت معـــي أن وصـــفه بكونه محسناً ومجيداً ومقتدراً على الشعر وأمثال هذا الكلام يدل على مكانته بوجه عام ولا يخصـــص مميزاتـــه الفنية.

فإذا ما رأينا رأي النقاد فيه وجدنا جرجي زيدان يضعه ضمن شعراء البادية[٣٠٣] ويعني بهذا أنه يتســـم بسماتهم، لكن فات على جرجي زيدان علم العتابي الواسع وثقافته والحضارة التي عاش فيها، وأثر هذه الأمور في شعره، كما فات عليه أنه استوطن الرقة وعين تمر وبغداد، بل هجر البادية حينما ولى وجهه شطر العلـــم. وهذا لا يمنع وجود آثار البادية في شعره، لكن ليست كل شيء، وليست الميزة الكبرى في شعره.

([٢٩٨]) الأصمع: الذكي، وبهذا سمي الأصمعي.

([٢٩٩]) البيان والتبيين ٣: ٤، ٣٥٣.

([٣٠٠]) الشعر والشعراء ٨٦٣/٢.

([٣٠١]) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.

([٣٠٢]) البيان والتبيين ٥١/١.

([٣٠٣]) تاريخ آداب اللغة العربية ٣٩٦/٢.

وهذا نجيب البهبيتي يضعه ضمن الشعراء المحافظين، ويقول فيه وصف هذه المدرسة: "وهي لا تتكلف الصور ولا تسرف في طلب البديع" [٣٠٤].

وأنا معه بأن العتابي لم يسرف في طلب البديع مع قدرته على ذلك، لكني لست أوافقه في أنه لا يصنع الصور، بل إنه يسعى وراءها جاهداً، فضلاً عن امتيازه عن مدرسة المحافظين بالخوض وراء المعاني وتوليد الأفكار وخضوع شعره للميزان العقلي والنفسي معاً.

أما الدكتور شوقي ضيف فقد صنفه في شعراء المعتزلة، وأظن الدكتور اعتمد على الاتهام الموجه إليه بالاعتزال، ثم اعتمد على الناحية العقلية الموجودة في شعر العتابي، لكن وجود الناحية العقلية والأفكار المرتبة عند العتابي لايدل على اعتزاليته، إلا إذا وجدنا أفكاراً مطابقة لأفكار المعتزلة، وهذا الذي لم نعثر عليه.

وهناك قسم من النقاد وضعه ضمن الرواد في فن البديع، وقد شارك في هذا الحكم عدد من النقاد القدامى ومنهم الجاحظ فهو يقول [٣٠٥]:

"وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع".

ثم جاء من بعده الدكتور ناصر نحلاوي وجعله مشاركاً لمسلم بن الوليد في رئاسة مدرسة البديع حيث يقول [٣٠٦]: "رأس هذه المدرسة يتنازعه اثنان: العتابي ومسلم".

ونحن من دراستنا لشعر العتابي لا نجد هذه الميزة عنده في كل شعره، لكن هذه الميزة اقتصر وضوحها وتجسدت في نوع واحد من أغراضه وهو الوصف، بل في قصيدة واحدة هي وصفه السماء والمطر التي تحدثنا عنها في أغراضه.

وبديعه في قصيدة واحدة وفي غرض واحد لا يحكم له بأنه رائد في هذا الفن.

إن كل هذه الأمور لها ملامح بارزة في شعر العتابي، وهي تدل على قدرته وتشعب فنونه، لكنها ليست القمة لمميزاته، ولا أجادل بل لا أنكر قدرته على إجادة هذه الملامح.

ومن اختلاف النقاد في الحكم على فنه تستدل على تشعب اهتمامه بشعره، لكن لا نستطيع الحكم على فنه حتى نقف على شعره ونقوم بعرضه عرضاً موضوعياً، ونناقش بعض الجوانب حتى تظهر لنا خصائص بارزة في شعره.

الألفاظ والأساليب:

بناء القصدية:

ولشعره مميزات أخرى كثيرة ترى واضحة في شعره، فمنها التركيز والإيجاز مما داعاه إلى أن ينهج اتباع أسلوب المقطوعات وعدم الإطالة في الأبيات، وهذا الأسلوب له خصائص مهمة، فهو يتطلب قدرة على اللغة وعبارة موجزة والإحاطة بجميع الصفات الطيبة، وهو بهذه القلة في عدد أبياته يحصر المعنى الجيد في بيت أو أبيات قليلة، مما يجعلها سريعة التداول سهلة الحفظ تجري مجرى الأمثال.

([٣٠٤]) تاريخ الشعر العربي ٤٧٢.

([٣٠٥]) البيان والتبيين ٥١/١.

([٣٠٦]) مجلة المريد ٣٧٩.

إني بلـــوت النـــاس في حـــالاتهم وخبرت ما وصلوا مـــن الأســـباب

فـــإذا القرابـــة لا تقـــرِّب قاطعـــاً وإذا المـــودة أقـــرب الأنســـاب

كما امتاز بسعة الإطلاع والثقافة، فهو العالم بالعربية العالم بالثقافة الفارسية، مما سهل عليه تتبع المعـــاني ومنطقة الأفكار، ومما جعل العتابي من العلماء الشعراء فهو يركز معانيـــه ذات الكثافـــة والعمـــق في أبيـــات معدودات فعتابه للمأمون لم يتجاوز ثلاثة أبيات، وبهذا:

١ – نحن نبدأ بمناقشته لاختيار ألفاظه، فنحن حينما نمعن النظر في كلماته نجدها مختارة، فيضع اللفظ الأفضـــل والكلمة الموحية في المكان الذي لا يصلح له غيرها، فتعطي إيحاءً نفسياً ومعنوياً، فانظر إلى قوله:

ماذا شجاكِ بحُـــوَّارين مـــن طلـــلٍ ودمنةٍ كشـــفتْ عنـــها الأعاصـــيرُ

فأنت معي إلى ما توحيه كلمة "شجاك" وما فيها من الحزن الذي يبدو ظاهراً في الوجه، والألم الـــذي يفطر الأحشاء، ويبدو أثرها أكثر وضوحاً وإيحاء بعد أن وقعت بعد الاستفهام.

ثم في كلمة "كشفت" التي توحي برفع الستار، فتواجه الشاعر وجهاً لوجه، فتصدم بعواطفه وأحاسيسه. وفي قوله:

في ناظريّ انقباضٌ عـــن جُفوُنهمـــا وفي الجُفُون عن الآمـــاق تقصـــيرُ

فانظر إلى كلمة "انقباض" وتصويرها الرائع لحالته النفسية وكآبته التي تسوده، فهو لا يقدم على شـــيء، ولا يأمل في شيء.

وانظر إلى قوله في الرد على زوجته حين لامته في انزوائه وعدم ملاحقة الأمراء والاستنجاد بهم:

دعـــيني تجـــئني ميـــتتي مطمئـــة ولم أتجشم هـــول تلـــك المـــواردِ

فلاحظ قوله: "أتجشم" فإنها تفيد بأن الأمر صعب محفوف بالمخاطر.

وانظر إلى قوله:

فأنزلَ بي هجرانُك اليأسَ بَعـــدْمـــا حللتُ بوادٍ منكَ رحب المشـــاربِ

وبالذات كلمة "رحب " وما توحيه من حالة نفسية توحي بالراحة والاطمئنان، فليس هناك راد ولا مانع ولا قارع ولا مزاحم، بل الترحيب والبشاشة.

وانظر إلى كلمة "أكاتم" في قوله:

أكـــاتم لوعـــات الهـــوى ويبينـــها تحلل ماء الشـــوق بـــين جفـــوني

فكلمة "أكاتم" توحي بالإخفاء الشديد عن كل واحد، والإتيان بها على صيغة المضارع يوحي أيضاً بأنه يخرج عن طوره بعض الأحيان، لكن سرعان ما يعود للكَتْم والإخفاء. ولو تتبعنا ذلك في أبياته لطالعتنا ألفاظ كثيرة ذات معان موحية دقيقة.

٢ – ومن السمات البارزة في أسلوب العتابي اختيار الألفاظ الغريبة، وهذا يطالعنا كثيراً في شعره، وخاصة في الألفاظ التي تحتاج منه إلى كد ذهن وتعمق في الفكرة،كالمدح والاعتذار والوصف وغيرها. ولعل هـــذه الظاهرة التي نلحظها في شعره نتجت عن اختلاطه بأعراب البادية ومخالطته لسكان الحاضرة، مما جعـــل

عنده ثروة لغوية تمكنه من استعمال الألفاظ التي تندر إلا عنده، والتي نحتاج في فهمها إلى مطالعة أكثر من معجم لغوي، انظر إلى قوله:

ومِنْ فوق أكوار[٣٠٧]المُهارَى[٣٠٨]لُبَانةٌ أُحِلَّ لها أكْلُ الذُرَى

فأنت في حاجة إلى المعاجم في أكثر ألفاظ البيت، فأكوار، والمهارى، ولبانة، والذرى، والغوارب، كل هذه الكلمات تحتاج إلى الرجوع للمعاجم لنعرف معانيها، وربما تظل حيراناً أمام كلمة واحدة فيواجهك لها معان كثيرة كقوله: "لبانة" فهل هي الحاجة من غير فاقة؟ أو هي الشد على المطية؟

وثروته من الكلمات الغريبة كثيرة من ذلك قوله:

نادتك أرحامُنا التي نَمُتُّ بها[٣١٢] كماتنادى جِلادَ [٣١٣]الجِلّة [٣١٤]

فأغلب الظن أن أكثر معاصريه ممن عاشوا في الحاضرة لا يعرف معنى جلاد الجلة والخور، وهذه الكلمات يأتي بها في أكثر أغراضه حتى الغزل، فهو يقول:

بلادٌ تَشَتَّاها [٣١٦]الوحوشُ وترتَعي قِوَاماً من البُهْمى[٣١٧]وجَأْراً[٣١٨]

فالبهمى وجأر، ومدعدعا، ألفاظ غير مألوفة وليست بكثيرة الاستعمال. وفي الوصف يأتي بالألفاظ الغريبة كقوله:

فالرعدُ صهصلقٌ [٣٢٠] والريح والبرقُ مؤتلقٌ، والماءُ منبعقٌ

وهكذا فإنه يأتي بالألفاظ الغريبة والتي تكاد تهجر في عصره، والمتأمل في تلك الألفاظ التي أمامنا يدرك أن مصادرها الحياة البدوية وصحبة الإبل، فهو أكثر معرفة بها، ومن هنا استمد صوره منها.

– ومن الظواهر الأخرى في أساليبه تقديم الجار والمجرور على الفاعل والمفعول به لهدف بلاغي، وذلك

---

(٣٠٧) أكوار جمع كور وهو الرجل.

(٣٠٨) المهارى: نوع من الإبل عرفت بقوتها وصلابتها.

(٣٠٩) لبانة: الحاجة من غير فاقة.

(٣١٠) الذرى: جمع ذروة وهي سنام الإبل.

(٣١١) الغوارب: ما بين الذروة والعنق.

(٣١٢) نمت: العرق والأصل الذي يصلنا بكم.

(٣١٣) الجلاد: النوق والأصل الذي يصلنا بكم.

(٣١٤) الجلة: السمان من الإبل.

(٣١٥) الخور: جمع خوارة وهي الناقة الغزيرة اللبن.

(٣١٦) تشتاها: تقضي فصل الشتاء فيها.

(٣١٧) البهمى:نبات يشبه الشعير.

(٣١٨) جأر: الجأر من النبات المرتفع والغض الريان.

(٣١٩) مدعدعاً: من دعدع الشيء ملأه.

(٣٢٠) صهصلق: الصوت الشديد

قوله:

فتى ظَفُــرت منــه الليــالي بزلــةٍ فــأقْلَعْنَ عنــه داميــاتِ المخالــبِ

فأنت تراه قدم الجار والمجرور "منه" على الفاعل الليالي إيحاءً بالهزيمة أمام الليالي. وقوله:

هي النفسُ مَحْبوسٌ عليكَ رجَاؤها مُقَيــدةُ الآمــالِ دون المطالــب

فقد قدم الجار والمجرور وهو ضمير المخاطب على نائب الفاعل في قوله: "محبوس عنك رجاؤها"، ففيه من البلاغة القصر، فالرجاء مقصور على الممدوح لا يتعداه إلى سواه لأنه هو الملجأ والمعتصم.

ثم قدم الجار والمجرور على اسم كان:

إن كان منّــا ذَوُو إفــكٍ ومارقــة وعصبةٌ[٣٢١] دينُها العُدوانُ والــزّورُ

بل تجاوز ذلك وقدم الجار والمجرور على متعلقه وعلى الجملة الفعلية كلها حيث يقول:

وقد رددت الذي بــه أتقــي النــا س وأبــرزتُ للزمــان سَــوَادي

فقد قدم "به" على الجملة الفعلية "أتقي الناس"كما تلاحظ أنه قدم الجار والمجرور "للزمان" على المفعول به "سوادي".

وفي أشعاره الشيء الكثير من هذه الظاهرة مما دعانا أن نجعلها من سمات أسلوبه.

– ومن السمات الأخرى في أسلوب العتابي استعماله الفعل المضارع، وهو استعمال بلاغي لــه دلالتــه الواضحة، حيث يتجدد ويتكرر المعنى الذي يقصده، بل وتستديم الحال الذي هو فيه كقوله:

أتصــدى الــردى وأدرع اللــي ل بهوجــاءٍ فوقهــا أقتــادي

ألا ترى أنه يتكرر هذا التصدي للردى، كما يتجدد ادّراعه لليالي، وذلك بفضل إتيانه بهما على صيغتي المضارع: "أتصدى، أدرع ".

وانظر إلى قوله:

أظلُّ ومرعــاي الجــديب مكانــه وآوى إلى حافات أكــدر ناضــبِ

فأتى بأظل فعل مضارع، وآوى فعل مضارع، وكل تفيد التكرار على هذه الحالة البائسة.

وقوله أيضاً:

وتحت ثيابي الصبر منّي ابن لوعــةٍ يظلُّ ويمســي مســتلين الجوانــبِ

فانظر كيف كرر الفعل المضارع وهما متتاليان "يظل ويمسي " ليدلا على تجدد هذه الحالة.

ونلمح في البيتين السابقين طول الجملة، وهذا يكثر عند العتابي لأن معانيه عميقة وكثيفة تحتاج إلى ألفاظ كثيرة تجليها وفي الجانب الآخر نجد عنده الجملة القصيرة لكنها تبدون متناسقة متناغمة.

---

(٣٢١) عصبة: عصبة الرجل قومه اجتمعوا وأحاطوا به.

الصور والأخيلة:

ومن الظواهر المهمة عند العتابى التصوير، والتصوير هذا يعتمد على صياغة الأفكار والمعاني بأسلوب يقوم على إثارة الانفعال ولفت انتباه المتلقي إلى موقف من المواقف، ثم يكون تقديم المعنى بطريقة حسية، وهو ما يسمى بالتجسيم،فإذا ما ظهر لك المعنى أو الفكرة في حالة حركة أو صورة حسية مؤثرة متلونة أمامك تتفاعل معها وتبقى معالمها في مخيلتك، ودائما كان هذا هو التصوير الحركي المقصود وهو الأكثر عند العتابي كقوله يهجو البرامكة:

إنَّ البرامكَ لا تنفكُّ أنجيةً ... بصفحة الدين من نجواهم ندبُ

تجرمت حججٌ منهم ومنصلهم ... مضرجٌ بدم الإسلام مختضبُ

ففي هذين البيتين صور بارزة واضحة منها:

١ – صور البرامكة وهم يتناجون بل لا ينفكون عن هذه المناجاة، فهي صورة حركية مسرحية.

٢– صورة الدين وقد تحول إلى صفحة بارزة حفرت النجوى فيها ندوبا غائرة مظلمة، ولعلنا لو بالغنا في خيالنا أو سايرناه في خياله لرأينا صفحة بيضاء ناصعة، وقد غارت فيها ندوب سوداء شوهاء، فيصبح أمامنا أوقع في النفس، وأقوى على تحريك مشاعر الحقد على هؤلاء الذين شوهوا هذه الصفحة بهذه الندوب.

٣ – الصور التالية وهي صورة غريبة عجيبة واضحة ناصعة هي صورة البرامكة يقدمون في يسراهم حججا على إخلاصهم للإسلام وفي يمناهم سيف تضرج بدم الإسلام يقطر بالدماء الحمراء.

أرأيت أروع من هذه الصورة الشعرية لدحض حجة الخصيم.. أية حجة.. وهل تبقى للناظر إلا هذه الصورة؟.. عن البرامكة.

ولنتابع استخراج الصور والأساليب البديعة من شعره حتى نكون على بينة من أمره، ويكون حكمنا عليه واقعيا، وقد قال في مدح الرشيد:

إمامٌ له كف تضم بنانُها ... عصا الدين ممنوعا من البري عودُها

وعينٌ محيط بالبرية طرفُها ... سواء عليها قربُها وبعيدُها

وقال فيه:

رعى أمة الإسلام فهو إمامها ... وأدى إليها الحق فهو أمينها

مقيم بمستن الفلا حيث تلتقي ... طوارق أبكار الخطوب ووعوثها

انظر إليه كيف يصور الرشيد في بيته الأول وهو يمسك في يده عصا(الدين) المثقفة من الله، فإن الرشيد لم يبرِها هو ولا غيره، وإنما براها المولى عز وجل.

إذن فالصورة صورة راعٍ يمسك بيده العصا، وهذا فيه معنى إسلامي أيضاً " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته "، فإن هذا المعنى سيتبادر إلى أذهاننا فوراً، وهي في الحقيقة صورة صادقة مطابقة للواقع، ولكنها قديمة

تداولها الخطباء الشعراء قبله.

والصور في البيت الثاني متممة للمعنى الأول ومكملة لجزئياته الضرورية، فالعين المحيطة بالبرية قريبها وبعيدها هي عين الراعي والحارس المترقب.

ولعلنا نلاحظ تصويره للناحية الإدارية والتنظيمية في هذا الدولة المترامية والأطراف التي تكون (عين) الخليفة محيطة بأقاصيها وأدانيها بالمراقبة ومعرفة الحوادث فيها وإدراكه لما يحدث فيها، عن طريق أعوانه ومراقبيه وأمرائه وعماله، ولكن البيت يحمل شيئاً من مبالغة الشعراء في وصفه عين الخليفة بالإحاطة بالبرية كلها، وتساوى القريب والبعيد عنده في الإطالة.. وهذا الوصف لا ينطبق ولا يجوز إلا لله سبحانه، فهو المحيط العالم الخبير. وفي قوله:

مقيم بمستن الفلا حيث تلتقي طوارق أبكار الخطوب وعونها

انظر إليه كيف جسم الخطوب والأهوال ورسمها لنا في صورة حسية مرئية متحركة، حيث صور عقلية الرشيد الكبيرة وما تستقبله من نتائج القضايا والخطوب والأهوال بالفلاة الواسعة، حيث تلتقي فيها صغار الإبل مع عونها وكبارها. ثم انظر إلى هذه الصورة المتحركة:

حظ عيني من الكرى خفقات بين سرحى ومنحنى أعوادي

ألا تلاحظ هذه الخفقات النعاسية على سرح الناقة السائرة المهتزة؛ فتتلاءم الصورة ويبدو المشهد واضحا متناسقا بين حركات الناقة الاهتزازية وبين خفقات الناعس المشابهة، وهي صورة جميلة معبرة ذات دلالة توحي بكثرة الأسفار وتواصلها.

وهو يصور المعنى المعنوي بصورة المحسوس فيقول:

فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمّله الناظر

لمثلته لك حتى تراه لتعلم أني امرؤٌ شاكر

ومن أروع الصور عنده قوله:

سحبت له ذيل السرى وهو لابس دجى الليل حتى مج ضوء الكواكب

ففيه تصوير رائع وخيال جميل، لكنه مصنّع ومرتب لا يتأتى عفوا، يريد الشاعر أن يقول: إنني سافرت ليلا فيكني عن ذلك بقوله: (سحبت له ذيل السرى) فالسرى له ذيل.. وليس هذا الذيل هو الذي يسحبنا إليه، ولكن نحن الذين نسحبه إلينا ليغطينا ويسترنا بسواده.. ومع ذلك ليس المبهر في هذا السرى المظلم ثوبا حالكا من سواد لونه، ولم يعد يستسغ نورا ولو ضئيلا فمج ضوء الكواكب.. وكأن ضوءها ماء يمج من الفم، وهي صورة غريبة نوعا ما، وفي هذا البيت وحده ثلاث صور متراكبة متداخلة، وهذا لا يتأتى إلا بالصنعة.

ومن الوسائل المتبعة للتصوير عن العتابى التشبيه، وهو يفيد الغيرية، ولا يفيد العينية فلا تتداخل معالمهما أو يتفاعل مع الآخر، بل يظل هذا غير ذلك ومتمايزا عنه، والمظهر العملي لهذا التمايز هو أداة التشبيه، والجامع الوحيد بين الطرفين هو وجه الأشياء المتباعدة، وربما المتنافرة، بحيث يخرج بصلة عقلية أو حسية، فانظر إلى هذه

الأبيات الرائعة في الربط بين السحب والثياب:

والغيم كالثوب في الآفاق منتشر من فوقه طبق من تحته طبق

تظنه مصْمتا لا فتق فيه فإن سالت عواليه قلت: الثوب منفتق

إن معمع الرعد فيه قلت: ينخرق أو لألأ البرق فيه قلت: محترق

تستك من رعده أذن السميع كما تعشى، إذا نظرت، من برقه الحدق

فانظر إلى هذا الربط بين السحاب والثياب، ثم إن هذا التصوير تصوير محسوس بمحسوس، لكن السحاب وحالته مجهولة والأقرب منها الثياب فوق بعضها، لهذا صور السحاب بهذا والثياب حيث وضع صورة متكاملة، ثم بدأ يتدرج معها في اختفائها وتلاشيها، وبهذا تدرك مدى مساهمة التشبيه في روعة الصورة وجمالها.

وانظر إليه كيف يوجد الروابط بين الإنسان والسيف في قوله:

إذا أدرع الليل انجلى وكأنه بقية هندي الحسام المضارب

ألا تلاحظ تصويره لهذا الإنسان ومايلاقيه من نكبات وأهوال وخطوب وتأثيرها فيه ببقية السيف الذي كل من الضرب وتثلم، وتوحي هذه الصورة بقوة العتابى، ومع هذه القوة فإن تلك الحوادث قد أثرت فيه.

وانظر إلى روعة التشبيه في قوله:

إذَا الركائبُ مخسوفٌ نواظرُها كما تضمنت الدهن القوارير

ألا تلاحظ البعد بين الإبل وبين العطر، لكن هل باستطاعتنا إنكار تلك الصورة الجميلة التي رسمها والرابط القوي بين طرفي التشبيه.

(٢)

ومن الظواهر الهامة والكثيرة في أسلوب العتابى استعماله للاستعارة، وهو استعمال يدل على مقدرة الرجل البلاغية وبراعته في الربط بين الأمور، بل إنه أجاد فيها إجادة تامة ومن ذلك:

أطفئ الحزن بالدموع إذا ما حُمَّةُ الشوقِ أثرت في فؤادي

فاستعارة الحمة للحرارة، وهو يعطي الصورة قوة وتأثيرا في السامع وفي قوله:

خاشع الطرف قد توشحني الضر رفلانت له قناة قيادي

فالاستعارة في (توشحني الضر)

ثم نلاحظ الاستعارة اللطيفة والتورية الخفية في قوله:

شجاك حتى ضمير القلب مشترك والعين إنسانها بالماء مغمور

ألا تلاحظ أنه استعار الماء للدمع استعارة لطيفة ليصور الغرق – غرق الإنسان- وهو يقصد بؤبؤ العين لا البشر من الناس، فقد استعمل هنا التورية، وأتى بكلمة الماء بدل الدمع ليزيد في خفاء التورية.

ثم إن (الضمير المستور في القلب) في الشطر الأول يتناسق في الخفاء والستر مع إنسان العين (المغمور) بالماء... فهذا نوع من بلاغة الكلام في تناسق الصور وأخذ بعضها برقاب بعض.. فالضمير المستور كالإنسان المغمور.

وهو يستعير الثوب لليل في قوله:

إذا أدرع الليـــل انجلـــى وكأنـــه بقيـــة هنـــدي الحســـام المضـــارب

وفي قوله:

إني امرؤ هـــدم الإقتـــار مـــأثرتي واجتاح ما أبدت الأيام من خطـــري

فقد شبه الإقتار برجل بقرينة (يهدم)، وقد حذف المشبه به على طريقة الاستعارة المكنية.

وفي قوله:

أتصـــدى الـــردى وأدرع الليـــل بهوجـــــاءٍ فوقهـــــا أقتـــــادي

استعارات تبعية في " أتصدى وأدرع " والصورة واضحة وعنيفة نسمع قرقعتها وهي تصطدم به، حديد على حديد، والصورة هنا سمعية أكثر منها بصرية ثم تأتي الصورة البصرية " في الليل " والهوجـــاء " لتكمـــل المشهد.

(٣)

ومن السمات الواضحة في أسلوبه استعماله للكناية، فانظر إلى روعة الكناية عن الناقة التي يمتطيها:

لو رأتـــني بـــذي المحـــارة فـــردا وذراع ابنـــة الفـــلاة وســـادي

فإن هذه الكناية أوحت لنا بمراس هذه الناقة للصحراء حتى أصبحت تحبها وتألفها كأنها الأم، وهو يأتي بالكناية متعددة في البيت الواحد كقوله:

في ناظريّ انقباضٌ عـــن جفُونهمـــا وفي الجُفُون عـــن الآمـــاق تقصـــيرُ

فالشطر الأول كناية عن الحزن والبؤس، وفي الشطر الثاني كناية عن الأرق والقلق. وهو يتابع الإتيـــان بالكناية عن حالته ومعاناة الذل والحزن كقولها:

خاشع الطرف قد توشحني الضـــر ر فلانـــت لـــه قنـــاة قيـــادي

وكقوله:

ترب بؤس أخـــا همـــوم كـــأن ال حـــزن والبـــؤس وافيـــاً مـــيلادي

وصف حالته بالبؤس حيث استعمل كنايتين هم " ترب بؤس" وأخا هموم "، فيصور الحزن والبؤس وقد حضرا ميلاده منذ اليوم الأول.

والمتتبع لهذه الخاصة في أسلوبه يجدها بكثرة وخاصة حينما يحاول وصف نفسه بما يعانيه من الشقاء والبؤس.

(٤)

وأظهر الخصائص التعبيرية الفنية عند العتابي هي ظاهرة البديع، فقد أكثر فيه وتعدد أنواعه، وقد وضعه الدكتور أحمد إبراهيم موسى بعد بشار بن برد، لكنه أشار بأن العتابي أكثر طبقته في البديع " فقد كان أكثر هذه الفئة بديعا " [٣٢٢].

١- فقد أكثر من الطباق ومن ذلك:

أرقتُ للبرقِ يخفي ثم يأتلق يُخفيه طورا ويبديه لنا الأفق

فطابق بين الإخفاء و الائتلاق وبين يخفيه ويبديه.

ومن ذلك:

والغيمُ كالثوبِ في الآفاق منتشرٌ من فوقه طبقٌ من تحته طبق

طابق من فوق وتحت.

و من ذلك قوله:

تَلومُ على تركِ الغِنَى باهليّةٌ زوى الفقر عنها كل طرفٍ وتالدِ

حيث طابق بين الغني والفقير وبين الحديث والقديم في بيت واحد.

ومن ذلك قوله:

ولكنه ساكن في الضميرِ يحركه الكلمُ السائر

حيث طابق بين الساكن والمتحرك.

ومن الجناس عند العتابي قوله:

فإذا ما هبت ذا أملٍ مات ما أملت من سببه

جانس بين أمل وأملت.

ومنه قوله:

إنْ معمعَ الرعدُ فيه قلت: ينخرق أو لألأ البرق فيه قلت: يحترقُ

فجانس جناساً ناقصاً بين ينخرق ويحترق.

ومن مبالغاته:

ما زلتُ في غمرات الموت مطرحا يضيق عني فسيح الرأي من حيلي

فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

ومن هذه المبالغة:

إنَّ الصَّبابةَ لم تدع مني سوى عظم مبرّى

---

(٣٢٢) الصبغ البديعي في اللغة العربية ٦٨.

ومن علم البديع الطي والنشر في قوله:

في ناظريّ انقباضٌ عن جُفُونَهما ... وفي الجُفُونِ عن الآماق تقصير

حيث جعل كلمتي (جفونهما والجفون) بجانب بعضها ووضع بجانبهما كلمتي (انقباض تقصير).

وهو يستعمل المجاز، وقد أعجب النقاد القدامى بذلك ومنه قوله[٣٢٣]:

يا ليلة لي بجُوارين ساهرة ... حتى تكلم في الصبحِ العصافيرُ

فقال في هذا البيت ابن رشيق: " فجعل الليلة ساهرة على المجاز إنما يسهر فيها، وجعل للعصافير كلاما ولا كلام لها على الحقيقة " وإنما دلالة أصواتها يوحي بالتطريب والابتهاج.

الموسيقي عند العتابي

ازدهرت الموسيقى وكثرت الأصوات لها في العصر العباسي حتى أصبح الناس يتهادونها ويفتخرون بها، وانتقلت من الحجاز إلي الكوفة والبصرة ثم بغداد، وتفنن فيها إسحاق الموصلي و ابنه إبراهيم وغيرهما كثيراً.

وقد أكثر العباسيون من الأوزان الخفيفة في شعرهم، بل قاموا بتجزئة الأوزان الطويلة المعقدة. ثم إنهم اكتشفوا أوزاناً جديدة هي المضارع والمقتضب والمتدارك

والعتابي نشأ في هذه البيئة ولابد أن يتأثر بها ويخضع لها، ولكن لا نستطيع أن ننكر بداوة العتابي وقبيلته وأثرها في شعره واحتفاظه بالموسيقى العربية الأصيلة وقوتها وإطالتها وضخامتها، فهو لا يطرق الأوزان الخفيفة إلا نادراً وذلك في مثل قوله:

يا صاحباً متلوناً ... متباينـاً فعلي وفعلُهْ

ما إنْ أحبُّ لـه الـرّدى ... وَيسُرَّني واللهِ وعزلهْ

فهذه القطعة تهكم وسخرية؛ لذا أحب أن تكون خفيفة الوزن، مكونة من تفعيلتين، ومن ثم تكون نبراته متوازنة ذات أثر فكاهي.

و انظر إلى الموسيقى الهادئة الرقيقة التي ينساب معها القلب، وفيها التناسق في النغم والضرب على وتر القلب:

رُسُل الضَّمير إليك تَتْرَى ... بالشّوق طالعة وحسرى

متزجِّياتٍ ما يَنِيْنَ ... على الوجَى من بُعْدِ مسْرى

ما جَفّ للعينِ بَعْ ... دك يا قريرَ العينِ مَجرى

ثم إن المغنين أعجبوا بأبياته:

فلو كان للشكرِ شخصٌ يب ... ينُ إذا ما تأمّلَه النّاظرُ

---

(٣٢٣) العمدة لابن رشيق ٢٦٧/١.

لمثَّلتُـــه لـــك حتَّـــى تـــراه لِـــتعلم أنِّـــي إمـــرؤٌ شـــاكرُ

غناها أبو العبيس، كما وضع رذاذ لهما لحناً أعجب أهل عصره، وغطى على محسن أبي العبيس.

ثم هو يطرق البحور الطويلة في اعتذاره، ويأتي بالمقاطع الدالة على الحسرة والحزن والألم، وأتى بالقافية حرف الباء والمجرورة لتدل على الأثر الأكبر للحزن.

جعلتُ رجاء العفو عُذراً وشـبْتَه بهيبـةِ إمـا غـافرٍ أو معاتـبِ

وكنْتُ إذا ما خفتُ حادثَ نبـوةٍ جَعَلْتُكَ حِصْناً من حِـذَارِ النوائـبِ

فأنزلَ بي هجرانُك اليأسَ بَعد مـا حللتُ بوادٍ منكَ رحب المشـاربِ

ثم نراه عندما يتحدث عن حالته النفسية يكرر القافية بالياء لتدل على الحزن أيضاً كما أتى بها مكسورة:

لو رأتني بـذي المُحـارةِ فـرداً وذراع ابنـة الفـلاة وسـادي

أطفئ الحـزن بالـدموع إذا مـا حُمَّةُ الشـوقِ أثـرت في فـؤادي

وأنت تراه أتى بمقطوعات قليلة على الأوزان الخفيفة القصيرة، وذلك عائد إلى العتابي ذاته، فهو بدوي، وهو أيضاً عالم من العلماء يتأثر بالفكرة ويحييها ويفضلها ثم لم يطرق أبواب الطرب والمرح والمـزاح واللـهو كثيراً حتى يقول فيها مثل هذه الأوزان المناسبة لها.

الخيال عند العتابي

إن الخيال له دوره الفعال في قيمة الأدب بوجه عام والشعر بوجه خاص وإن كان هذا الخيال يتكون من المشاهد والانطباعات القديمة والحديثة، والخيال عند العتابي يمتاز بالأمور التالية:

امتاز خيال العتابي بأنه بدوي، فهو كثيراً ما يطرق الصور البدوية فمثلا يتكلم عـن الراعـي والرعيـة فيقول:

إمامٌ لـه كـفٌّ تضـمُ بنانُهـا عصا الدين ممنوعاً من البَرْي عودُهـا

وعـينٌ محـيطٌ بالبريَّـةِ طرفُهـا سـواءٌ عليهـا قُربهـا وبَعِيـدُها

طرق الخيال المؤلف الذي يؤلف بين مناظر مختلفة حيث يستدعي صوراً أخرى مماثلة لتلك الصور:

والغيمُ كالثوب في الآفاقِ منتشـرٌ من فوقه طبـقٌ مـن تحتـه طبـقُ

تظنّهُ مُصمتاً لا فتـقَ فيـه فـإنْ سالتْ عواليه قلت: الثوب منفتـقُ

إنْ معمع الرعدُ فيه قلت منخـرق أو لألأ البرق فيـه قلـت محتـرق

ثم إن خياله يدخل الشعور الحسي بين الأشياء التي لا تحس ولا تعقل حتى تزداد الصورة وتـؤثر علـى

الإنسان، فانظر إليه كيف يخاطب الفرقدين [٣٢٤]:

قلت للفرقـــدين والليـــل مُلْـــقٍ سُـــودَ أكنافِـــه علـــى الآفـــاقِ

ابْقَيَا مَـــا اســـتطعتما فســـيُرمى بين شخصـــيكما بسَـــهْمِ الفِـــراق

والخيال يجب أن يكون معتدلا لا جنوح فيه إلى حد المبالغة، وإنما يطعم بما يقرب إلى الواقع، لكن العتابي شطح إلى الخيال المبالغ فيه في قوله:

أكاتم لوعـــات الهـــوى ويبينـــها تحلل مـــاء الشـــوق بـــين جفـــوني

فكيف لماء الشوق أن يتحلل بين الجفون؟

وقوله أيضاً:

أجد ولَّمـــا يجمـــع الليـــل شملـــه فما حل إلا وهـــو ورد الغـــوارب

وفي الختام نجد الخيال له دوره الفعال في استجلاب الصورة والتجسيد، والذي يمنع العتابي مـــن المبالغـــة والإسراف فيه تلك العقلية المنطقية الخاضعة للواقع.

([٣٢٤]) التمثيل والمحاضرة ٨٥، زهر الآداب ٦٧٧/٣.

آراء النقاد في شعره

العتابي رجل عالم شاعر له مكانته في العصر العباسي، وقد اشتهر ببلاغته في شعره، لذا تحدث عنه الكثير من العلماء والأدباء وكان ذلك بمثابة شهادة حازها العتابي، فقد تحدث عنه ابن قتيبة ذلك الرجل الذي اهتم بالقديم وآثره، وذكر في مقدمة كتابه بأنه لا يتحدث إلا عن المشهورين، إذا فإتيانه بالعتابي شهادة له بأنه من المشهورين فقال فيه: "وكان شاعراً محسناً [٣٢٥] "

وقال عنه الجاحظ [٣٢٦]:

" كان العتابي ممن اجتمع له الخطابة، والبيان، والشعر الجيد والرسائل الفاخرة، وعلى ألفاظه وحذوه يقول البديع جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين، كنحو منصور النمري، ومسلم بن الوليد وأشباههما، وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع ".

وقد روي ابن المعتز عن أبي صاعد قوله [٣٢٧]: " وكان العتابي مجيداً مقتدراً على قول الشعر ".

كما روى ابن المعتز عن جعفر المالكي قوله [٣٢٨]: " وما رأيت كاتباً تقلد الشعر مع الكتابة إلا وجدته ضعيف الشعر غيره، فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام ".

وقال عنه ابن المعتز [٣٢٩]:" وأشعار العتابي كلها عيون ليس فيها بيت ساقط ".

وقال عنه الأصبهاني [٣٣٠]:" شاعر... متصرف في فنون الشعر مقدم ".

وقال عنه ياقوت الحموي في معجم الأدباء [٣٣١]:" وكان حسن الاعتذار في رسائله، وشعره يشبه في المحدثين بالنابغة في الجاهلية ".

وقال عنه البغدادي [٣٣٢]:" وكان خطيباً بليغاً مجيداً ".

وقال عنه ابن خلكان [٣٣٣]:"وكان شاعراً بليغاً مجيداً مدح هارون الرشيد وغيره".

وقد روى المرزباني ما قاله يحيى في رسالة بعث بها إلى علي بن عيسى قال [٣٣٤]:"ما أهّل نفسه العتابي قط لتقديمها على العباس بن الأحنف في الشعر، ولو خاطبه بذلك مخاطب لدفعه وأنكره، لأنه كان عالماً لا يؤتى من معرفة بالشعر، و لم أر أحداً من العلماء بالشعر قط مثل العباس والعتابي، فضلاً عن تقديم العتابي عليه،

([٣٢٥]) الشعر والشعراء ٨٦٣/٢.

([٣٢٦]) البيان والتبيين ٨٦٣/١.

([٣٢٧]) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.

([٣٢٨]) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.

([٣٢٩]) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٤.

([٣٣٠]) الأغاني ١٠٩/١٣.

([٣٣١]) معجم الأدباء ٦/ ٢١٣.

([٣٣٢]) تاريخ بغداد: ١٢/ ٤٨٨.

([٣٣٣]) وفيات الأعيان: ٤ /٢٢.

([٣٣٤]) الموشح: ٢٦٥.

لتباينهما في المذهب. وذلك أن العتابي متكلف، والعباس يتدفق طبعاً، وكلام هذا سهل عذب، وكلام ذلك متقعد كز، ولشعر هذا ماء ورقة وحلاوة، وفي شعر ذلك غلظ وجسارة، وشعر هذا في فن واحد _ وهو الغزل _ فأكثر فيه وأحسن، وقد أفتن العتابي فلم يخرج في شيء منه عما وصفناه ".

وقال عنه المسعودي [٣٣٥]: "كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان وجودة الحفظ الأخير وصحة القريحة على ما لم يكن لكثير من الناس في عصره مثله".

وقال عنه صاحب معجم الشعراء [٣٣٦]: "شاعر مجيد مقتدر على قول الشعر".

وقال القيرواني عنه [٣٣٧]: "وكان صاحب بديهة في المنظوم".

وقال عنه صاحب فوات الوفيات [٣٣٨]: "وكان حسن الاعتذار في رسائله وشعره ".

وقد تحدث النقاد المعاصرون عنه فقال جرجي زيدان، وقد صنفه ضمن الشعراء الذين لم يتحضروا فقال [٣٣٩]: "كان حسن الاعتذار في شعره".

أما الدكتور شوقي ضيف فقد ضمنه في شعراء المعتزلة وقال عنه [٣٤٠]:"كان العتابي ولا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعاني محتالاً لذلك متلطفاً له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية، وقد ظل الناس يفتنون بشعره وهو يعرض عليهم مبتكراته في معانيه".

و قال عنه الدكتور مصطفى الشكعة [٣٤١]:"وخلاصة القول في العتابي أنه أكثر شعراء الفترة العباسية ثقافة ومن أخصبهم شاعرية، فحين اجتمعت هاتان الخصلتان تفجرتا عن صيغة جديدة من الشعر العربي جمعت بين عمق الفكرة وجلالها ورقة الصيغة وجمالها، مع أخذ بأسباب الصنعة البديعية حيناً ما، فكانت هذه جميعاً الظاهرة العتابية الشعرية التي أهدت إلى الأدب العربي فيما بعد الشاعر الفذ أبا تمام الطائي الذي نعتبره تلميذاً مخلصاً لمدرسة العتابي".

وقال عنه نجيب محمد البهبيتي[٣٤٢]:" وأهم ما يربط بينه وبين مروان هو طلبه المعاني، وتوفيقه فيها، وعدم اهتمامه بالبديع والصورة، إلا إذا جاءاه طوعاً على غير استكراه، يشبه في ذلك المطبوعين، ويقارب فيه أصحاب المدرسة القديمة، هذا مع قوة أسر اللفظ، وسلامته فيه، فهما أثر لنشأته القريبة من البادية، ويقرب بينهما كذلك بعد العتابي عن أن يترل بالشعر عن موضوعه، عن المستوى الرفيع. والترول الذي يقارب بينه

([٣٣٥]) مروج الذهب ٤:/١٥.

([٣٣٦]) معجم الشعراء: ٣٥١.

([٣٣٧]) زهر الآداب: ٣/٦٤٧.

([٣٣٨]) فوات الوفيات: ٣/٢١٩.

([٣٣٩]) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٣٩٦.

([٣٤٠]) العصر العباسي الأول ٤٢٥.

([٣٤١]) الشعر والشعراء دكتور مصطفى الشكعة ٥١٩.

([٣٤٢]) تاريخ الشعر العربي: ٤٥٧، ٤٧٦.

وبين كل ألوان حياة عصره، فلم يقل في الخمر، و لم يمجن، فحبس شعره بذلك على الخاصة، وجانب به المحدثين".

وقال عنه خير الدين الزركلي[٣٤٣]:" شاعر مجيد يسلك طريقة النابغة ".

وقال عنه الدكتور أحمد محمد النجار[٣٤٤]:" ثم إن صيته الشعري كان يملأ الأسماع منذ توثقت صلته بالبرامكة، واختص بهم، ثم طارت شهرته فبلغت الرشيد ثم المأمون وطاهر بن الحسين وابنه ما كان يروج من الشعر ببلاط هؤلاء إلا المديح.. "

وقال عنه في موضع آخر [٣٤٥]: "وظل العتابي ينسب إلي البديع، ويكثر منه إكثار الملامة، ويروى عنه الناس أجمل آثاره فيه بفضل ما أتيح له من طبع مهذب، وذوق مصفى وقدرة على التصرف في فنون الشعر".

([٣٤٣]) الأعلام: ٦/ ٨٩.
([٣٤٤]) العتابي: ٤٠.
([٣٤٥]) العتابي:٨٥.

الفصل الثالث

ديوان العتابي ومصادره

لم يجمع شعر العتابي في ديوان، ولكني استطعت أن أجمع كل ما نسب إليه من مختلف المصادر على النحو التالي:

حرف الهمزة

المناسبة:

لما عاد المأمون إلي بغداد العاصمة من مرو زاره العتابي، لكن وقف طويلاً علي الباب قبل أن يؤذن لـه فأرسل إلى المأمون هذه الأبيات[٣٤٦]:

ما على ذلك افْتَرقْنا بسنْدا[٣٤٧] نَ و لا هكذا عَهدْنا الإخاءَ
لم أكنْ أحْسبُ الخلافةَ يزدا دُ بها ذو الصفاء إلاّ صفاءَ
تَضْربُ الناسَ بالمثقفةِ[٣٤٨] على غدرهم وتنسى الوفاءَ

حرف الباء

(١)

المناسبة: قالها يعتذر للرشيد[٣٥٠]:

وأشْعَثَ [٣٥١] مُشْتَاق رَمَى في غَريبُ الكرَى بين الفِجَاج
أماتَ الليالي شَوْقَهُ غيرَ زَفْرةٍ [٣٥٤] تردَّدُ ما بين الحشَا [٣٥٥] والتَّرَائِب
سَحَبْتُ له ذَيْلَ السُّرى وهو لابسٌ دُجى اللّيل حتّى مجَّ [٣٥٧] ضوء
ومِنْ فوق أكوار [٣٥٨] المُهارَى أُحِلَّ لها أكْلُ الذُّرى [٣٦١]

---

(٣٤٦) زهر الآداب ٣/ ٦٧٦ العقد الفريد ١ / ٢٩٠.

(٣٤٧) سندان: المقصود بها سنداد وهي منازل إياد أسفل سواد الكوفة روى العقد (ذاكنا) وروى العقد أيضا بسنداد.

(٣٤٨) الثقفة: الرماح المساوة من أعوجاجها.

(٣٤٩) السمر: صفة تطلق على الرماح.

(٣٥٠) زهر الآداب الليل ٣/٦٧٨، ٦٧٩، كتاب الصناعتين ٣٠٩، الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥١١، ٥١٢.

(٣٥١) الأشعث: المغبر الرأس.

(٣٥٢) الفجاج: الطرق الواسعة بين الجبلين.

(٣٥٣) السباسب: الأرض البعيدة المستوية.

(٣٥٤) زفر: التنفس مع مد النفس.

(٣٥٥) الحشا: ما انضمت عليه الضلوع.

(٣٥٦) الترائب: عظام الصدر.

(٣٥٧) مج: المج هو قذف الماء من الفم ومعناه هنا مل.

(٣٥٨) أكوار: جمع كور وهو الرحل.

وكلُّ فتىً عاداتُــهُ قَصْــرُ شَــوْقِهِ ... وطيُّ الحشى دون الهموم العَــوازب

يُسِر [٣٦٤] الهــوى لم يُبْــدِهِ [٣٦٥] ... صراخاً و لم تَسْمَعْ به أذن صــاحبِ

إذا ادّرع [٣٦٦]الليل انجلى وكأنّــهُ ... بقيةُ هِنْدي الحُسامِ المُضَــاربِ [٣٦٧]

بركْبٍ تَرَى كَسْرَ [٣٦٨] الكــرَى ... وعَهَدَ الليالي في وجــوهٍ مَشَــاحبِ

جَعَلْتُ رجاء العفو عُذراً وشُــبْتُهُ ... بهيبــةِ إمــا غــافرٍ أو مُعَاتــبِ

وَكَنْتُ إذا ما خِفْتُ حادثَ نبــوةٍ ... جَعَلتُكَ حِصْناً مِــنْ حِــذارِ [٣٧٤]

فأنزَلَ بي هجرانك اليأسَ بعد مــا ... حللتُ بوادٍ منــك رَحْــبِ [٣٧٥]

أظلُّ ومَرْعَــايَ الجــديبُ مكانَــهُ ... وآوي إلى حافات أكَــدر ناضــبِ

و لم يثن عن نفي الرَّدى غير أنّهــا ... تنوءُ بباقٍ من رجائك ثائــبِ [٣٧٧]

هي النفسُ مَحْبوسٌ عليكَ رجَاؤها ... مُقَيــدةُ الآمــالِ دون المطالــبِ

وتحت ثياب الصبر منّي ابنُ لَوْعَــةٍ ... يُظلُّ ويُمْسِي مســتلين الجوانــبِ

فتى ظَفُــرت منــه الليــالي بزلــةٍ ... فأقْلَعْنَ عنــه داميــاتِ المخالــبِ

حَنَانَيْكَ إنَّي لم أكنْ بعــتُ عِــزَّةً ... بذُلٍ، وأحرَزتُ المُــنى بالمواهــبِ

فقد سُمتني الهجرانَ حتَّى أذقــتني ... عُقوبةَ زَلاَّتي وسُوءِ منــاقبي. [٣٧٨]

فها أنا مقصى في رضاك وقــابض ... على حدِّ مصــقول الــذُنابين [٣٧٩]

([٣٥٩]) المهارى: مهرة بن حيدان حي وتنسب له إبل تسمى بهذا الاسم.
([٣٦٠]) لبانة: الحاجة من غير فاقة.
([٣٦١]) الذرى: سنام الإبل.
([٣٦٢]) الغوارب: جمع غارب وهو ما بين السنام والعنق.
([٣٦٣]) العوازب: البعيدة.
([٣٦٤]) لم يبده: يكتمه.
([٣٦٥]) أدرع: لبى.
([٣٦٦]) يسره: يكتمه.
([٣٦٧]) المضارب: أي قاتل به صاحبه مرات كثيرة.
([٣٦٨]) كسر: أي انكسار وغلبة نعاس.
([٣٦٩]) الكرى: النوم.
([٣٧٠]) شحب: تغير من التعب.
([٣٧١]) روى صاحب الصناعتين الفيافي بدل الليالي، وشواحب بدل مشاحب.
([٣٧٢]) شبته: خلطته.
([٣٧٣]) النبوة: نبا السيف أي ارتفع عن مكانه و لم يؤثر.
([٣٧٤]) الحذار: هو الاحتزاز.
([٣٧٥]) رحب: واسع.
([٣٧٦]) نضب:غار الماء فقلّ.
([٣٧٧]) ثائب: اجتماع الماء في الحوض.
([٣٧٨]) مناقب:هذه الأبيات أوردها الأغاني ١٢٠/١٣ لكنه اختلف عن رواية زهر الآداب الواردة في النص وإليك رواية الأغاني: منها
أنا ساع في هواك وقابض ... على حد مصقول الغرارين قاضب
ومنصرف عما كرهت وجاعل ... رضاك مثالاً بين عيني وحاجبي
([٣٧٩]) الذنابين: حدّا السيف.

ومنتزعٌ عمـــا كرهـــتَ وجاعـــلٌ هواك مِثالا بـــين عـــيني وحـــاجبي

–

وقال [٣٨٠]:

ولا ســـــيما إذا مـــــا هيجتنـــــا بنـــات قـــد تجيـــب وتســـتجيب

وقال [٣٨١]:

(٣)

أجدّ ولَمَّا يجمـــع الليـــلَ شُمُلَـــهُ فما حلّ إلاّ وهـــو وردُ الغـــوارب

(٤)

المناسبة: كانت ليحيى بن خالد البرمكي جارية تسمى خلوباً، فطلبت من العتابي أن يأتي بأبيات علـــى قافية هذا البيت:

إذا شئت أن تقلى فـــزر متـــواترا وإن شئت أن تزداد حبا فزر غبّـــاً

فأنشأ يقول [٣٨٢]:

بقيـــتُ بـــلا قلـــب لأني هـــائمٌ فهلْ من معير يا خلوبُ بكم قلبـــا
حلفتُ لهـــا بـــالله إنـــكِ منـــيتي فكوني لعيني حيث ما نظرتْ نصـــبا
عسى اللهُ يوما أَنْ يُرينَـــكِ خَاليَـــا فأجني بلَحْظٍ مِنْ محاسنكم عجبـــا
يقولون لا تكثرْ زيـــارةَ صـــاحب فإنّـــك إنْ أكثرتـــه كـــره القربـــا
وكيف يطيقُ الصبُّ سلوان حبـــه إذا كان مشغوفا قد استشعر الكربا
وقد قال بيتا مـــا سمعـــت بمثلـــهِ خلى من الأحزان لم يـــذق الحبـــا
إذَا شئتَ أن تُقلى فـــزر متـــواترا وإنْ شئتَ أن تزداد حبا فزر غبـــا

(٥)

وله قوله في الإخوان [٣٨٣]:

تـــودُّ عـــدوي ثم تـــزعُمُ أنَّـــني صديقُكَ إنّ الرأي عنك لعـــازبُ
وليس أخي من ودَّني رَأْيَ عينيـــهِ ولكن أخي من ودني وهو غائـــبُ

(٦)

([٣٨٠]) خلاصة الذهب المسبوك عبدالرحمن سنبط ١٦٥.
([٣٨١]) شرح ديوان صريع الغواني ٤٠٠.
([٣٨٢]) الموشى ٤٨، تاريخ بغداد ١٢/ ٤٩١.
([٣٨٣]) العقد الفريد ٢٠١/٢ الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥٠٢.
([٣٨٤]) لعازب: غائب عنك.

وقال في الإخوان [٣٨٥]:

إنّي بلـــوتُ النـــاسَ في حـــالاتِهم ... وخبرتُ ما وصلوا من الأســبابِ
فإذا القرابــةُ لا تُقــربُ قاطِعــاً ... وإذَا المَــودة أقــربُ الأنســـابِ

(٧)

المناسبة: قال هذه الأبيات في منصور النمري الشاعر حينما أراد طاهر بن الحسين أن يصلح بينهما فقال [٣٨٦]:

أَصْحَبْتُكَ الفَضْلَ إذْ لا أنْتَ تعرفُــهُ ... حقّاً ولا لك في استصــحابه أرَبُ
لم تَرتَبطْكَ على وصلي مُحافظَــةٌ ... ولا أعــاذَكَ ممــا اغتالــك الأدَبُ
ما منْ جميلٍ ولا عُرفٍ نطقتَ بــه ... إلاّ إليّ وإنْ أنكـــرتَ ينتسِـــبُ

(٨)

المناسبة: ذكر أنه قال: كاتب الرجل لسانه وحاجبه ووجهه وجليسه كله، ونظم في ذلك شعرا، فقـال [٣٨٧]:

لِســـانُ الفـــتى كاتبـــه ... وَوَجـــهُ الفـــتى حاجبـــه
وندمانـــــه كلُّـــــه ... وكـــلٌّ لـــهُ واجبـــه

(٩)

وقال في ذم البرامكة [٣٨٨]:

إنَّ البَرَامِكَ لا تنفكُّ أَنْجيَةً [٣٨٩] ... بصفحة الدَّين من نجـواهم نَـدَبُ
تجرّمَتْ حججٌ منــهم ومَنْصــلُهم ... مضرَّج بــدم الإســلام مختَضِــبُ

(١٠)

وقال في الإخوان [٣٩٠]:

هيبـــة الإخـــوانِ قاطعـــةٌ ... لأخـــى الحاجـــات عـــن طلبـــه
فـــإذَا مـــا هبـــتَ ذا أمـــل ... مـــاتَ مـــا أملـــتَ مِـــنْ ســـببه

(١١)

---

(٣٨٥) الأغاني ١١٧/١٣، بهجة المجالس وأنس المجالس ٧٨٠.

(٣٨٦) الأغاني ١١٨/١٣.

(٣٨٧) مروج الذهب ١١٨/٤.

(٣٨٨) زهر الآداب ٦٧٥/٣، البديع لابن المعتز ١٨.

(٣٨٩) ندب: جروح وآثار ظاهرة.

(٣٩٠) الأغاني ١١٦/١٣.

وقال يتهكم ويسخر [٣٩١]:

حِجَابُكَ ليس يشبهُهُ حِجابُ وخيرُك دوَن مطلبه السحاب
ونومُكَ نوم من ورد المنايا فليس له إلى الدنيا إياب

(١٢)

وزاد عبد الله بن طاهر بن الحسين، فدخل عليه في ثلاثة أيام متوالية، فأنشده في اليوم الأول [٣٩٢]:

حُسْنُ ظني وحُسن ما عود الل ه سواى منك الغداة أتى بي
أي شيء يكونُ أحسن من حُس نِ يقين حدا إليْك ركابي

(١٣)

وقد استحسن له ابن المعتز هذه الأبيات [٣٩٣]:

تجنبْ دارَ العامريةِ، إنَّها تكلفه عَهْدَ الصِّبا والكواعب
منازلَ لم تنظرْ بها العين نظرةً فتقلعُ إلا عن دموع سواكب
ولا وصل إلاّ أن تُعاجَ [٣٩٤] مطيةٌ على دارس الأعلام عافي الملاعب

(١٤)

وقال [٣٩٥]:

وأكلت دهرك أربعين وأربعا فاصبر لأكلته وعضة نابه

(١٥)

وكتب إلى المنصور النمري هذه الأبيات[٣٩٦]:

تَقَضّتْ لُباناتٌ ولاح مشيبُ وأشفَى على شمسِ النهار غروبُ
وودَّعت إخوانَ الصِّبا وتصرّمت غَواية قلبٍ كان وهو طروبُ
ورُدَّت على الساقى تفيض وربَّما رددت عليه الكأس وهي سليبُ
وممّا يَهيج الشّوق لي فَيَرُدُّه خفيفٌ [٣٩٩] على أيدي القِيان

([٣٩١]) العقد الفريد ٥٦/١.
([٣٩٢]) الأغاني ١١٦/١٣، فوات الوفيات ٢٢١/٣، العصر العباسي ٤٢٣.
([٣٩٣]) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٢.
([٣٩٤]) تعاج: تزجر.
([٣٩٥]) المنتحل١٤٧.
([٣٩٦]) الأغاني ١٥٤/١٣.
([٣٩٧]) تصرمت: تقطعت، وروى تغرمت، وروى بدل طروب حروب في هامش الأغاني ١٥٤/١٣.
([٣٩٨]) سليب: فارغ.
([٣٩٩])خفيف: العود

عَطَوْن [٤٠٠] به حتَّى جرى في أديمه أصابيغ [٤٠١] في لَبّاتِهنَّ [٤٠٢] وطيبُ

(١٦)

وله في قوله [٤٠٣]:

إذا نحنُ أظهرنا لقومِ عداوةً ولان لهم منكم جناحٌ وجانبُ
فلا أنتمُ معنا ولا نحن منكمُ إذا أنتمُ سألتم من نحاربُ

وله [٤٠٤]:

(١٧)

صدت نوار فصد واجتنبا وطوت فأعرض [٤٠٥] دونها السببا
فكأنما وصلت بمقلته تمثالها من حيث ما ذهبا

حرف التاء

(١)

وقال في الإخوان [٤٠٧]:

قد كنتُ أبكى على ما فات من وأهل ودي جميعا غير أشتات
فاليوم إذ فرقتْ بيني وبينهم نوى: بكيت على أهل المودات

(٢)

وقال [٤٠٨]:

إذا ما فاتني لحمٌ غريض [٤٠٩] ضربت ذراع بكري [٤١٠]

حرف الحاء

(١)

ورُوي له في بعض الكتب قوله [٤١١]:

حُسنُ ظنى إليكَ، أكرمك اللهُ دعاني، فلا عدمت الصلاحا

---

(٤٠٠) عطون به: تناولته، ومددن أعناقهن أو من دبغ الجلد حتى يلين فيسهل التعامل معه.
(٤٠١) أصابيغ: جمع الجمع عنى به الزعفران.
(٤٠٢) لباتهن: مواضع النحر.
(٤٠٣)العقد الفريد ٣٠٧/٢.
(٤٠٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.
(٤٠٥) أعرض: وسعه وجعله عريضا.
(٤٠٦) السببا: العلاقة أو الطريق.
(٤٠٧) الصداقة والصديق ١١٧.
(٤٠٨) العقد الفريد١٦/١.
(٤٠٩) الغريض: الطري.
(٤١٠) بكري: الفتى من الإبل.
(٤١١) تهذيب تاريخ دمشق ٤٦٣/٢.

ودعاني إليْكَ قول رسـول الـل ... ـهِ إذْ قـال مُفْصِـحا إفصـاحا
إنْ أردتم حوائجـا عنـد قـوم ... فتنقـوا لهـا الوجـوه الصِّـباحا
ولعمـري لقـد تخـيرت وجهـا ... ما به خـاب مـن أراد النجاحـا

(٢)

وقال يهجو أهل زمانه[٤١٢]:

تساوى أهل دهـرك في المسـاوي ... فما يستحسنون سـوى القبـيح
وصـار النـاس كلـهم غثـاء ... فمـا يُرجَـون للأمـر النجـيح
وأضحى الجـود عنـدهم جنونـا ... فما يستعقلون سـوى الشـحيح
وكانوا يغضبون مـن الأهـاجي ... فصاروا يغضـبون مـن المـديح

حرف الدال

(١)

المناسبة: وقال رداً على زوجته التي لامته على ترك الغنى: [٤١٣]

تلومُ علـى تَـرْكِ الغِـنى باهليّـةٌ ... لَوَى الدهرُ عنها كل طِـرْف [٤١٤]
رأت حولهـا النِّسـوانَ يَـرْفُلْنَ ... مُقَلَّـدة أجيادُهـا بالقلائِـد
أسَرَّكِ أنّني نِلْتُ ما نـال جعْفـرٌ ... وما نال يَحْيَى في الحياةِ ابنُ خالِـدِ
وأنّ أمـيرَ المُـؤمِنينَ أغصـني ... مغصهما بالمرْهفاتِ [٤١٧] الحدائـدِ
دعـيني تَجـئني ميـتتي مطمئنـة ... و لم أتجشّم هـوْلَ تلـك المـواردِ
فإن الذي يسمُو إلى الرتب العُلـى ... سَيُرمَي بألوان الفِـرى والمكايـدِ

---

[٤١٢] غرر الخصائص الواضحة ٢٦٠، ٦٤، العتابي ٨٢.
[٤١٣] البيان والتبيين ٣/٣٥٤،٣٥٣، الحيوان ٤/٢٦٥، ٢٦٦، عيون الأخبار ١/٢٣١، ٢٣٢، العقد الفريد٣/ ١٢٤، زهر الآداب ٣/٦٧٥، ٢٢٤ الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٢٤.
الروايات: روى الجاحظ والأصبهاني زوى، وانفرد الأغاني برواية الفقر بدل الدهر، وروى الحصري طوى بدل لوى. وفي البيت الثاني روى الحصري منظمة، وروى الأصبهاني الثرا بدل الكسا. وأما البيت الثالث فرواه الأغاني والحصري بأسرك، وروى الأصبهاني في الشطر الثاني من العيش، وروى الحصري والجاحظ من الملك.
وفي البيت الرابع روى الجاحظ والأصبهاني والحصري أغضني ومغصهما وانفرد الأصبهاني برواية المشرفات بدل المرهفات. وفي البيت الخامس، روى الأصبهاني دعيني، وانفرد العقد الفريد برواية البيت السادس. أما البيت السابع فرواية الجاحظ كريمات، ورواها الأصبهاني والحصرى برفيعات " فإن رفيعات المعالي.. " وروى الأصبهاني الأمور بدل المعالي.
[٤١٤] الطرف: الجديد من المال.
[٤١٥] التالد: القديم من المال.
[٤١٦] يرفلن: من رفل وهو مِن جر ذيله وتبختر.
[٤١٧] المرهفات: السيوف اللوامع.
[٤١٨] الحدائد: السيوف القواطع.

وجدتُ لذاذات الحيـــاةِ مَشُـــوبَةً بمُستودَعاتٍ في بطونِ الأساودِ [٤١٩]

(٢)

وذكر سليمى في قصيدة قال عنها ابن المعتز " وهي قصيدة مشهورة جيدة "، لكنه لم يذكر منها إلا بيتا واحدا في ذكر سليمى[٤٢٠]:

رمى القلب يأس من سليمى فأقصدا وكان بها هيامة القلب مهندا [٤٢١]

(٣)

وقال في عبد الله بن طاهر بن الحسين [٤٢٢]:

بهجـــات الثيـــاب يخلقهـــا الـــدّه ر وثوب الثنـــاء غـــض جديـــد

فاكسني ما يبيـــد أصـــلحك الـــل ه فـــالله يكســـوك مـــالا يبيـــد

(٤)

وقال [٤٢٣]:

لو رأتـــني بـــذي المَحَـــارة فَـــرْداً وذراعُ ابنة [٤٢٤] الفلاةِ وسَـــادِي

أُطفئ الحـــزنَ بالـــدموع إذا مـــا حُمة [٤٢٥] الشوقِ أَثَّرتْ في فُؤَادي

خاشع الطرف قد توشـــحني [٤٢٦] ر فلانـــت لـــه قنـــاة قيـــادي

تِرْبَ [٤٢٧] بُؤسِ أخا هموم كأنَّ ال حُزْنَ والبـــؤس وَافَيَـــا مِـــيلادِي

وكأنّي استشعرت ما لفـــظ النـــا س مـــن النـــائِراتِ والأحقـــادِ

أتصدَّى الـــرَّدَى [٤٢٨] وأدَّرع [٤٢٩] الليـــل بهَوْجَاء [٤٣٠] فوقها أقْتَـــادِي [٤٣١]

([٤١٩]) الأساود: جمع أسود وهي حية.

([٤٢٠]) طبقات الشعراء لابن المعتز٢٦٣.

([٤٢١]) مهندا: من هندته المرأه تهنيدا إذا ورثته عشقا بالملاطفة وتمنيته بالمغازلة، وهندت فلانة بقلبه: ذهبت به.

([٤٢٢]) الأغاني ١١٧/١٣، فوات الوفيات ٢٢١/٣، العصر العباسي الأول ٤٢٤.

([٤٢٣]) زهر الآداب ٦٩٧/٣، الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥١٦،٥١٥.

([٤٢٤]) ابنة الفلاة: الناقة.

([٤٢٥]) حمة الشوق: حرارة الشوق.

([٤٢٦]) توشحني: تقلدني، وهو في الأصل الشد من العاتق إلى الكشح.

([٤٢٧]) ترب: الترب من ولد معك، وهو الصديق والخليل.

([٤٢٨]) الردى: المهالك.

([٤٢٩]) أدرع الليل: سار في ظلام الليل.

([٤٣٠]) هوجاء: الطويلة السريعة القوية.

حَظٌّ عيني من الكـــرى خفَقـــاتٌ بين سَرْحِي [٤٣٢] ومنحنى أعْوَادِي
أَوْحَشَ النَّـــاس جـــانبي فمـــا آن س إلاّ بوحـــــدتي وانفـــــرادي
وقد رددت الذي به أتقـــي النـــا س وأبرزتُ للزمان سَـــوَادي [٤٣٣]
فاستهلَّتْ علـــيَّ تمطـــرني الشـــو ق شـــآبيب مزْنـــةٍ مِرْعَـــادِ [٤٣٤]

(٥)

وكتب إلى بعض أصدقائه [٤٣٥]:

ظِلُّ اليسار على العبـــاس ممـــدود وقلبـــه أبـــدا بالبخـــل معقـــود
إن الكريم ليخفي عنـــك عســـرته حتى تـــراه غنيـــا وهـــو مجهـــود
وللبخيـــل علـــى أموالـــه علـــل زرق العيون عليها أوجـــه ســـود
إذا تكرمت عن بـــذل القليـــل و لم تقدر على سعة لم يظهـــر الجـــود

(٦)

ويصف الكتاب ومجالسته فيقول[٤٣٦]:

لنا نـــدماءٌ مـــا نَمَـــلُّ حَـــدِيثهمْ أمِينُونَ مَأمُونُونَ غَيْبـــاً وَمشْـــهَدَا
يُفِيدوُنَنَا مِنْ علمهمْ عِلْمَ ما مضَـــى وَرَأيـــاً وتَأْدِيبـــاً وأَمْـــراً مُسَـــدَّدَا
بِلا عِلَّةٍ تُخْشَى ولا خـــوفِ ريبـــة ولا نَتَّقِي منـــهم بنانـــاً ولا يَـــدا
فإنْ قُلتَ هُم أحياء لستَ بكـــاذبِ وإنْ قُلْتَ همْ مَوْتَى فلستَ مُفَنَّـــدا

(٧)

وقال [٤٣٧]:

يجود علـــى العفـــاة بكـــل مَـــنٍّ إذا ما الســـيب شـــح بمـــا يـــراد

حرف الراء

(١)

وقال في الوصف [٤٣٨]:

([٤٣١]) أقتادي: الرحل والأمتعة.
([٤٣٢]) سرحي: مرجلي فوق الناقة.
([٤٣٣]) سوادي: حالتي السوداء.
([٤٣٤]) مرعاد : كثيرة الرعد.
([٤٣٥]) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٩١،الآمالي ٢/ ١٣٥، كتاب التنبيه ١٠٦، الرواية: اختلفت رواية الخطيب عن القالي فقد روى الخطيب:

إذا تكرهت أن تعطي القليل ولا تكون ذا سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا يمنعك قلته فكل ما سد فقرا فهو محمود

([٤٣٦]) الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٤٩٩.
([٤٣٧]) نزهة الجليس ومنية الأديب والأنيس ٢/ ٣٦٧.

مدت سنابكها من فوق أرؤسهم لـيلا كواكبه البيض المباتير

(٢)

وقال [٤٣٩]:

يا ليلة لي بحُوّارين ساهرة حتى تكّلم في الصبحِ العصافير

(٣)

المناسبة:قال هذه القصيدة يمدح هارون الرشيد [٤٤٠]:

ماذا شجاكِ بحُوَّارين [٤٤١] من طلل ودمنة [٤٤٢] كشفت عنها الأعاصيرُ
شجاك حتّى ضميرُ القلب مشتَركٌ والعينُ إنسانُها [٤٤٣] بالماء مغمورُ
في ناظرِيّ انقباضٌ عن جُفُونهما وفي الجُفونُ عن الآماق [٤٤٤] تقصيرُ
لو كنتِ تدرين ما شوقي إذا تنأى [٤٤٥] بنا وبكِ الأوطانُ والدورُ
لبستَ أردية النّوار من طَلَلِ وزلتَ أخضر تعلوك الأزاهيرُ
علمتِ أنّ سُرَى [٤٤٦] ليلي من بيت نجران[٤٤٧] و الغَوْرَيْنْ تغوير
إذا الركائبُ مَخْسوفٌ [٤٤٩] كما تضمّنت الدهنَ القوارير
نادتك أرحامُنا التي نَمُتُّ بها [٤٥٠] كما تنادى جلادَ [٤٥١] الجِلّة [٤٥٢]الخورُ
مُستنبط عَزمَاتِ القلب من فكرِ ما بينهنّ وبينَ اللهِ معمورُ

([٤٣٨]) كتاب الصناعتين ٢٥٦، الحيوان ١٢٧/٣، وروى الحيوان تبني سنابكها.
([٤٣٩]) الحيوان ٢٩٦/٢.
([٤٤٠]) الأغاني ١٢٤/١٣، طبقات الشعراء لابن المعتز٢٦٣
([٤٤١]) بحوارين: بضم أوله وتشديد الواو وكسر الراء وباء ساكنة وهي قرية من قرى حلب.
([٤٤٢]) الدمنة:آثار الدار، روى المعتز حسرت بدل كشفت.
([٤٤٣]) إنسانها: ما يرى في سواد العين أو سوادها كله.
([٤٤٤]) الآماق :جمع موق وهو مجرى الدمع في العين.
([٤٤٥]) تنأى: تبعد
([٤٤٦]) سرى: السير في الليل.
([٤٤٧]) نجران: موضع في البحرين، وموضع في جنوب السعودية، وموضع قرب دمشق، والأخير المقصود.
([٤٤٨]) تغوير: الدخول في الغور.
([٤٤٩]) مخسوفة: غابت عيونها من الضعف والهزال
([٤٥٠]) نمت: العرق والأصل الذي يصلنا بكم.
([٤٥١]) الجلاد: النوق والأصل الذي يصلنا بكم.
([٤٥٢]) الجلة: السمان من الإبل.
([٤٥٣]) الخور: جمع خوارة وهي الناقة الغزيرة اللبن.

فُـــتَّ المـــدائحَ إلا أنّ أنفســـنا مستنطَقاتٌ بما تحـــوي [٤٥٤] الضّـــمائرُ
ماذا عَسى مادحٌ يثني عليك وقـــد نـــاداك في الـــوحي تقـــديسٌ وتطهـــيرُ
إن كان منّا ذَوُو إفكٍ [٤٥٥] ومارقةٌ وعصبةٌ [٤٥٧] دينُها العُـــدوانُ والـــزّور
فإنّ منّـــا الـــذي لا يســـتحثُّ إذا حُثَّ الجياد وحَازتها [٤٥٨]المضاميرُ [٤٥٩]
ومن عرائقـــه السّـــفاح عنـــدكم مجرب [٤٦٠] من بَلاء الصِّدق مخبور [٤٦١]
الآن قد بَعُدت في خطو طـــاعتكم خُطاهم حيـــثُ يحتـــل الغشـــاميرُ [٤٦٢]

(٤)

وقال يعاتب عمرو بن مسعدة [٤٦٣]:

قَدْ كنتُ أرجو أن ْتكونَ نصيري على الذي يبغي علـــيَّ ظهـــيري
و طفقت [٤٦٤] آمل ما يُرجَّى سيبهُ حـــتى رأيـــتُ تَعلُّقِـــي بغـــرور
فحضرتُ قـــبرك ثم قلـــتُ دفنتـــه ونقضتُ كفي من ثـــرى المقبـــورِ
ورجعتُ مفترياً على الأمل الـــذي قد كان يشهدُ لي عليـــك بـــزور

(٥)

وقال [٤٦٦]:

ألا قـــد نكـــس الـــدهرُ فأضـــحى حلـــوه مُـــرّا
وقـــد جربـــتُ مَـــنْ فيـــه فلـــم أحمـــدُهم طُـــرّا
فَـــأَلْزمْ نفسَـــك اليـــأسَ مـــن النـــاسِ تعـــش حـــرّا

([٤٥٤]) تحوي: روى ابن المعتز: ألسننا، وروي تخفي بدل تحوي، وروي في البيت الذي يليه في الوحي.

([٤٥٥]) الإفك: البهتان.

([٤٥٦]) المارقة: الخارجة عن الدين.

([٤٥٧]) عصبة: عصبة الرجل قومه اجتمعوا وأحاطوا به.

([٤٥٨]) حازتها: ضمنتها.

([٤٥٩]) المضامير: جمع مضمار، وهو الموضع الذي تضمر فيه الخيل وروي وضمتها المضامير.

([٤٦٠]) مجرب كثير الممارسة ومرت عليه أحداث عظام.

([٤٦١]) مخبور: مختبر.

([٤٦٢]) الغشامير: من الغشمرة، وهي التهضم والظلم.

([٤٦٣]) معجم الأدباء ٦ / ٢١٤.

([٤٦٤]) طفق:ابتدأ وأخذ.

([٤٦٥]) سيبه: أي ذهب كل مذهب، أي جري الجد كل مجري.

([٤٦٦]) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٩١.

(٦)

المناسبة: "اجتاز عبد الله بن طاهر بن الحسين بالرقة مترل العتابي، فقال: أليس هذا مترل كلثوم بن عمرو؟ فقيل: نعم. فثنى رجله، ودخل إليه، فألفاه جالساً في بيت كتبه، فحادثه وذاكره، ثم انصرف، فتحدث الناس في ذلك، وقالوا: إن الأمير لم يقصده وإنما اجتاز به فأخطر ذلك الزيارة".

فكتب إليه العتابي هذه الأبيات يطلبه مزيداً من الزيارة(٤٦٧):

يا مَنْ أفادَتْني زيارتُه ... بَعْدَ الخمولِ نَباهةَ الذكْرِ

قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ ... ومجاز خَطْرك ليس بالخطرِ

فادْفَعْ مقالتهم بثالثةٍ ... تستنفذ المجهودَ مِن شُكرِي

لا تجعَلَنَّ الوِتْرَ واحدةً ... إن الثلاث تتمةُ الوترِ

(٧)

وله بيت استشهد به الشريف الرضي (٤٦٨):

كما تقاذف جُردٌ في أعنتِهَا ... سيفاً بآذانِها مرّاً و بالعذر

(٨)

وله (٤٦٩):

ردّت صنائعه إليه حياته ... فكأنّه من نشرها منشورُ

(٩)

وله في الاعتذار (٤٧٠):

رَحَلَ الرجاءُ إليكَ مُغترِباً ... حُشِدتْ عليه نوائبُ الدهرِ

رَدَّتْ إليك نَدَامتي أملي ... وثَنَى إليك عِنانَه شكري

وَجَعَلْتُ عتْبَكَ عَتْبَ مَوْعِظَةً ... وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مُنْتَهى عذري

---

(٤٦٧) زهر الآداب ٣ / ٦٧٥، ٦٧٦، الأغاني ١٣ / ١٢٠

الرواية: روى الأغاني كبيتين فقط بألفاظ مختلفة، وإليك هذه الرواية:

قالوا الزيارة خطرة خطرت ... ونجار برك ليس بالخطر

أبطل مقالتهم بثانية ... تستنفذ المعروف من شكري

(٤٦٨) أمالي المرتضى ١ /١٠٢.

(٤٦٩) الحركة النقدية حول أبي تمام ١٠٠ مشكلة السرقات في النقد العربي ١٤٦.

(٤٧٠) الشعر و الشعراء لأبن قتيبة ٢ / ٨٦٣، طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٢، وفي هذين المصدرين البيتان الثاني والثالث، الحيوان ٣ / ٤٨٣

الندامة التندم علي فعل والأسف والتحير.

العنان: حبل يوضع في رؤوس الدواب تقاد به.

(١٠)

وقال في وصف حالته التي لا يستقر إليها قرار[٤٧١]:

وقائلةٍ لَّما رأتْني مُسَهَّداَ ... كأنّ الحشَا مني تلذعُه الجمرُ
أباطنُ داءٍ أم جوًى بك قاتلٌ ... فقلتُ الذي بي ما يقومُ له صبرُ
تفرّقُ آلافٍ وموتُ أحبَّةٍ ... وَ فَقْدُ ذَوِي الأفضالِ قالتْ كذا

(١١)

وله في الغزل مقطوعة هي قمة غزله الذي وصل إلينا، ويظهر فيها سلامة الطبع والرقة وعدم التكلف، وهي[٤٧٢]:

رَسَل الضَّمير إليك تَتْرى [٤٧٣] ... بالشّوقِ ظالعة [٤٧٤] وحسرى [٤٧٥]
متزجَّياتٍ [٤٧٦] ما ين [٤٧٧] ... ينَ على الوَجَى [٤٧٨] مِنْ بُعْدِ
ما جَفّ للعينين بَعْدك ... يا قريرَ العينِ مَجْرى
فاسلَمْ سَلمِت مبرّأ ... مِن صبوتى [٤٧٩] أبداً معُرَّى
إنّ الصَّبابةَ لم تَدَع ... منِّى سوى عظمٍ مبرَّى [٤٨٠]
ومدامعٍ عَبْرى على ... كَبدٍ عليك الدّهر َحرَّى [٤٨١]

(١٢)

وله[٤٨٢]:

فلو كان للشكر ِشخصٌ يبَينُ ... إذا ما تَأَمّلَهُ النّاظرُ
لَمَثَّلتُه لك حتَّى تراه ... لِتعلم أنِّي امرؤ شاكرُ
لكنه ساكنٌ في الضمير ... يحركه الكلمُ السائرِ

---

(٤٧١) العقد الفريد ٣ / ٢٣٣.

(٤٧٢) الأغاني ١٣ / ١١٠.

(٤٧٣) تتري: تتوالى.

(٤٧٤) ظالعة غمزة في مشيتها وظهر عرجها.

(٤٧٥) حسرى: تعب أصاب المطية.

(٤٧٦) المتزجيات: المنساقة.

(٤٧٧) ينين: ما يبطئن ولا يفترن.

(٤٧٨) الوجى: الحفا، المشي الدائم الذي يرقق القدم أو الحافر.

(٤٧٩) الصبوة: جهلة الفتوة.

(٤٨٠) مبرى: المهزول المنحوت.

(٤٨١) حرى: المحترقة.

(٤٨٢) الأغاني ١٣ /١١٠، عيون الأخبار ٣ / ١٦١.

(١٣)

والعتابي من ولد عمرو بن كلثوم الشاعر الفارس بدليل قوله [٤٨٣]:

إني أمَرؤ هدّم الإقتار [٤٨٤] مـأثرتي ... واجتاح ما بنت الأيام من خطرى
أيام عمرو بـن كلثـوم يسـوده ... حيّا ربيعةَ والأفتاء [٤٨٦]من مُضـر
أرومةٌ [٤٨٧] عطلتني من مكارمهـا ... كالقوس عطَّلها الرأس من الـوترِ
نهى ظراف الغواني عن مواصـلتي ... ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري

(١٤)

وقال [٤٨٨]:

يغرُ الفـتى مـر الليـالي سـليمةً ... وهـن بـه عمـا قليـل عـواثر
فإن أعْص ريعان الشـباب فطالمـا ... أطعت إليه الجهل والحلـم وافـر

(١٥)

وقال يوصي بالعبر [٤٨٩]:

طمَـعُ النُفـوسَ مطِيَّـة الفَقْـر ... وَليأْسُـها أَدْنَـى إلى الـوَفْر
اصـبر إذا بـدهَتْكَ نازلـةٌ ... مـا عـالَ مُنْقَطِـعٌ إلى الصَّـبْر
الصَّبْرُ أنبلُ مـا اعتصـمتَ بـه ... ولَنعْمَ حَشْـوَ جـوانح الصَّـدْر

(١٦)

وقال [٤٩٠]:

لا تـرجُ رجعـةَ مـذنبٍ ... خلـط احتجاجـا باعتـذار

(١٧)

وقال [٤٩١]:

اعتضتَ باليـأس منـك صـبْراً ... فاعتـدل الحـزنُ والسـرورُ
فلستُ أرجـو ولسـتُ أخشـى ... مـا فعلـتْ بعـدك الـدهورُ

([٤٨٣]) البيان و التبين ١ / ٥١، زهر الآداب ٣ / ٦٧٤.
الروايات: روي الحصري في البيت الثاني أنا ابن، وروي الأحياء بدل الأفتاء.
([٤٨٤]) الإقتار: قلة المال.
([٤٨٥]) مأثرتي: المأثرة هي المفخرة، و المآثر المفاخر.
([٤٨٦]) الأفتاء: الأخلاط بين القبائل.
([٤٨٧]) أرومة: الأصل الطيب.
([٤٨٨]) الحماسة البصرية ٢ / ٤٢٨.
([٤٨٩]) نور القبس ٣٩.
([٤٩٠]) الكامل ٤ /١٢٧.
([٤٩١]) سرقات أبي النواس ٥٤.

(١٨)

وقال [٤٩٢]:

لئن كانت الـــدنيا أنالتـــك ثـــروة ... فأصبحتَ ذا يسرٍ وقـــد كنـــتَ ذا
فقد كشف الإثراءُ منـــك مخازيـــا ... من اللؤم كانت تحت ثـــوبِ مـــن

(١٩)

وقال [٤٩٣]:

فإن تك حمى الغيثِ شفَكَ غبُهـــا ... فعُقْباك منها أن يطولَ لك العمـــرُ
وقيناك لو تعطى الهوى فيك والمـــنى ... وكانت بك الشكوى وكان لـــك

(٢٠)

وله [٤٩٤]:

إذا سرَّني دَهْـــرِي قبلـــتُ وإن أَبى ... أَبَيْتُ عليه أنْ أضيقَ لـــه صَـــدْرَا
فكمْ من مسيءٍ قد لقيتُ ومحســـنٍ ... فأوسعتُ ذا حِلمَـــا وأوســـعتُ ذَا

(٢١)

وقال في الولاة [٤٩٥]:

قَـــدْ أتينـــاك للسّـــلام مـــراراً ... غـــيرَ مَـــنٍّ منَّـــا بـــذاكَ المـــزارِ
فإذا أنـــت في اسِـــتَارك بالليـــلِ ... علـــى مثـــل حالِنَـــا بالنـــهارِ

وقال العتابي [٤٩٦]:

مضـــت علـــى عهـــده الليـــالي ... فأُحـــــدثت بعـــــده أمـــــور
واعتضت باليـــأس عنـــه صـــبراً ... واعتـــــدل الحـــــزن والســـــرور

حرف السين

وقال [٤٩٧]:

لشـــــجر في ســـــبخ نابـــــت ... يُجـــــنى بأنيـــــاب وأضـــــراس
أحسن حـــالاً مـــن أخـــي فاقـــة ... يحـــاول النيـــل مـــن النـــاس

([٤٩٢]) شرح المضمون به على غير أهله ٥٣٤.

([٤٩٣]) المنتحل ٢٨٠.

([٤٩٤]) بهجة المجالس وأنس المجالس ١ /٦٠٥.

([٤٩٥]) العقد الفريد ١ /٥٤.

([٤٩٦]) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ٢١٦.

([٤٩٧]) مضاهاة أمثال كتاب كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب ٦٠.

لـــولا كـــرامتكم لمـــا عـــاتبتكم ولكنتم عنـــدي كـــبعض النـــاس

حرف العين

وله في ذكر محبوبته سليمى قوله[٤٩٨]:

عرفت مصيفاً من سُلَيمى وَمَرْبَعَا ... بذِرْوةِ نَمُّودِ [٤٩٩] فأكنافِ بَلْتَعَا [٥٠٠]

بلادٌ تَشَتَّاها [٥٠١]الوحوشُ وترتَعي ... قِوَاماً من البُهْمى [٥٠٢] وجأْراً

ترودُ بها الأُدم المَتالي[٥٠٥]وربما ... تراها مَحَلاً من أُناسٍ وَمْجْمعَا

حرف الغين

وقال في ذم البغي والسعاية [٥٠٦]:

بغيت فلم تقع إلا صريعا ... كذلك البغي يصرع كل باغ

حرف الفاء

وقال في الوصف [٥٠٧]:

تخال أذنيه إذا تشوفا ... قادمة أو قلما محرفا

حرف القاف

(١)

وقال يصف السماء والمطر [٥٠٨]:

أرِقتُ [٥٠٩] للبرق يخفى ثم يأْتلقُ ... يخفيهِ طوْرا ويُبْدِيه لنا الأُفُقُ

كأنّه غُرّةٌ [٥١١] شهباءُ لائحةٌ ... في وجهِ دهماءَ [٥١٢] ما في جِلْدِهَا

---

(٤٩٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.

(٤٩٩) نمود:اسم مكان.

(٥٠٠) بلتعاً: اسم مكان.

(٥٠١) تشتاها: تقضي فصل الشتاء فيها.

(٥٠٢) البهمى:نبات يشبه الشعير.

(٥٠٣) جأر: الجأر من النبات المرتفع والغض الريان.

(٥٠٤) مدعدعاً : من دعدع الشيءَ: ملأه.

(٥٠٥) المتالي: هي التي تتبعها أولادها.

(٥٠٦) كتاب البديع لابن المعتز ١٨، العقد الفريد ٢ /١٥٧.

(٥٠٧) العقد الفريد ٥ / ٣٦٧.

(٥٠٨) ديوان المعاني ٢ /٩.

(٥٠٩) أرقت:سهرت وراقبت.

(٥١٠) يأتلق: يلمع.

(٥١١) غرة: البياض في جبهة الفرس.

أو ثغْرُ زُنْجيةٍ تَفْتَرُ ضـــاحكةً [٥١٤] تبـــدو مشـــافِرُها [٥١٥] طـــورا
أو سلَّةُ البيضِ في جأواء [٥١٧] مُظلمةٍ وقد تلقَّتْ ظُباهـــا البـــيضُ والـــدرقُ [٥١٨]
والغيمُ كالثوبِ في الآفاقِ منتشـــرٌ من فوقِهِ طَبَـــقٌ مـــن تحتـــهِ طَبَـــقُ
تَظنُّهُ مصْمَتاً [٥١٩] لا فتقَ [٥٢٠] فيه سالتْ عواليه قلتَ: الثوبُ منفتـــقُ
إنْ مَعْمَعَ [٥٢١] الرعدُ فيـــه قلـــتَ: أو لألأ البرقُ فيـــه قلـــت: محتـــرقُ
تستكُّ [٥٢٢] من رعدِه أُذنُ السميعِ تعشى [٥٢٣] إذا نَظَـــرَتْ،من برقِـــه
فالرعدُ صهصـــلقٌ [٥٢٥] والـــريح والبرقُ مؤتلقٌ، والمـــاءُ منبعـــقٌ [٥٢٧]
قد لاح فوق الرُّبا [٥٢٨] نَوْرٌ له أَرَجٌ كأنّه الوشْيُ والديباجُ والسَرَقُ [٥٣٠]
من صـــفرةٍ بينـــها حمـــراءُ قانيـــةٌ أو أَصفرٌ فاقع أو أبيض، يقـــقُ [٥٣١]

(٢)

وقال قصيدته في توديع جاريته، تبين فلسفته في الحياة والصراع الدائر في ضميره بين أمل عريض ويأس قاتـــل،

([٥١٢]) دهماء: الشديدة السواد.

([٥١٣]) البلق:السواد والبياض.

([٥١٤]) تفتر: تفرر بالشيء ضحك، افتر الرجل ضحك ضحكاً حسنا.

([٥١٥]) مشافرها: مشفر يطلق على شفة البعير لكنه أطلقه علي شفتي الزنجية.

([٥١٦]) تنطبق: تتلاصق و تلزق.

([٥١٧]) جأواء: جو كل شيء باطنه وداخله، والجوة: النقرة في الجبل وغيره.

([٥١٨]) الدرق: الدرق الصلب من كل شيء.

([٥١٩]) مصمتاً: قوي لا يقطر منه شيء.

([٥٢٠]) لا فتق فبه: الفتق شق الثوب من ناحية الخيط.

([٥٢١]) معمع: الشدة في كل شئ في الحرب، وفي الحر، وفي صوت الرعد.

([٥٢٢]) تستك: تصم الأذن من قوة الصوت.

([٥٢٣]) تعشى: أي لا ترى شيئاً من قوة النور أمامها.

([٥٢٤]) الحدق: سواد العين.

([٥٢٥]) صهصلق: الصوت الشديد.

([٥٢٦]) الريح منخرق: قوية تخرق ما يقف في وجهها.

([٥٢٧]) منبعق: أي نزل المطر بغزارة شديدة فشق الذي أمامه.

([٥٢٨]) الربا المكان العالي.

([٥٢٩]) أرج: الرائحة الطيبة.

([٥٣٠]) السرق : شقق الحرير.

([٥٣١]) يقق: شديد البياض.

يتجلى في مناقشته لجاريته ولنفسه [٥٣٢]:

مـــا غَنـــاء الحِـــذَارِ والإشـــفاقِ ... وشآبيب دَمْعِـــك المُهْـــرَاقِ [٥٣٣]
ليسَ يقْوَى الفؤادُ منك على الصَّدِّ ... ولا مُقْلَتـــا طَلـــيحِ [٥٣٤] المـــآقي
غـــدرات الأيَّـــام مِنتزِعَـــاتٌ ... ما غَنِمْنَا من طول هـــذا العنـــاق
إنْ قضَى اللَّـــهُ أنْ يكـــونَ تَـــلاَقِ ... بعد ما قـــد تـــرين كـــان تَـــلاقِ
هَوِّني مـــا عليـــك واقْـــني حَيَـــاءً ... لستِ تَبقين لِـــي ولســـتُ بِبَـــاقِ
أيّنـــا قـــدَّمَتْ صـــروفُ المنايـــا ... فالذي أخّـــرتْ ســـريعُ اللّحـــاقِ
ويـــدُ الحادثـــات رَهْـــنٌ بمُـــرَّاتٍ ... من العيشِ مُصْبَرات [٥٣٥] المـــذاق
غُرَّ مَنْ ظـــن أن يفـــوت المنايـــا ... وعُراهـــا [٥٣٦] قلائـــدُ الأعنـــاق
كـــم صَـــفيَّيْنْ مُتِّعـــاً باتفـــاقِ ... همـــا صَـــارا لغُرْبَـــةٍ وافتـــراقِ
قلـــتُ للفرقـــدين والليـــلُ مُلْـــقِ ... سُـــودَ أكنافِـــه علـــى الآفـــاقِ
ابْقَيَا ما بقيتمـــا ســـوف يُرمـــى ... بين شخصيكما بسَـــهْم الفِـــرَاقِ
بينما المـــرءُ في غَضـــارَة عَـــيْش ... وصـــلاحٍ مـــن أمـــرِه واتّفـــاقِ
عطفـــت شِـــدّةُ الزمـــان فـــأدتْ ... ه إلى فاقـــةٍ وضـــيقِ خِنَـــاقِ
لا يـــدومُ البقـــاءُ للخَلـــق لـــك ... نَّ دوامَ البقـــــاءِ لِلخَـــــلاَّقِ

(٣)

المناسبة: وعده صديق له بقضاء حاجته لكنه ماطله بها فقال [٥٣٧]:

بسطتُ لساني ثم أســـكتُ نصـــفَهُ ... فنصفُ لساني بامتـــداحك مطلـــقُ
فإن أنت لم تنجز عُـــداتي تـــركتني ... وباقي لساني الشكر باليأس ينطـــقُ

(٤)

المناسبة: قال العتابي: بعث إليَّ طاهر بن الحسين في يوم دجن، فدخلت عليه وبين يديه خـــادم يســـقيه.

([٥٣٢]) زهر الآداب ٣ /٦٧٧.

([٥٣٣]) مهراق: هرق الماء صبه.

([٥٣٤]) طليح: هزيل.

([٥٣٥]) مصبرات: شديدات المرارة.

([٥٣٦]) عراها: ما يوثق به، وما يدخل فيه زرار الثوب.

([٥٣٧]) غرر الخصائص الواضحة ٢٩٦ /٢٦٤.

فقال يا عتابي: أما ترى يومنا ما أرقه.. فإن قلت ما نحن فيه شعرا.. وهبت لك الخادم فقلت [٥٣٨]:

أيهـــا الســـاقي الـــذي أص ... بـــح يســـقينا الرحيقـــا
ســـق نـــدماني عقـــارا ... واســـقني مـــن فيـــك ريقـــا
فمـــن نفســـي هـــذا ... ن صـــبوحا وغبوقـــا
طـــاهر بـــرٌ جـــواد ... فاتخـــذناه طريقـــا
وكـــذا كـــان حســـين ... فحكـــى الغصـــن العروقـــا

حرف الكاف

(١)

وقال العتابي [٥٣٩]:

لؤم يعيـدك مـن سـوء تفارقـه ... أبقى لعرضك من قول يـداجيكا
أعدى أعاديك نفسٌ غير صـالحةٍ ... وسوء رأيك أعدى من أعاديكـا
وقد رمى بك في تيهـاء مهلكـةٍ ... من بات يكتمك العيب الذي فيكا

حرف اللام

(١)

وقال يمدح جعفر بن يحيى [٥٤٠]:

ما زلتُ في غَمَرات الموتِ مُطَّرَحـا ... قد ضاق عني فسيحُ الأرض مَـن
و لم تَزلْ دائباً تسعَى بلُطْفـك لي ... حتّى اختلست حياتي مـن يـدي

(٢)

وقال [٥٤١]:

فيا ابن أبي لا تغتـرب إن غـربتي ... ستثني بكف الضيم ماء الحناظـل

(٣)

وقال في شكاية الزمان [٥٤٢]:

([٥٣٨]) معجم الأدباء٦ / ١١٤، حماسة الظرفاء ٤٦.

([٥٣٩]) معجم الأدباء ٦: ٢١٤، حماسة الظرفاء ٤٦.

([٥٤٠]) الأغاني ١٣ / ١١٩، فوات الوفيات ٣ / ٢٢٠، معجم الأدباء ١١٣، الشعر و الشعراء د / مصطفي الشكعة ٥١٣.

([٥٤١]) اللطائف والظرائف ٩٩.

([٥٤٢]) العقد الفريد ٣ / ١٤٣.

حتّى متّى أنا في حِـل وترحـال وطُـول شُـغل بإدبـار وإقبـال
ونازح الدار مـا أنفـكَّ مُغتربـا عن الأحِبّةِ ما يدرون مـا حـالي
بمشرق الأرض طـوراً ثم مغربهـا لا يخطر الموتُ من حرص على بالي
ولو قنعتُ أتاني الـرزقُ في دَعَـةٍ إن القُنوع الغنى، لا كثـرة المـال

(٤)

ودخل على عبد الله بن طاهر بن الحسين فقال [٥٤٣]:

ودُّكَ يكفينيـك في حـاجتي ورؤيـتي كافيـة عـن السـؤالْ
وكيف أخشى الفقرَ ما عشـتَ لي وإنمـا كفـاك لي بيـت مـال

(٥)

وقال العتابي [٥٤٤]:

ولا عَار أن زالت عن الحرّ نعمـةٌ ولكنّ عاراً أن يـزول التجمـلُ
فاخش سـكوتي فطنـا منصـتا فيـك لتحسـين جـنى القائـل
مقالـة السـوء إلى أهلـها أسـهل مـن منحـدر سـائل
و مـن دعـا النـاس إلى ذمـه ذمـوه بـالحق وبالباطـل

(٦)

المناسبة: قال هذه الأبيات بمناسبة عزل طاهر بن علي لسوء تصرفه [٥٤٥]:

يـا صـاحباً متلوِّنـاً متباينـاً فعلـى وفعِلـه
مـا إن أحـبّ لـه الـرّدَى ويسُـرُّنى والله عزلُـه
لم تَعْـدُ فيمـا قلـتَ لي وفعلـتَ بي مـا أنـت أهلُـه
كـم شـاغل بـك عَدْوتَيـه وفـارغٌ مَـن أنـت شـغله

(٧)

وقال في مدح الحسن بن عمران[٥٤٦]:

ناهضتُ [٥٤٧] بالحسَنِ بن عمـران وتنبـهتْ لذكائِـهِ آمـالي
سَـكَتَاتُهُ عِـدَّةٌ و في نطقاتِـهِ تفريـقُ بـين قَـرائن [٥٤٨] الأمـوالِ

([٥٤٣]) الأغاني ١٣ / ١١٧، فوات الوفيات ٣ / ٢٢١، العصر العباسي ٤٢٣ / ٤٢٤.

([٥٤٤]) أمل الآمل ٥٤.

([٥٤٥]) الأغاني ١٣ /١١٩.

([٥٤٦]) كتاب البديع لعبد الله بن المعتز ١٨.

([٥٤٧]) ناهضت به: أي ساعد العتابي على النهوض والوقف بجانب المعاني.

([٥٤٨]) قرائن الأموال: أحاسنها.

لما لجأتُ إلى ذُراك [٥٤٩] وأشرفت عُنُقٌ [٥٥٠] من الحِدثان [٥٥١] قلتُ نَـزالِ

وله في وصف الطيف [٥٥٣]:

ولَّما ٱستقرَّ النَّوْمُ في جَفْـن عَيْنِـهِ وماتَتْ لـه أوصـالُهُ والمَفَاصِـلُ
رَمَتْ غَمَراتُ المَوْتِ رمْياً بنَفْسـهَا وللّيـل سِـتْرٌ حَوْلَهَـا مُتَهـادِلُ
فَأَهْدَى إلَيْنَا اللَّيْلُ شَخْصاً تَنَاسـبتْ إلى الحُسْن مِنْه صُـورةٌ وشَـمَائِلُ
فبانت غَمَامَاتُ النَّعـيم تَجُودنـا لها دِيَمٌ حتَّـى الصَّـباح وَوَابـلُ

(٨)

وقال [٥٥٤]:

صادفت منـه بليغـاً في مواهبـه تعطي يداه تفـاريق الغـنى جمـلا

حرف الميم

(١)

المناسبة: "كان العتابي جالساً ذات يوم ينظر في كتاب، فمر به بعض جيرانه، فقالوا: أيش ينفع العلـم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتابي يقول [٥٥٥]:

يـا قاتـل اللهُ أقْوَامـاً إذا ثَقَفُـوا ذا اللبِّ ينظرُ في الآداب والحكـمِ
قـالوا ولـيس بهـم إلاّ نفاسـتُه أنـافعٌ ذا مـن الإقتـار والعـدمِ
و ليس يَدروُن أنّ الحظّ ما حُرِمـوا لحاهم الله من علـم ومـن فَهَـم

(٢)

وقد أنشد هذه القطعة في الغزل أمام بشار بن برد[٥٥٦]:

أيَصدِفُ [٥٥٧] عن أمامةَ أم يُقـيمُ و عهـدُك بالصّـبا عهـدٌ قـديمُ
أقول لِمُستَعار القَلب عَفَّـى [٥٥٨] على عَزَماتِه [٥٥٩] السّيرُ العديمُ [٥٦٠]

([٥٤٩]) ذراك:أي في كنفك وحمايتك.

([٥٥٠]) العنق: مقدمة الشيء.

([٥٥١]) الحدثان: أول الأمر وابتداؤه.

([٥٥٢]) نزال: عطاء وفضل.

([٥٥٣]) طيف الخيال ٥٤.

([٥٥٤]) المنتحل ٥٢.

([٥٥٥]) الأغاني ١٣ / ١١٨، ١١٩.

([٥٥٦]) الأغاني ١٣ / ١١٣ والشعر و الشعراء ٥٠٧.

([٥٥٧]) يصدف: يعرض.

([٥٥٨]) عفى: طمس.

([٥٥٩]) عزماته: الشدة والثبات في فيما يعزم عليه الإنسان.

أمـــا يكفيـــكَ أنّ دمـــوعَ عـــيني شآبيبٌ [٥٦١] يفيض بهـــا الهمـــومُ
أشِيمُ [٥٦٢] فـــلا أردُّ الطـــرف إلاّ على أرجائِه مـــاءٌ سَـــجُوم [٥٦٣]

(3)

وله [٥٦٤]:

بكى واستَمَلَّ الشّوق مِنْ في حمامة أَبَتْ في غصون الأيك إلا التَرنُّمَـــا

(4)

وقال [٥٦٥]:

وفيتُ كلَّ خليـــل ودَّنـــى ثمنـــاً إلاّ المؤمـــلَ دولاتـــى وأيـــامى

حرف النون

(١)

وله [٥٦٦]:

ولو كان يستغنى عن الشّكر ماجدٌ لعـــزة ملـــك أو علـــو مكـــان
لما أمـــر اللّـــه العبـــاد بشـــكره فقال اشـــكروا لي أيهـــا الـــثقلان

(٢)

وهو يتغزل بالعامرية فيقول[٥٦٧]:

أمَـــا رَاعَ قَلـــبَ العامريـــة أنّـــنى غَدوتُ ومرجوعُ الســـقام قـــرينى
أُكاتِمُ لوعـــاتِ الهَـــوَى ويبينـــها تخَلَلُ مَاء الشَّـــوق بـــين جُفُـــونى
ومطروقةُ [٥٦٨] الإنســـانِ في كـــلِّ لهـــا نظـــرةٌ موصـــولةٌ بحـــنين

(٣)

المناسبة: وَجَدَ عليه الرشيد فاعتذر إليه بهذه الأبيات[٥٦٩]:

أَخِضْنى [٥٧٠] المَقام [٥٧١] الغَمْـــرَ إنْ سنا [٥٧٣] خُلّـــب [٥٧٤] أو زلّـــت

([٥٦٠]) العديم: منقطع النظير.

([٥٦١]) شآبيب: المياه المنصبة جمع شؤبوب.

([٥٦٢]) أشيم: أنظر، وأصله أن يشيم البرق ينظر أين يقصد وأين يمطر.

([٥٦٣]) سجوم: السجوم الكثير.

([٥٦٤]) مشكلة السرقات في النقد العربي ١٤٦.

([٥٦٥]) الكامل ٤ /١٢٧، الشعر و الشعراء دكتور مصطفى الشكعة ٥٠٣.

([٥٦٦]) وردن في عيون الأخبار معجم الأدباء ٢١٤/٦ وقيل أن البيتين للوراق.

([٥٦٧]) زهر الآداب ٦٧٩/٣، ٦٨٠.

([٥٦٨]) مطروقة: أصاب العين شيء فدمعت.

([٥٦٩]) الأغاني ١١٣/١٣.

أتتركُني جَدبَ المعيشــة مقتــرا [٥٧٥] وكفّاك من ماء الندى تَكِفان[٥٧٦]
وتجعلُني سَــهْمَ المَطــامع بعــد مــا بَلَلت يميني بالنّدى [٥٧٧] ولســاني

(٤)

وله في جور الزمان[٥٧٨]:

لقطــتني الــبلادُ، وانطــوت الأكفــاءُ، وملّــني جــيراني
والْتَقَتْ حَلْقــةٌ علــي مِــن الــدَّهْرِ فماجَتْ بكَلْكَــلِ وجِــرانِ [٥٧٩]
نــازعتني أحــداثُها مُنيَــةُ الــنفس وهــدّت خطوبُهــا أركــاني
خاشــعٌ للــهمومِ معتــرفُ ال قلب كئيــبٌ لنائبــات الزمــانِ

(٥)

وقال العتابي[٥٨٠]:

أسجد لِقــرد الســوّءِ في زَمَانــه وإن تلَقــاك بختروانــه [٥٨١]
ولا ســيما مــا دام في ســلطانه

(٦)

وقال[٥٨٢]:

فمــا شــرُّ الثلاثــةِ أمَّ عمــر و بصــاحبك الــذي لا تصــحبينا

وقال: حينما حاز موسى الهادي على الصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

حاز صمصامة الزبيدي عمــر و من جميع الأنام موســى الأمــين
سيف عمرو كــان فيمــا سمعنــا خير ما أطبقت عليه الجفــون [٥٨٣]

---

(٥٧٠) أخضني: أدخلني في النعمة، واجعلني أخوض فيها.
(٥٧١) الغمر: المبالغ في الإحسان.
(٥٧٢) غرني: خدعني.
(٥٧٣) سنا: إضاءة البرق.
(٥٧٤) خلب: السحاب لا مطر فيه..
(٥٧٥) مقترا: يضيق العيش عليه.
(٥٧٦) تكفان: تهميان العطاء.
(٥٧٧) الندى: الكريم.
(٥٧٨) زهر الآداب ١٠٥٧/٤.
(٥٧٩) جران: وطنت نفسها عليه وألفته، أو أنها أحبته فباتت تعاوده، وأصل الجران باطن العنق من البعير وغيره
(٥٨٠) الحيوان ٣٥٥/١.
(٥٨١) ختروانه، بكبره وبطره.
(٥٨٢) الإمتاع والمؤانسة ١٤٣/١.
(٥٨٣) الجفون: مفرده جَفن وهو قراب السيف أو غمده. الممتع في علم الشعر وعمله ١٧٠.

حرف الهاء

(١)

وقال يمدح الرشيد[٥٨٤]:

إمامٌ لـــه كـــفٌّ يضَـــمُّ بنانُهـــا ... عصا الدِّين ممنوعا من البَرْي عودُها
وعَـــينٌ مُحـــيطٌ بالبريّـــةِ طَرْفُهـــا ... سَـــواءٌ عليـــه قُرْبُهـــا وبَعِيـــدُهَا
وأصْمَعُ [٥٨٥] يقظانٌ يَبيتُ مُنَاجيـــا ... لهُ في الحشا مُستَودعَاتٌ يكيـــدها
سميـــعٌ إذَا نـــاداه في قعـــر كُربْـــةٍ ... مُنـــادٍ كفتـــه دعـــوةٌ لا يُعيـــدُهَا

(٢)

وقال في مدح الرشيد [٥٨٦]:

وكنـــتُ أمـــرأً هيابـــة تســـتفزني ... رضاعى بأدني ضـــجعة أُســـتلينُها
أوافي أمـــير المـــؤمنين بهمَّـــةٍ ... توقل [٥٨٧] في نيل المعـــالي فنوقهـــا
رعى أمة الإســـلام فهـــو إمامُهَـــا ... وأدى إليها الحـــق فهـــو أمينُهـــا
ويستنتجُ العقماءَ [٥٨٨] حتّى كأنّما ... تغلغلُ في حيثُ اســـتقرَّ جنينُهـــا
وما كل موصوف له الحق يهتـــدي ... ولا كـــل مـــن أم الصـــوى [٥٨٩]
مقيم بمستن [٥٩٠] العُلاَ حيثُ تلتقى ... طوارقُ أبكار [٥٩١] الخطوب [٥٩٢]

(٣)

وقال يذم رجلاً [٥٩٣]:

فكم نعمـــةٍ آتاكهـــا اللهَ جزْلـــةً ... مبرّأةً من كلِّ خُلـــقٍ يُـــذيمها [٥٩٤]
فسلطت أخلاقـــا عليهـــا ذميمـــةً ... تعاورْهـــا حـــتى تعـــزّى أديمهـــا

([٥٨٤]) البيان والتبيين ٣/٤٠، ٣٥٣، معجم الشعراء ٢٤٤، ثمار القلوب ١٦٧، الشعر والشعراء ٥١٠، زهر الآداب ٣/٦٧٧، العصر العباسي ا لأول ٤٢٢.

([٥٨٥]) الأصمع: الذكي.

([٥٨٦]) الحيوان ٣/٦٣ انفرد برواية البيت الأول، زهر الآداب ٣/٦٧٨، العصر العباسي الأول ٤٢٢.

(٥٨٧) توَقّل: صعد في أروقة الشرف

([٥٨٨]) العقماء، الإبل هي التي لا تلد، ويقصد بها المصيبة العظيمة.

([٥٨٩]) الصوى: العلامات الهادية.

([٥٩٠]) بمستن: مكان الاستنان، وهي سرعة العدو.

([٥٩١]) أبكار: هي التي لم تتزوج، ويقصد بها المعيبة الجديدة التي لم يسبق لها مثيل.

([٥٩٢]) العون: النصف في سنها، أي تمتاز بالقوة والتجارب.

([٥٩٣]) البيان والتبيين ١/١٢٠، بهجة المجالس وأنس المجالس ١/٥٩٧. الروايات: روى الحيوان في البيت الأول: فيكم. البيت الثالث انفرد بروايته الحيوان، وفي البيت الخامس روى الحيوان أعسر بدل أثقل، وروى البيت الرابع المنى بدل المدى.

([٥٩٤]) يذيمها: ذامة يذيمه: عابه.

ولوعاً واشفاقاً ونطقاً مـــن الخنـــا بعوراء يجري في الرجـــال نميمهـــا
وكنت امرأً لو شئتَ أن تبلغَ المدى بلغـــت بـــأدنى نعمـــةٍ تســـديمُها
ولكن فِطامُ النفس أثقـــلُ محمـــلا من الصَّخْرةِ الصماء حين تروقُهـــا

(٤)

وله في الخمر[٥٩٦]:

يـــا ســـاقيا خصـــني بمـــا تهـــواه لا تمـــزج أقـــداحي رعـــاك الله
دعهـــا صـــرفا فـــإنني أمزجهـــا إذا أشـــربها بـــذكر مـــن أهـــواه

(٥)

وقال أيضاً:

ولله في عـــرض الســـموات جنـــة ولكنـــها محفوفـــة بالمكـــاره [٥٩٧]

حرف الياء

(١)

وقال[٥٩٨]:

صوت فودعت الصبا بعـــد كـــبرة و لم أقر ذكراه الـــدموع الجواريـــا
و لم أتفجـــع في بقايـــا شـــبيبة جنت بماضـــيها علـــي الـــدواهيا

وقال [٥٩٩]:

أغـــالي أخـــت المـــالكين نـــولى بما ليس مفقـــودا وفيـــه شـــفائيا
أصارمتي أم العـــلاء وقـــد رمـــى بي النـــاس في أم العـــلاء المراميـــا
أيا إخـــوتي لا أصـــبحْن بِمُضِـــلّة تشيب إذا عدت علـــى النواصـــيا
واتبعته فـــيكم إذا كـــان حقهـــم كما كنت لو كنت الطريد مراديا
وشمر ولا تجعل عليـــك غضاضـــة ولا تنس يا بن المضـــرحيّ بلائيـــا

---

(٥٩٥) نميمها: مثل النميمة.

(٥٩٦) النجوم الزاهرة ١٨٦/٢، الشعر والشعراء مصطفى الشكعة ٥١٨..

(٥٩٧) نهاية الأرب ٨٦/٣.

(٥٩٨) الأنساب المتفقه ١٠٦.

(٥٩٩) الأغاني ١٥٨/٢٠.

الباب الثالث

نثره

تمهيد:

أكثر سكان شبة الجزيرة قبائل عربية ترتحل؛ فهم لا يكتبون ولا يقرأون، إنما هم أميون يحفظون، فالحفظ هو الوسيلة الوحيدة للرواية، والشعر سهل الحفظ، وهو أهون بكثير من النثر.

لذلك كان نثر العصر الجاهلي نثراً قليلاً لم يهتم به الجاهليون أنفسهم، واستمرت الحال حتى جاء الإسلام، فبدأت الرسائل، لكنها اهتمت بالغرض، ويلتزم فيها السجع غالباً[1]، وذلك ناتج عن تعلقهم بالشعر، ثم جاء عهد بني أمية، وثارت العصبيات العربية، فازدهر الشعر وتكونت له مدارس ورواة، ولكن الناس ملوا ذلك بعض الشيء كما يقول الدكتور طه حسين "وكان أهل الخير بالعراق والشام قد سئموا هذا الشعر وملوه، وكان حالهم في ذلك كحالنا نحن عند ما نقرأ شعر الفرزدق وجرير والأخطل، ولا نكاد نمضي فيه ساعة حتى يأخذ منا الملل والسأم الذي لا حد له"[2].

ناهيك عن كثرة الاختلاط بالأمم والاطلاع الواسع على ثقافة الدول المجاورة، ثم إن العرب المسلمين استقروا في البلاد، فعادوا إلى التفكير، فظهرت الحاجة إلى الكتابة المرسلة غير المقيدة، وقد بدأت معالم هذه الظاهرة في العصر الأموي، حيث ابتعدوا عن السجع، بل تركوه عمداً، وإلى ذلك يشير الدكتور زكي مبارك بقوله: "عرفنا الآن أن السجع كان كثيراً في الجاهلية، وكان يغلب على النثر في عصر النبوّة، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلاً في العصر الأموي[3].

وبدأت معالم النثر الفني تظهر بوضوح في أوائل القرن الثاني، وزاد من تجسد هذا النثر أن برز عبد الحميد الكاتب وابن المقفع، فكانا رائدَي هذه النهضة في النثر الفني العربي، وذلك لاستعدادهما وتأثرهما بالكتب اليونانية والفارسية واطلاعهما الواسع على اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

وبعد استقرار الدولة العباسية بدأ النثر الفني ينتشر، وأصبح له رواجاً، وتزايد عدد الكتاب. وهناك ظهرت أمور ساعدت على اتساع أفق النثر الفني في العصر العباسي الأول منها:

١ – وجود التراجم للكتب اليونانية والهندية والفارسية وقد اطلع عليها أكثر الناس.

٢ – درس العلماء والأدباء القرآن الكريم والحديث الشريف والآداب العربية دراسة وثيقة، وأدركوا أساليبها وتأثروا ببلاغة القرآن الكريم، وحاول بعضهم مجاراته، لكنهم عجزوا، ثم عرفوا أساليب الحديث والشعر العربي، وجعلوا الشعر الجاهلي ميزاناً للشعر فيما بعد.

٣ – إقبال أعداد كبيرة من أبناء الموالي والبلاد التي أسلمت على الآداب العربية، فأصبحوا يكتبون نثراً متأثراً بطبائعهم وتفكيرهم وثقافتهم.

---

(1) مأخوذ من النثر الفني، زكي مبارك.
(2) من تاريخ الأدب العربي ٢/٤٣٣.
(3) النثر الفني ١/٩٦.

٤ – الحياة العقلية الجديدة تحتاج إلى أسلوب ليس فيه تقيد ولا ارتباط بموازين وقواف.

إذن فإن النثر الفني، قد تجسد وظهرت معالمه في أوائل القرن الثاني ويعتبر القرن الثاني والثالث من أفضل مراحل النثر الفني، فقد بلغ قمته و لم ينتقل إلى الزخرف والمحسنات والسجع المتكلف.

وقد كان العتابي من الكتاب الذين يمثل نثرهم هذا العصر في عهده الأول. ومن أسباب تقدمه في البلاغة والإجادة في الرسائل والمحاورة حلّه المنظوم، فقد قيل له: "بما قدرت على البلاغة؟ فقال: بحل معقود الكلام".

ومن الأسباب الأخرى معاصرته للنزعة الكلامية، بل إن بعض الكتاب يعده من أصحاب هذه النزعة، ويجعله معتزلياً، ولا نشك في ثقافته الكلامية فهو قد عاصر المناظرات الساخنة التي تدور بين الفرق الدينية، بل وخاض فيها، وهؤلاء لم تتح لهم هذه البراعة حتى درسوا العلوم الإسلامية دراسة واعية، وتتبعوا أصول البلاغة من الهند واليونان وفارس، كما تتبعوا أصول الفلسفة وأدركوها، وهذه المناظرات التي مدت اللغة العربية بكثير من المعاني كما يقول الدكتور شوقي ضيف: "وفي الحق إنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرة العقل العربي إلى أبعد غاية، فقد أمدوه بسيول من دقائق المعاني وخفيات البراهين، وجعلوه عقلاً جدلياً ما يزال ينقب عن خبيئات الأفكار، وما يزال يجلب من أعمق الأعماق دررها الباهرة"[1].

ومن هذه الأسباب أسفاره التي علمته الحياة، وأطلعته على ظروف المجتمعات وكيف يتعايشون، فيلقى الصالح والطالح، فيتعامل مع هذا ويتعامل مع ذاك، فأدرك كيف يعامل الناس، ويجاريهم في حياتهم، كما ساعدت على انطلاق لسانه واتساع أفقه العقلي ومداركه وتصوراته وخيالاته.

ومنها اتصالاته بالخلفاء والأمراء وعلية القوم، فقد زادته علماً، وزادته استعداداً للقاء، وزادته هيبة، فعرف كيف يخاطبهم، وأصبحت كلماته يحفظها كل راوية، ويدونها كل مؤلف، وقد أعجب به الأمراء، وأوصوا بحفظ ما يقول، كما قال يحيى بن خالد لأبنائه:

" إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي، فضلاً عن رسائله وشعره، فلن تروا أبداً مثله".

ومنها ثقافته العالية الواسعة الشاملة، فهو عالم في اللغة العربية وبلاغتها، وعالم بالفارسية وأفكارها، مطلع على العلوم الشرعية. لذا تجده يجيد كتابة النصائح للقضاة والإخوان بأفكار بنائه.

والعتابي استفاد من علم الكلام والمتكلمين والمناظرات التي تدور في ذلك العصر، بل وشارك فيها، لكن شهرته نبعت من خلال بلاغته في الحوار والحكم والأقوال الصائبة التي تصدر عنه إلى جانب الرسائل الإخوانية التي تعبر عن كوامن النفس الإنسانية، وعن تجاربه في هذه الحياة، وعن تلون الناس بين الإخلاص والنفاق.

والعتابي طرق أكثر فنون النثر في العصر العباسي فهو كاتب بليغ، وهو خطيب مؤثر، ومناظر ماهر، وله الحوار المقنع إلى جانب الأقوال المأثورة التي تنم عن عقل بارع، ولسان طلق.

ونحن في هذه الدراسة عن نثره نحاول أن ندرس بعض نصوصه، لنصل إلى معالم فنه النثري، ونضعه في منزلته.

---

(1) العصر العباسي الأول ٤٦١.

الفصل الأول

ألوان نثره

أولاً: الرسائل.

ثانياً: الحوار والأقوال المأثورة.

ثالثاً: خطابته.

أولاً: رسائله:

كان لاتساع الرقعة الإسلامية وانصهار عادات وتقاليد وأفكار وتراث هذه الأمم في بوتقة واحدة وتوحيدهم على عقيدة واحدة أيضاً كبير الأثر على ثراء الفكر وكثرة الجدال والحوار، وحاجة كل فرد إلى الكتابة بأسلوبه على قدر مستواه، وأكثرهم يعجز عن الكتابة بالشعر، بل إنه لا يفي بالغرض، لذا لجأ الناس إلى بعث الرسائل والعناية بها حتى تعوض عن فصاحة الشعر وتأثيره.

ثم إن الأمور التي جعلت الشعر ديوان الجاهليين، فقد فقدت أهميتها، ومن ذلك سهولة الحفظ، حيث لم يكن كتابة ولا تدوين ولا ورق في العصر الجاهلي، بينما في العصر العباسي بدأ التدوين، وسهل الحفظ في السطور، بل كثرت دكاكين الوراقين، مما جعل الاعتماد على التدوين أكثر منه على الحفظ، بل اقتصر هدف الحفظ على المتعة وتنمية المعلومات والدُّرْبة، فأصبح الناس لا يبالون هل القول بالشعر أم بالنثر، إنما الهدف هو الإجادة والبلاغة في الأسلوب. وما دام الأثر يحفظ ويظهر الإعجاب به ويلقى التأييد فإننا واجدون من يتجه إلى النثر الفني للتعبير عن مشاعرهم وعواطفهم كالذين يعبرون عن هذه المشاعر والعواطف بالشعر.

ثم إن المشتغلين بالمعارف زاد عددهم بل يكاد يعم الأمة كلها، فهل يعقل أن تتعامل هذه الأمم بالشعر حتى لو كان ذلك في التعبير عن عواطفهم، لذلك برز أكثرهم في الرسائل، وأجاد فيها، واستعمل الأغراض التي تستعمل في الشعر.

ثم إن الرسائل أيسر وأبسط، وهي أقدر وأوسع للمعاني، فيستطيع الكاتب إذا عرض لمسألة من المسائل أن يتناولها من جميع وجوهها دون أن تقف في وجهه قيود ولا حدود، ومن ثم تشع تلك الأفكار وتزداد دقة كلما سهل على الكاتب صياغتها.

ثم إن النشاط العقلي الذي نما عن طريق دراسة التراث، والاطلاع الواسع على الكتب المترجمة من الهند واليونان والفرس، وتسابق الناس على هذه العلوم سواء كانت في الفلسفة أو الرياضيات أو الفلك أو الطب أو الحكمة وغيرها أثرى العقل، فشرع المثقفون يكتبون زبدة هذه الأمور، ويزيد الكاتب عليها بما وهبه الله من عقل تكوّن عنده من حكمة وتجارب، فغذى ذلك النثر الفني ببنات الأفكار.

لقد كانت هذه العوامل سبباً لإيجاد الرسائل، وقيض الله لها كتاباً ينهضون بالمهمة، ويفتحون الباب

بأطيب الأقوال وأحسنها، مما جعلها تلقى قبولاً حسناً وإعجاباً بها، فسارع الشباب إلى التعبير عن عـــواطفهم بالكتابة، وتنافسوا على إجادتها، حتى أصبحت تنافس الشعر وتسير معه المنكب حذو المنكب، فيقنع بها العقل ويهتز لها الشعور والوجدان، فطرق رواد الرسائل الأغراض الخاصة بالشعر كالمدح والهجاء والعتاب والاعتذار وغيرها، و لم يسبق أن استعمل فيها النثر الفني في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، وقد أشار الدكتور طـــه حسين إلى ذلك بقوله(٦٠٠):

"وبعد أن كان المدح والهجاء والرثاء أموراً لا تتجاوز الشعر، طمع فيها الكتاب فمـــدحوا، وهجـــوا، وعاتبوا، ورثوا، ووصفوا فأكثروا من الوصف، ومن وصف أشياء لم يكن الشعر يعرض له.

ثم عندما تناولوا هذه الفنون، التي كانت في أول الأمر مقصورة على الشعراء بسطوها بسطاً يفوق مـــا كان مألوفاً في الشعر".

وقال الدكتور شوقي ضيف في الرسائل الأدبية(٦٠١):

" ونقصد الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة، ومن مديح وهجاء، ومـــن عتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة واستمناح ورثاء وتعزية، وكانت هذه العواطف تؤدى في العصر الأموي بالشعر، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم"

والدليل على أن العصر العباسي لم يكتف بالشعر لتصوير العواطف والمشاعر ما نراه في أديبنا العتابي، فهو شاعر مجيد، وعنده استعداد كبير على قرض الشعر، ولكن هل أغناه الشعر عن استعماله للنثر الفني؟ نقول: لا، بدليل وجود رسائل فنية له كثيرة وصل بعضها وضاع الكثير منها، ورسائل العتابي التي وصلت لنا نستطيع من خلالها معرفة سماتها الفنية في كل غرض من الأغراض التي كانت خاصة بالشعر، وعلينا أن نقتطـــف بعـــض الأمثلة لكل غرض لنرى ملامح سماته التعبيرية في كل فن. فهو يمدح أحد الأمراء برسالة موجزة في ألفاظهـــا، لكنه أكمل معالم المدح، حيث مدحه بمفاخر قومه وعدد مناقب الممدوح ذاته، ثم بين منزلته بين قومه، وأخيراً يذكر حرصه وحمايته وأمانته على تلك الأمجاد فيقول:

"أنت أيها الأمير، وارث سلفك، وبقية أعلام أهل بيتك، المسدود به ثلمتهم، المجدد به قديم شرفهم، المحيا به أيام سعيهم، وإنه لم يخمل من كنت وارثه، ولا درست آثار من كنت سالك سبيله، ولا امّحت أعلام مـــن خلفته في رتبته".

إنه مدح واقعي يسبي العقول والقلوب، إنها معان هي منتهى ما يبتغيه الإنسان، فوجه إليه الخطاب "بقوله أنت " فهو تخصيص زيادة على توجيه الكلام له، فهو الوارث لسلفه في كل أعمالهم الخيرة، ثم إن من هـــؤلاء السلف العالم الشجاع والكريم، فأنت ورثتهم وجمعت صفات أشخاص متعددين. ولاسيما وقد أصبح ورثتهم سواك ثمالة لا فائدة فيهم، فأنت الوحيد الذي خلدت أسرتك، بل وشرف بك خلفك وخلدوا من أجلك.

إنها قطعة جميلة موجزة بعيدة عن التكلف زاخرة بالمعاني الجميلة الواقعية، ونلتمس منها الثقافة وحبه لهـــا من خلال وصفه للممدوح بالعلم والاطلاع.

ثم نرى له رسالة أخرى موجزة في المدح، وكيف يعطي صورة عظيمة لنوال الممدوح تزخر بـــالخيرات،

---

(٦٠٠) من تاريخ الأدب العربي: ٤٥٣/٢.

(٦٠١) العصر العباسي الأول ٤٩١.

بل إن خيره ليس خاصاً بالعتابي، فهو يعم أكثر الناس حيث يقول[٦٠٢]:

"أما بعد، فإن سحب وعدك قد أبرقت، فليكن وَبَلُها [٦٠٣] سالماً من علل المطل، والسلام".

فإنك تراه واجهه بالمدح القوي، ثم أعقبه بالتحذير من المطل [٦٠٤] حتى يضع ممدوحه أمام الخجل المحدق به.

وأكثر ما يلفت انتباهنا في هذه المدحة الإيجاز الجميل، ثم التصوير الذي يجاري تصويره في الشعر، وهذا يدل على منافسة النثر الفني للشعر في هذا الغرض الخاص به.

وله رسالة إلى أحد الأمراء يمدحه فيها ويعرض له بالعطاء، بل وكأنه يفتخر فيها ببلاغته وإجادته وإيجازه فيقول [٦٠٥]:

"من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع فيك، وانحاز إلى نواحيك، لم يخش المطنب [٦٠٦] في الثناء عليه أن يكون مفرطاً، كما لا يأمن أن يكون مفرطاً، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ استحقاقك من التفريط أولى من الإطناب الذي غايته التقصير ومآله إلى الحشو".

ومن الأغراض التي طرقها في رسائله الأدبية الإخوانيات، فهو يضع معالم للحفاظ على الصديق ورعايته والحرص على الصديق وماله، ومن ذلك رسالته لصديق له يقول فيها [٦٠٧]:

"أما بعد: أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نحميها من النجعة [٦٠٨]، استتماماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة [٦٠٩] من سني يوسف، واشتد علينا كَلَبُها [٦١٠] وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنك تغطي عين الحاسد، والله يعلم أني ما أعّدك إلا في حومة الأهل، واعلم بأن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل، ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته وأنا أقول في ذلك:

ظِلُّ اليسار على العباس ممدود ... وقلبه أبداً بالبخل معقود [٦١١]

إن الكريم ليخفى عنك عسرته ... حتى تراه غنياً وهو مجهود

وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

إذا تكرمت عن بذل القليل ولم ... تقدر على سعة لم يظهر الجود

بث النوال ولا تمنعك قلته ... فكل ما سد فقراً فهو محمود

وقد أثرت هذه الرسالة في قلب صديقه أكبر تأثير، واهتزت أريحيته لها، لذا فقد قسم ماله مشاطرة حتى نعله ونصف خاتمه.

---

(٦٠٢) جمهرة رسائل العرب ٣٩٨/٣.

(٦٠٣) الوبل: العطاء الكثير.

(٦٠٤) المطل: منع العطاء.

(٦٠٥) معجم الأدباء ٢٦/١٧، العتابي ١٠٨.

(٦٠٦) المطنب: أصلاً من أقام الخيمة بالطنب إشارة إلى المكوث، وهنا من أقام بباب الممدوح.

(٦٠٧) جمهرة رسائل العرب ٣٩٨/٣، ٣٩٩، الأمالي لأبي علي القالي.

(٦٠٨) النجعة: قصد ذي المعروف لأخذ نواله.

(٦٠٩) القطعة: قطعة الشيء أو شقيقته.

(٦١٠) الكلب: الأذى والشر.

(٦١١) معقود: محجوب عنه.

إنها رسالة أخوية صادقة، فقد بدأ بالدعاء الصادق بالوصف الذي جعل ممدوحه يهيمن على قلوب الأصدقاء.

فهم لا يطلبون منه مالاً ولا مساعدة، وذلك حفاظاً عليه وشفقة، بل حتى تكتمل تلك الشجرة وتزدهر.

وها هو يُصاب بسنين كلها جدب وقحط، فيحتاج إلى من ادخره بسبب تلك السنين التي عضت بنابها، وتلاشت غيومها، وذهبت بالمال وصالح الناس معها.

ثم يذكر أنه شديد الشفقة مع هذا الطلب، فكأنه يأخذ من ماله فأنت الأهل والصاحب.

ثم يختمها بأبيات سهلة ذات أسلوب رشيق فريد.

وقد ظهرت معالم الصنعة في هذه القطعة واضحة جلية لكنها غير متكلفة، فانظر إلى معالم السجع في القطعة وإلى المقاطع الرتيبة.

ومن الأغراض البارزة في شعر العتابي الاعتذار، وهو إلى جانب إجادته لهذا الغرض في الشعر فإنه أجاد فيه بالنثر، فهو يدق في هذا الغرض على أوتار النفس الإنسانية، فتلين وتعود إلى الصفاء والود، ومن ذلك قوله:

١ – "دعيت إليك ونفسي رهينة بشكرك، ولساني علق بالثناء عليك، والغالب على ضميري لائمة لنفسي في الإبطاء عنك، واستقلالاً للجهد في مكافأتك، وأنت – أعزك الله – في عز الغنى عني، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من متشابه أخلاقك أن تولي جانب النَّبْوَة [٦١٢] منك، من هو عان في الضراعة إليك".

إنه الأسلوب الأجود في الاعتذار، فهو يبين منزلة صاحبه ويعترف بفضله، ثم يبين حالته بعد فراقه له ذلك، ثم يتلمس العذر بأن يدعوه إلى تلافي تلك النبوة التي ارتكبها.

٢ – وله في الاعتذار أيضاً [٦١٣]:

"إن أقل من بلائك عندي يستغرق ثنائي، وأقل من تأميلي إياك يعفي على ما كان مني، وليس لك – مع فضلك ورجائي تجاوزك – سبيل إلى قطيعتي".

وهذا أسلوب آخر في الاعتذار، فهو مخالف للأسلوب في الرسالة السابقة عندما يعترف بفضله كله، والخطأ أيضاً، لكن صاحبه في منزلة فوق ذلك كله، فليس من شيمه وأخلاقه أن يعتب لمثل هذه الأسباب القليلة.

ومن الأغراض الأخرى العتاب، فانظر إليه كيف يعاتب صديقه بقوله [٦١٤]:

"إما أن تقر بذنبك فيكون إقرارك حجة علينا في العفو عنك، وإلا فطب نفساً بالانتصاف منك، فإن الشاعر يقول [٦١٥]:

اقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزنا ... عنه فإن جحود الذنب ذنبان

"إن الرجل العاقل من يحسن التعامل، ويجمع الأصدقاء، ويعمل على رضا الناس ومصاحبتهم بالحسنى، حتى يكون ضميره مرتاحاً، ويشعر بالسعادة، ويبتعد عن الحقد والحسد، فإنهما يحرقان صاحبهما، ولا يجلو

---

(٦١٢) النَّبْوة: الابتعاد.

(٦١٣) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠.

(٦١٤) الأغاني ١٣/١١٥.

(٦١٥) أرجح أن يكون البيت للعتابي نفسه.

ذلك إلا العفو عن الهفوات، وتبادل الزيارات"، كما يقول في رسالة بعث بها يعاتب صديقاً له [٦١٦]:

"لو اعتصم شوقي إليك بمثل سَلْوِك عني، لم أبذل وجه الرغبة إليك، و لم أتجشم مرارة تماديك، ولكن استخفتنا صبابتنا، فاحتملنا قسوتك لعظيم قدر مودتك، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه، ولشوقنا من إبطائه".

وله رسائل لها أغراض متعددة، فقد قال في الهجاء[٦١٧]:

"تأتينا إفاقتك من سكرتك، وترقبنا انتباهك من رقدتك، وصبرنا على تجرع الغيظ فيك، حتى بان لنا اليأس من خيرك، وكشف لنا الصبر عن وجه الغلط فيك، فهأنا قد عرفتك حق معرفتك، في تعديك لطورك، واطراحك حق من غلط في اختيارك".

وهذه القطعة من معالم السجع في النثر الفني في أبيات القرن الثاني الهجري.

وله في الوصايا [٦١٨]:

"حامل كتابي إليك أنا، فكن له أنا، والسلام".

وله في التعزية [٦١٩]:

"إن أشد من المصيبة حرمان الأجر فيها والحسبة، وقد ذهب منك ما رزئت، فلا يذهب منك ما عوضت. قال الشاعر:

وعوضت أجراً من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

وهذا البيت أرجّح أنه من نظم العتابي.

ثانياً: حواره وأقواله المأثورة:

العتابي رجل عالم له احترامه بين طبقات المجتمع العباسي، وذلك لاختلاطه بهم، فقد نشأ في البادية وبين قبيلته، ثم تنقل في حواضر الدولة الإسلامية، فصادق العلماء وجالس الأمراء والوزراء وزار الخلفاء وحادثهم، ولهذا نجد نثره يخاطب هذه الطبقات بما تفهم وما يهمها وما يعجبها: فتارة يخاطب الخلفاء والأمراء وحاشيتهم، وتارة يخاطب الإخوان والأصدقاء، وأخرى يعاتبهم، وتارة يهجوهم، ومرة يسخر.

والعتابي ذلك الرجل المثقف الزاهد في المال، البدوي الشهم، صاحب الهمة العالية، والطموح الذي لا ينضب، والإحجام الذي يلام عليه، كل هذه الصفات التي يكاد يضاد بعضها بعضاً فإنه يحتويها هذا القلب الكبير، لذا نجد له مواقف متعددة متضادة، فحينما يخاطب الخلفاء والأمراء والقادة والعلماء والقضاة، تجده مرة مادحاً، وأخرى مرشداً، ومرة مخاطباً الند للند، وأخرى مستجدياً ومسترحماً، وهكذا كما يتضح من خلال دراستنا لبعض أحاديثه وحواره وأقواله المأثورة:

ومن ذلك قوله للرشيد حينما غضب عليه فدخل مع المتظلمين بغير إذن، فمثل بين يدي الرشيد وقال له

([٦١٦]) جمهرة رسائل العرب ٣٩٧/٣.

([٦١٧]) جمهرة رسائل العرب ٤٠٠/٣، ٤٠١.

([٦١٨]) جمهرة رسائل العرب ٤٠١/٣.

([٦١٩]) جمهرة رسائل العرب ٤٠٠/٣.

:[٦٢٠]

"يا أمير المؤمنين، قد آذتني الناس لك، ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائن لنفسي كنت، لو أعانني عليك الصبر".

[٦٢٠] الأغاني ١٣/١١٣.

وفي ذلك أقول:

أخضنى المقام الغَمْرَ إن كان غـــرني سنا خلـــب أو زلـــت القـــدمان
أتتركنى جـــدب المعيشـــة مقتـــراً وكفّاك من مـــاء النـــدى تكفـــان
وتجعلنى ســـهم المطـــامع بعـــدما بللـــت يمـــينى بالنـــدى ولســـاني

قال: فأعجب الرشيد قوله، وخرج وعليه الخَلِع،وقد أمر له بجائزة، فما رأيت العتابي قط أبســـط منـــه يومئذ".

فلتنظر معي إلى الإيجاز البليغ والمعنى الدقيق في قوله: "قد آذتني الناس لك ولنفسي فيـــك"، فهـــو يبـــدأ بالتأييد للخليفة، وأنه على حق في تصرفه، وهذا اعتراف منه ذاته، ثم إن الناس يشار كونك ذلـــك، فقلـــوبهم معك مشدودة إليك، الكل يعاتبني فيك ويلومني بشدة على خطيئتي، ثم يعللون ذلك بأنه لصالح نفسي أيضـــاً، فقد سامني الهجران وأتعبني السفر وهجرني الإخوان كما يقول كعب بن زهير [٦٢١]:

وقال كلُّ صـــديق كنـــتُ آملـــه لا ألهينـــك أني عنـــك مشـــغول
فقلت: خلوا ســـبيلى لا أبـــالكم فكل ما قـــدر الـــرحمن مفعـــول

فالخسارة والشقاء والمشقة واقعة عليّ لا تنقص منك شيئاً. كل هذه المعاني الطويلة موجزة في قولـــه: "قد آذتني الناس لك ولنفسي فيك".

ثم يصل حديثه بالناس الذين يلجؤون للرشيد، ويوضح بأنه لم يقتصروا على عدم إغاثته وإعانتـــه، بـــل كانوا في صفِّ الرشيد، فعملوا على أذى العتابي "وردني ابتلاؤهم إلى شكرك".

ثم يعود إلى حالته النفسية محللاً لها ومخبراً بما توسوس، به فكان يحدث نفسه بأن يستبدل صاحب نعمتـــه بآخر، لكنه حينما يقارب البديل بالمبدل منه يجد أن الربح بجانب الرشيد سواءً من الناحية الماديـــة أو القيمـــة المعنوية، و"ما مع تذكرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائن لنفس كنت".

ومع هذه الكلمات البليغة والمعاني المبتكرة الدقيقة فإني أخالفه في جملته الأخيرة في قوله: "لو أعانني عليك الصبر"، فإنها تدل على أن الرشيد قد اعتدى عليه وأذاه، فصبر العتابي على ذلك، وهذه مواجهة صعبة لا تليق بهذا الموقف ولا تناسبه، وأغلب الظن أنها لم تفت على الرشيد، لكن تأثره بأول الكلام غطى على ما بعـــده. والذي أراه أن الصبر هنا الابتعاد، أي يصبر عن الذهاب للرشيد لأنه في قوله كنتُ يقصد نفسه.

إذن فهي كلمات مؤثرة معبرة عن حالة العتابي ذات معانٍ دقيقة عميقة مبتكرة، وأتصور أن العتابي أعدها قبل لقاء الرشيد.

٢ – دخل على الرشيد فقال: تكلم يا عتابي. فقال[٦٢٢]: "الإيناس[٦٢٣] قبل الإبساس [٦٢٤]، لا يُمـــدح المرءُ بأول صوابه ولا يُذم بأول خطئه، لأنه بين كلام زوره، أوعيٍّ حصره".

حقاً إنها حجة مقنعة، فأول لقاء له ظروفه الصعبة، فلا يُحكم على الشخص من خلاله.

([٦٢١]) سيرة النبي لابن هشام ١٦١/٤.

([٦٢٢]) زهر الآداب ٦٧٥/٣.

([٦٢٣]) الإيناس: الأنس والطمأنينة..

([٦٢٤]) الإبساس: استدرار الكلام من قولهم أبس بالناقة، إذا دعاها للحلب.

وكما اتصل بالرشيد فقد اتصل بابنه المأمون الخليفة العلامة، وكانت فيه معرفة مسبقة قبل الخلافة، لهذا استدعاه المأمون ليحضر مجالسه، وليكون أحد أصحابه فأعجب المأمون به، كما روى ذلك الأغاني [٦٢٥] "كتب المأمون في إشخاص كلثوم بن عمرو العتابي، فلما دخل عليه قال له: يا كلثوم، بلغتني وفاتك فساءتني، ثم بلغتني وفادتك فسرتني.

فقال له العتابي: يا أمير المؤمنين، لو قسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتها فضلاً وإنعاماً، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أمنية، ولا يبسط لسواه أمل، لأنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك، فقال له: سلني. فقال: يدك بالعطاء أطلق من لساني بالسؤال. فوصله صلات سنية وبلغ به من التقديم والإكرام أعلى محل".

فانظر إلى هذا الجواب المباشر واتزانه ورده للخليفة الرد المناسب، مما جعل الخليفة يرضى عنه ويكرمه.

كان العتابي يحضر مجالس يحيى بن خالد البرمكي ويكون موضع الاحترام والتقدير، وفي بعض الروايات أن البرامكة هم الذين وصلوه بالرشيد، والذي لاريب فيه أنهم شفعوا له عند الرشيد مرات، ومما قاله العتابي في حضرة خالد بن يحيى البرامكي ما رواه الأغاني:

"كلم العتابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى: لقد ندر كلامك اليوم وقل. فقال له: كيف لا يقل وقد تكنفني ذل المسألة، وحيرة الطلب، وخوف الرد؟ فقال: والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده، وقضى حاجته".

فانظر كيف رسم صورة متحركة له أمامنا الآن، فكيف تأثيرها في السامع منه؟ فقد رسم نفسه بذل المسألة وثانياً حيرة الطلب وثالثاً بخوف الرد، وكلها عوامل نفسية مثيرة محيرة. ويكفي هذا النص شهادة قول يحيى بن خالد له: "والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده".

وكان يرى أن العيب في السياسة في البطانة؛: فهل يقدر أولئك الأمراء والوزراء على اصطحاب أفضل الناس وأطيبهم الذين لا يتورعون عن كلمة الحق، ولا يهدفون هدفاً مادياً، فيقول [٦٢٦]:

"ما يعين على العدل اصطناع من يؤثر التقى، واطراح من يقبل الرشا، واستكفاء من يعدل في قضية، واستخلاص من يشفق على الرعية".

وسئل مرة أخرى عن عدم إقباله على السلطان والأمراء، فأجاب إجابة تلفت انتباههم إلى عمل الخير، ويدلهم على سيئاتهم في قوله [٦٢٧]:

"سئل مرة: لم لا تقصد السلطان فتخدمه؟ فقال: لأني أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب، ولست أرجو منه مقدار ما أخاطر به".

ونحن فيما تقدم عرفنا العتابي ومنهاجه في الرسائل، لكن نحن الآن معه في أقواله، وفي مواجهته لأصدقائه وجلسائه وتعامله مع المجتمع وجهاً لوجه.

([٦٢٥]) الأغاني ١١٤/١٣.

([٦٢٦]) لباب الآداب ٥٥، العتابي ٩٥.

([٦٢٧]) محاضرات الأدباء للراغب ٩٢/١.

١ – فقال العتابي لصاحب له [٦٢٨]:

"ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوة، كامل المروءة، إذا غبت خلفك، وإذا حضرت كنفك، وإذا أنكرت عرفك، وإذا جفوت لاطفك، وإذا بررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كف عنك غرب [٦٢٩]العادية، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته استرحت".

فانظر إلى العبارات فإن كل واحدة تحتاج إلى صفحات من الشرح والإطالة، لكن العتابي كفانا ذلك بكلمات قليلة مؤثرة، وركز على أمور هي أسس الصداقة والمحبة، بل إنه سبر أغوار النفس، وأوصى بما يناسبها في الأمور التالية، كما تجده من نصحه:

١ – أوصى بالكرم، وبه ينال رضا الناس سواء كان مادياً ومعنوياً.

٢ – كما أوصى بالمروءة، فهي من الصفات العربية الأصيلة التي يعتز بها الإنسان.

٣ – أوضح أن من صفات الصديق المخلص أن يخلفك فيما هو صالح لك يقوم به كأنك حاضر.

٤ – ثم إذا حضر أحاطك بالحنان والود والإخلاص.

٥ – ثم يقوم لك بالنصح وإرشادك إلى الصواب.

٦ – ثم إذا جفوته تناسى، والتمس الأعذار لك فيلاطفك، كما يقول بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

٧ – الإحساس والاعتراف بما تسديه إليه.

٨ – ثم هو يزيد صداقة الصديق الآخر لك، ويستزيده في عطاء المعروف لك.

٩ – ثم يعمل لصالحك إذا لقي عدوك.

١٠ – ثم إذا عمل هذه الأعمال فإن النفس تبتهج بمجرد رؤيته، فتكون هاشًّا باشًّا له.

١١ – وحالة نفسية أخرى فإن صديقك هو الذي بثثته ما كمن في قلبك، وتأمنه على ذلك.

١٢ – امتاز هذا النص بالتجميل بالسجع، ثم بتألق العبارة ذات الموسيقى والإيقاعات الموحدة، وذلك لقصر النص.

ثم هو يتوصل إلى طريقة حكيمة يجب أن يتعامل بها كل واحد، يتساوى فيها الغني الفقير، ولا تتطلب تكلفة، وذلك حينما يقال له:

إنك تلقى العامة ببشر وتقريب. فيجيب هذه الإجابة التي تجمع الحكمة إلى البساطة والدهاء إلى السماحة: "رفع ضغينة بأيسر مؤونة واكتساب إخوان بأهون مبذول" [٦٣٠].

وهو ينظر إلى الناس بمنظار العقل، فلابد من عيوب في كل إنسان، وإن كان بعضها أهون من بعض، فقد سئل: هل تعلم أحداً لا عيب فيه؟

"فقال: إن الذي لا عيب فيه لا يموت أبداً، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس" [٦٣١].

ثم هو لا يكتفي بالوصف الحسن للصديق، بل يصف صديق الشر حتى يتجنبه الناس، فيقول [٦٣٢]:

([٦٢٨]) الصداقة والصديق ٢٢.

(٦٢٩) غرب العادية: حِدَّتها.

([٦٣٠]) تاريخ بغداد ٤٨٩/١٢.

([٦٣١]) العقد الفريد، العتابي ٩٥.

"شر الإخوان من إذا وجد مادحاً مدح، وإن وجد قادحاً قدح، وإن استودع السر فضح".

كما يمتاز هذا النص بالسجع الواضح.

وقد تحدث عن المران والممارسة وأنهما تصقلان اللسان وتعوّدانه على فصيح الكلام، لكن إذا ظل مدة دون قراءة. ونُطق صحيح فيصعب عليه العودة إلى النطق الفصيح، وقد تبين ذلك بقوله:

"إذا حبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف"[٦٣٣].

وقال في التأليف ونقده:

"من قرض شعراً، أو وضع كتاباً، فقد استهدف للخصوم، واستشرف للألسن، إلاّ عند من نظر فيه بعين العدل، وحكم بغير الهوى، وقليل ما هم".

وقد قال حكماً كثيرة يتعلق بعضها في العلم كمثل قوله:

"الأقلام مطايا الفطن [٦٣٤] ". فإن الذي يمارس الكتابة تشحذ أفكاره، وتتوارد عليه الأفكار، ويستخرج أفكاراً جديدة.

ومن هذا يتضح أن المحادثة والأقوال الحكيمة والحوار والمخاطبة كلها تمثل مواقف متقاربة فيها ميزة المواجهة، وفيها البداهة والمبادرة، وفيها الإحراج، وفيها عدم التفكير وعدم إتاحة الفرصة للتغيير والتبديل، لذا نجدها صعبة، وتحتاج إلى علم غزير، واستعداد فطري كبير، وذكاء متقد، وبلاغة مؤثرة، وفصاحة ساحرة.

وقد وجدنا الأقوال بأنواعها كثيرة في نثر العتابي، فهو يقابل الخليفة ويقابل الوزير ويقابل الأمراء الشعراء ويجالسهم ويجيب على أسئلة كل منهم.

وقد وجدنا للكلمات صدى واسعاً وقيمة كبيرة وأثراً فعالاً، لذا اهتم بها الأدباء والعلماء، فحفظوها في الصدور والسطور، وكثير من العلماء والأدباء لهم أقوال كثيرة، لكن لم تحفظ كما حفظت أقوال العتابي، وأظنها حفظت للمميزات التالية:

١ – للحكمة فيها والحجة المقنعة والمنطق السليم.

٢ – الإيجاز، فهو يختصر كلامه، ويجعله في كلمات معدودة حتى يبتعد عن الوقوع في الخطأ والثرثرة، وحتى يسهل حفظها ونقلها.

٣ – قلة كلامه في كثير من المجالس، وذلك حتى لا يمل منه الجلساء.

٤ – العقل الراجح في أقواله، فهي منطقية سددت الأبواب والمنافذ.

٥ – الثقافة الواسعة التي يتسم بها، فاطلاعه على الفارسية فضلاً عن إجادته للعربية كونت عنه عقلية منطقية، وأكسبته خبرة في هذه المواقف.

٦ – امتاز بالإجابة الفخمة والرد القاطع، وربما تأثر بآراء المعتزلة ومنطقيتهم وقوتهم في الرد.

٧ – احتكاكه مع طبقات المجتمع، وبهذا نقل لنا بيئة تلك المجتمعات ومحادثاتهم، وصورها لنا من خلال أقواله ورسائله، وأدرك كيف يخاطب كل مجتمع.

([٦٣٢]) غرر الخصائص الواضحة ٤٧١، العتابي ٩٥.

([٦٣٣]) العقد الفريد ٣٧٥/٢، العتابي ٩٤.

([٦٣٤]) العقد الفريد، العتابي ٩٥.

وفي ختام الكلام عن المحاورة للعتابي ننقل إليك أيها القارئ ما كتب عند الدكتور النجار حتى يزيد الأمر وضوحاً[٦٣٥]:

"ثم يبقى بعد ذلك القول عن العتابي اللسان الفصيح، وهو يحاور أو يجيب في مجال الخلفاء والوزراء والولاة، حتى قيل إنه كان عذب الكلام، حسن الإشارة، مع فصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة، وحلاوة المخاطبة، مع بديهة حاضرة، ونادرة عذبة، تذكر بفصحاء الأعراب الذين عمرت بنوادرهم مجالس القوم ونواديهم، و لم يكن العتابي ليخالف عن طريقتهم وصدق لهجتهم، وجرأتهم لأنه منهم وربما فيهم، وغذي بلبانهم، ونهل من معين فصاحتهم، وقد امتازوا بخفة الروح، وصفاء الفطرة وحدة الذكاء، ولعله من أجل ذلك عمرت كتب التاريخ الأدبي بأقوال العتابي في مجالس الرشيد والبرامكة، ثم المأمون وطاهر بن الحسين وابنه عبدالله، وفي مطارحته مع رفقائه من الشعراء والكتاب، وهذا الجانب مكمل للعتابي الشاعر المرسل ابن الصحراء التغلبي، الذي أهلته ثقافته ليقوم مقاماً لدى البرامكة يلقى فيه كل تبجيل وتقدير".

ثالثاً: خطابة العتابي:

والعتابي إلى جانب كونه شاعراً وكاتباً فإنه خطيب أيضاً، حيث اشتهر بفصاحة اللسان والتأثير على السامعين، ولا نشك أن له خطباً كثيرة في مواقف متعددة، لكن أكثرها ضاع كما ضاعت كتبه التي تدون، ولا يوجد لدينا من خطبه إلا ما يدل على وجود هذا الفن لديه، فقد روى الأغاني عن الحسن بن علي قال: حدثنا ابن مهرويه، قال: حدثنا عثمان الوراق، قال[٦٣٦]:

"رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لوكنا في دار فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر. فقال فوعظ وقص ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه، ويقدره حتى يبلغها أم لا. فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟"

ومن هذه القصة نستدل على قوة تأثيره في السامعين، حيث اجتمع حوله جمع غفير من الناس، ثم سحرهم ببيانه، فأطاعوا قوله، ونسوا تحكيم العقل. و لم تحفظ لنا كتب الأدب إلا خطبة واحدة قال فيها[٦٣٧]:

"أما بعد: فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تزكية نفسه، ولا يعبر عنه في تزكية أصحابه أصدق من اعتماده برغبته وائتمانه إياهم على حرمته".

([٦٣٥]) العتابي ١١١.

([٦٣٦]) الأغاني ١١٤/١٣.

([٦٣٧]) البيان والتبيين ١٤١/٢.

الفصل الثاني

خصائص نثره

إننا من خلال هذه الدراسة نقرر أن للعتابي باعاً طويلاً في النثر الفني العربي، بل إنه رائد من الرواد، وإني لأضعه في المكانة الثالثة، فأول ما يواجهنا عبد الحميد الكاتب، فقد أجاد في أواخر الدولة الأموية، وانتهى بنهايتها، وقد نبغ في أواخر العصر الأول وبداية العصر الثاني للإسلام.

ثم يأتي من بعده زميله وصاحبه ابن المقفع الذي لم يقتله العباسيون، بل احتضنوه، وقد تربع على عرش الكتابة، فعرف قدره العباسيون وأكرموه وأسلم على أيديهم.

لكن المنصور انتقم منه بسبب تشدده في كتابة ميثاق وعهد من المنصور لأمان حياة عبد الله بن علي عم المنصور، واستمرت الكتابة من بعده، لكن لم يبرز فيها أحد ويشتهر، حتى ظهر العتابي بعد هؤلاء فإنه تتلمذ على يد ابن المقفع، ودرس كتبه وأغلب الظن أن العتابي بإرشاد ابن المقفع تعلم الفارسية، أو أن العتابي ذاته رأى أن المعاني والثقافة التي امتاز بها ابن المقفع من لغته الفارسية، فأراد أن يكون مثله، لذا تعلم الفارسية، والمهم أن العتابي تعلم الفارسية ودرس آدابها ودرس الآداب اليونانية والمنطق والفلسفة إلى جانب دراسته للقرآن الكريم والحديث الشريف والثقافة الإسلامية الواسعة، وقد استفاد من رحلاته واتصالاته. وكل هذا ساعد على إخراج العتابي أديباً بليغاً ناثراً مجيداً يعترف بفضله أهل عصره.

إذن فإني أضعه في المرتبة الثالثة بعد زميليه، وذلك لما امتاز به نثره من مميزات كثيرة، وإن كان أقل كتابة من ابن المقفع. وأظن ذلك الفارق قليلاً؛ لأن ابن المقفع كل كتبه، وذلك لكثرة تلاميذه، ولأنه متصل بالخلفاء والأمراء ولعصبية الفرس له خلدوا ذكره.

والعتابي لم تتح له كل هذه الظروف ولا بعضها، فمؤلفاته ضاعت، ورواته لا يدُرى عنهم شيء، واتصالاته بالأمراء والخلفاء قليلة، و لم يتعصب العرب له.

وأنت إذا نظرت معي إلى ميزات نثره بوجه عام إخالك توافقني على تلك المنزلة التي وضعت العتابي فيها، وربما بأنك تحتج بالجاحظ، فهو أعظم منه، وهو القمة في النثر الفني، لكني أقول إن الجاحظ متأخر عنه، بل إن الجاحظ كان ينتحل الرسائل باسم العتابي قبل أن يشتهر، مما يدل على مكانة الرجل.

وإننا لنرى ميزات لنثره تكون جنباً إلى جنب في أسباب تطور النثر الفني، فنرى الثقافة، ونرى الأفكار الدقيقة والبلاغة والإيجاز الحجج والبراهين، ثم استمر اطلاعه على أدب الفرس واليونان، ثم ما هو فيه من الأمن استقرار الدولة، كل هذه سببت أيضاً انتشار النثر الفني.

وقد تناول في النثر الفني جميع المجالات، فهناك الرسائل السلطانية والإخوانية والاعتذارية والخطب وغيرها، وقد امتازت بالأمور التالية:

- أنه رسم منهاجاً للتعامل مع المجتمع في كل فكرة يطرقها، وذلك ناتج عن علمه وثقافته وتجاربه.
- أنه أخضع أمور المجتمع لهذا النثر الفني المرسل الذي تسوده الموسيقى المؤثرة والأسلوب الساحر، فانظر إلى هذه الرسالة إلى أحد الأمراء: "أنت أيها الأمير، وارث سلفك، وبقية أعلام أهل بيتك، المسدود به ثلمتهم، المجدد به قديم شرفهم، المحيا به أيام سعيهم، وإنه لم يخمل من كنت وارثه، ولا درسَت آثار من كنت سالك سبيله، ولا امّحت أعلام من خلفته في رتبته[٦٣٨]".
- امتاز أسلوبه بالغوص وراء المعاني، فتمخضت كتابته وأقواله عن أفكار متعددة، فبعضها جديد، والآخر مقنع، كرسالته إلى صديق له[٦٣٩]: "إما أن تقر بذنبك فيكون إقرارك حجة علينا في العفو عنك، وإلا فطب نفساً بالانتصاف منك، فإن الشاعر يقول:

اقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزنا عنه فإن جحود الذنب ذنبان

كما امتاز بالإقناع بالحجة والبرهان، فهو يجادل ويحتمل الاحتمالات في رسائله ويضع الحلول لها، ومن ذلك رسالته في التعزية[٦٤٠]:

إن أشد من المصيبة حرمان الأجر فيها والحسبة، وقد ذهب منك ما رزئت، فلا يذهب منك ما عوضت".

- ثم نحن حين نقرأ نثر العتابي لا نحس عسراً في فهمه، بل نجد يسراً ومرونة، بدليل أننا بعده بأكثر من ألف عامٍ ونحن لا نحتاج إلى معجم في البحث عن معاني كلماته، وذلك مخالف لشعره.
- الثقافة الواسعة، فكلما ما تحدث عن عنصر من العناصر نجده مبرزاً فيه، يأتي بالحجج والبراهين المقنعة في كل جزئية.
- امتاز أسلوبه بجرس رنان وموسيقى ذات إيقاعات مختلفة في النص الواحد، فهو يلونها كما في قوله:"أما بعد: أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة، استتماماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف، واشتد علينا كلبها، وغابات قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنك تغطي عين الحاسد، والله يعلم أني ما أعدك إلا في حومة الأهل، وأعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل، و لم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، و لم تظهر همته".

وهذه الموسيقى تعطي نثر العتابي لذاذة في الشعور، كما يلذ في العقل، لأنه نظمه نظماً موسيقياً.

والدكتور زكي مبارك يعتبر هذا سجعاً ملتزماً، فهو يقول في معرض حديثه عن هذا النص " وبدأنا نرى

([٦٣٨]) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠.

([٦٣٩]) الأغاني ١٣/١١٥.

([٦٤٠]) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠.

رسائل يكاد يلتزم فيها السجع، كقول كلثوم بن عمرو العتابي، وذكر النص السابق[٦٤١].

- ثم إن اللغة في نثره سهلة ميسورة طيعة مرنة له أكثر من مرونتها لابن المقفع في بعض الأحيان، وذلك عائد لأن ابن المقفع كان من المبتدئين ومن الفارسيين الذين تعلموا العربية تعلماً، بينما العتابي ابن العربية ومتأخر بعض الوقت عن زمن ابن المقفع. وقد أوضح طه حسين ذلك في ابن المقفع حيث يقول عند حديثه عنه: "عندما يؤدي فكرة من الأفكار أو رأياً من الآراء، يجهد نفسه وكأنه ينحت من صخر"[٦٤٢].
- وترى ملامح البديع واضحة في نثره، ولكن بدون تكلف ولا تقصر، إنما هي الثقافة والممارسة والرواية، فانظر إليه حين يجعل رسالته بالتجنيس: "أما بعد، فاكتسب أدباً ثم نسباً، واعلم أن قريبك من قرب منك خيره، وابن عمك من عمك نفعه، وعشيرتك من أحسن عشرتك، وأهدى الناس إلى مودتك من أهدى بره إليك".

وقال الدكتور زكي مبارك في معرض حديثه عن هذا النص:"والعتابي لا يقف عند السجع، بل يكَلُفُ أحياناً بالبديع، وهو أدخل في الصنعة من السجع"[٦٤٣].

- ثم امتاز عن ابن المقفع ببعض أصول البديع كالسجع، والصور المجسدة، والتشخيص، وبذلك سبق عصره، أو نقول: رائد العصر ولزملائه من الكتاب، وذلك نظراً لتأخر زمنه عن ابن المقفع الذي لم يحفل بالبديع ولا بالتشخيص.
- يتفق مع ابن المقفع في تناسق العبارات وقصرها وتتابعها في الإيجاز والإطناب.

غَيْرَ أنَّ ابن المقفع كتب للأمراء والولاة، لكن العتابي كان يكتب لنفسه، فهو يصور حياته وحياة مجتمعه أكمل تصوير، فكتابته ناتجة عن تصرفه، وتصرفه مشوب بأخلاق البادية، ففيه بعض الجفاء، وفيه العزة، وفيه الخشونة في القول عند الغضب، لكنه سرعان ما يعود فيقدم اعتذاراً لصاحبه.

---

(٦٤١) النثر الفني ٩٦/١.

(٦٤٢) من تاريخ الأدب العربي ٤٦٠/٢.

(٦٤٣) النثر الفني ٩٧/١.

آراء النقاد في نثره

والعتابي رائد في النثر الفني في العصر العباسي، وهو من أوائل من روض النثر الفني حيث استعمله للأغراض التي كانت خاصة بالشعر، فطرق هذا الباب بأسلوب عال بليغ، وقد تحدث الأدباء عن نثره فقالوا عنه:

"... وكاتباً من الرسائل مجيداً"(٦٤٤).

وقال عنه الجاحظ(٦٤٥):

"كان العتابي ممن اجتمع له الخطابة، البيان... والرسائل الفاخرة".

وقد روى ابن المعتز عن أبي صاعد قوله (٦٤٦):

".. عذب الكلام، وكاتباً جيد الرسائل حاذقاً".

وقد روى ابن المعتز عن جعفر المالكي قوله (٦٤٧):

"ما سمعت كلاماً قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابي، وما رأيت كاتباً تقلد الشعر مع الكتابة إلا وجدته ضعيف الشعر غيره، فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام".

وقال عنه الأصبهاني (٦٤٨):

"مترسل بليغ مطوع"

وقال عنه ياقوت الحموي(٦٤٩):

"وكان حسن الاعتذار في رسائله".

وقال عنه البغدادي(٦٥٠):

---

(٦٤٤) الشعر والشعراء ٤٦٣/٢.

(٦٤٥) البيان والتبيين ٥/١.

(٦٤٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.

(٦٤٧) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٣.

(٦٤٨) الأغاني ١٠٩/١٣.

(٦٤٩) معجم الأدباء ٢١٣/٦.

(٦٥٠) تاريخ بغداد ٤٨٨/١٢.

"مقدم في الخطابة والرواية، حسن المعارضة والبديهة".

وقال عنه المسعودي [٦٥١]:

"وكان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة، الترسل وحسن النظم للكلام، كثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان، براعة البيان وملوكية المجالسة وبراعة المكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن كثير من الناس في عصره".

وقال عنه صاحب معجم الشعراء (٦٥٢):

"وهو كاتب مترسل وله ألفاظ ثبتت ورسائل تدون".

وقال القيرواني في زهر الآداب (٦٥٣):

"وكان صاحب بديهة في المنظوم والمنثور، حسن العقل والتمييز والعرب تقول: من تمنى رجلاً حسن العقل وحسن البيان حسن العلم، تمنى شيئاً عسيراً، وقد اجتمع ذلك كله للعتابي".

وقال عنه صاحب فوات الوفيات (٦٥٤):

"وكان حسن الاعتذار في رسائله... هو أديب مصنف".

وقال عنه الدكتور شوقي ضيف عن رسائله:

"وعلى نحو ما كان يقصد في أشعاره إلى المعاني الدقيقة الطريفة يصوغها في مقطوعات، قلما تجاوزت بيتين كان يصنع برسائله، فهو يصوغها غالباً في عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة، ولكنها مع قلتها تحمل من المعاني والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية".

ومن أقوال الدكتور مصطفى الشكعة (٦٥٥):

"والعتابي أحد البلغاء الذين عرفوا البلاغة بشروطها، ومارسوها إنشاءً وتحريراً، وفي كلمات أوضح، لقد كان العتابي بلاغياً بين علماء البلاغة، كاتباً منشئاً بين أعلام الكتب المنشئين، ولذلك فإن له تعريفات شتى للبلاغة وأوصافاً عديدة للبلغاء".

وقال عنه أيضاً (٦٥٦):

"لله در هذا الرجل مفكراً متحدثاً بليغاً بلاغياً كاتباً شاعراً، إنه صاحب أسلوب متفرد به في التفكير والتعبير، وإن نماذج كتابته تفصح عن هذه المواهب والصفات كل الإفصاح".

وقال عنه الدكتور أحمد محمد النجار (٦٥٧):

"ومن الواضح إلى جانب ما تراه من بعض الصور، مراعاته التطابق بين أسلوبه وموضوعه مستفيداً بما

([٦٥١]) مروج الذهب ١٥/٤.

([٦٥٢]) معجم الشعراء ٣٥١/١.

([٦٥٣]) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

([٦٥٤]) فوات الوفيات ٢١٩/٣.

([٦٥٥]) الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥٠٤.

([٦٥٦]) الشعر والشعراء د/ مصطفى الشكعة ٥٠٥.

([٦٥٧]) العتابي ١٠٩.

وصى به المتكلمون، وأعلام البيان، وما قرأه في كتب العجم بلغتهم، وما ترجم منها ومن غيرها، وقد أعانه على ذلك ذوق فطري، وطبع سمح، وحسن رواية ودراية بروائع الكلام، مما جعله بصيراً باختيار الألفاظ، وابتكار الصور أو إجادة صياغتها".

الفصل الثالث

آراؤه في البلاغة والنقد

- أقواله في البلاغة.
- العتابي والشعراء.
- أقواله في البلاغة

الذي لا شك فيه أن العتابي قد عاصر المعتزلة ودرس مذهبهم، حتى أن بعضهم قد اتهمه بالاعتزال، وسبق أن أنكرت هذا الرأي، وذلك لأننا لم نجد نصاً له أو حجة تثبت انتسابه للاعتزال. لكنه استفاد من معرفة مذهب الاعتزال ومعاصرة كبار المبدعين فيه، استفاد البلاغة والإقناع في الحجة: فهي أحد الأسباب في علو مكانته البلاغية، ونقتبس تلك العلاقة بالمعتزلة من تعريفه للبلاغة حيث يقول [٦٥٨]:

"كل من أفهمك حاجته في غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ. قالوا: فهمنا الإعادة والحبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عثنونه [٦٥٩]، أو يفتل أصابعه، أو يكثر التفاته من غير موجب، أو يتساعل من غير سعلة، أو ينهر في كلامه".

نعم فالمعتزلة يجادلون ويحاورون ويناظرون، ولذلك قواعد عندهم، فهم يعيبون الإشارة وتحريك اليد والسعال بدون أسباب، ويلتزمون بالاتزان والابتعاد عن الغضب وتحريك العصا، وأنت تراه في هذا النص يعيب هذه الأمور، ويضع القواعد اللازمة للمتكلم كالتالي:

فعلى المتكلم أن يدلي بقول مفهوم، وبكلام على قدر المعنى، يستميل القلب، ويقنع العقل.

ويمنع تكرار الكلمة أو المعنى.

على المتكلم أن يفصح في قوله، ولا يتلعثم، ولا يظهر منه الإعياء عند الكلام. وقد ناقش أبو هلال ما قاله العتابي في الإبانة عند حد البلاغة:

"فإذا العتابي قال: كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، قال أبو هلال: إنما عنى أن أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة، والعبارة النيرة فهو بليغ. ولو حملت هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغاً، لأنه يفهمنا

([٦٥٨]) العقد الفريد ٢/٢٦٥، العمدة ١/١٤٥.

(٦٥٩) العثنون: ما نبت من الشعر على الذقن أو تحته.

حاجته، بل يلزم أن يكون كل الناس بلغاء حتى الأطفال" [٦٦٠].

ونحن لا نجد عذراً للعتابي لأنه لم يحترس عن ذلك.

وقد جسد العتابي البلاغة لنا ومثل لها بحيوان، الألفاظ جسده، والمعاني دمه، فقال [٦٦١]:

" الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، إنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً، أقصدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية"، وقد أعجب هذا القول أبا هلال فقال: "وقد أحسن في هذا التمثيل، وأعلم به على أن الذي ينبغي في صيغة الكلام وضع كل شيء في موضعه ليخرج بذلك من سوء النظم".

وقد أوضح الدكتور النجار بأنه البداية في الوحدة العضوية بهذا القول، وأنه سبق الجاحظ في ذلك، "والعتابي أسبق من الجاحظ الذي قال: إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير". كما أنه شبه الأسماء بالأبدان والمعاني بالأرواح كما فعل العتابي، ثم يبدو أنه لا جديد بعد قول العتابي السابق عن الوحدة العضوية في صورتها الأولى عند النقاد العرب"[٦٦٢].

وهو ينصح المتكلم والخطيب أن يواصل مران الكلام ليظل لسانه محتفظاً بفصاحته وذلك بقوله:

"إذا حبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف"، وهو قول صائب يستطيع كل إنسان أن يجربه ويعرف صوابه.

وهو يفصح في حديثه عن البلاغة بتطبيق المثل القائل: لكل مقام مقال، وذلك بأن يكون كلام المتكلم مفهوماً للسامع على قدر مستواه، وذلك في قوله وقد سئل: ما أقرب البلاغة؟ فقال: ألا يؤتى السامع من سوء إفهام القائل، ولا يؤتى القائل من سوء فهم السامع" [٦٦٣].

وقد عرف البلاغة حينما سئل عنها بقوله: "إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل بصورة الحق" [٦٦٤].

عرفنا إظهار ما غمض من الحق وأيدناه، لكن تصوير الباطل بصورة الحق هذا الذي لا أظن العتابي قصده، بل إنه يقصد المضمون، أي تكون عند الإنسان مقدرة في المحاجّة والبرهان حتى يصل إلى هذا الحد. وهو يركز على هذا المعنى فيقول[٦٦٥]:

"ليست البلاغة بالإكثار والأقوال، ولكن البلاغة سد الكلام بمعانيه وإن قصر، وحسن التأليف وإن طال".

([٦٦٠]) الصناعتين ١٦٧.

([٦٦١]) الصناعتين ١٦٧.

([٦٦٢]) العتابي ١١٩.

([٦٦٣]) الكامل ١٢٨٩/٣، العتابي ١١٨.

([٦٦٤]) البيان والتبيين ١١٣/١، العقد الفريد ١٠٩/٢.

([٦٦٥]) لباب الآداب ٣٤٩.

وهو يحث على الإجادة، ويمنع النقد غير البناء، بل يذكر أن المنصفين قليلون فيقول [٦٦٦]:

"من قرض شعراً، أو وضع كتاباً فقد استهدف للخصوم، واستشرف للألسن، إلاّ عند من نظر فيه بعين العدل، وحكم بغير الهوى وقليل ما هم".

وقدر طرق الخلق الفني الإبداعي الذي تحدث عنه أهل عصرنا وأكثروا فيه، وهو أن الشعر أو صاحب الفكرة تأتيه فترات معينة، فتنهال عليه الأفكار وتتراكم وتتزاحم، لكن على الأديب أن يختار منها ما يناسب المقام، ويرد الباقي، وهذا في نظر العتابي بتأخير الكتابة بعض الوقت حتى يتسرب الزائف ويبقى الأصيل، كما جاء ذلك في قول ابن المدبر:

"حدثنا صديق للعتابي قال: اعمل لي رسالة، واستعاده مرة بعد أخرى، فقال له: ما أرى بلاغتك إلا شاردة، فقال: إني لما تناولت القلم تداعت علي المعاني من كل جهة، فأحببت أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه، ثم أجتني لك أحسنها" [٦٦٧].

العتابي والشعراء:

إن العتابي ذلك العلامة والكاتب البليغ الشاعر المجيد قد تجول في الأقطار الإسلامية، وذلك لطلب العلم والمعرفة، من ثم لابد أن يتصل بالعلماء والشعراء والكتاب وتكون له صداقات، ويكون له أخلاء وأحباب ومؤيدون إلى جانب أعداء ومعارضين ومنافسين وحاسدين، لذا كثر اتصاله بالشعراء ونقدهم له وإعجابهم به ومعارضتهم له، فمثلاً نجد أن تلميذه وابن إقليمه منصور النمري كان يدرس عليه ويروي له، وحاول أستاذه أن يبرزه حتى أصبح شاعراً فحلاً، لذا نجده يمن على منصور النمري حينما حاول طاهر بن الحسين الإصلاح بينهما [٦٦٨]:

أصحبتك الفضل إذا لا أنت تعرفه ... حقاً ولا لك في استصحابه أرب

لم ترتبطك على وصلى محافظةٌ ... ولا أعاذك مما اغتالك الأدب

ما من جميل ولا عرفٍ نطقت به ... إلا إليَّ وإن أنكرتَ ينتسبْ

ولهما محاورة شعرية مع منصور النمري وقد رواها الأغاني [٦٦٩]:

"قد حدثني علي بن سليمان الأخفش، قال: حدثنا محمد بن يزيد المبرد، قال: كتب كلثوم بن عمرو العتابي إلى منصور النمري قوله [٦٧٠]:

تقضت لبانات ولاح مشيب ... وأشفى على شمس النهار غروب

([٦٦٦]) العقد الفريد ١/ ٣.

([٦٦٧]) الرسالة العذراء ٣٤٤، العقد الفريد ١٧٤/٤.

([٦٦٨]) الأغاني ١١٨/١٣.

([٦٦٩]) الأغاني ١٥٤/١٣، ١٥٥.

([٦٧٠]) الأغاني ١٥٤/١٣.

وودعت إخوان الصِّبا وتصـــرمت غواية قلب كان وهو طروب [٦٧٢]
ورُدتْ على الساقى تفيض وربمـــا رددت عليه الكأس هـــو ســـليب
ومـــا يهـــيج الشـــوق لي فـــيرده خفيف [٦٧٣] على أيـــدي القيـــان
عَطَونَ به [٦٧٥]حتى جرى في أديمه أصابيغ [٦٧٦] في لباتهن [٦٧٧] وطيب

فأجابه النمري بقوله:

أوحشة نـــدمانيك تبكـــى فربّمـــا تلاقيهما والحلـــم عنـــك عـــزوب
ترى خلفا من كل نيـــل وثـــروة سمـــاع قيـــان عـــودهن قريـــب
يغنيك يا بنتى فتستصحب النـــهى وتحتازك الآفـــات حـــين أغيـــب
وإن امـــرأ أودى الســـماع بلبـــه لعريانُ من ثوب الفـــلاح ســـليب

لكن الخصام لم ينقطع بينها، وتنافسا على أبواب الخليفة، وكل منهما يحاول أن يكيد لصاحبه ويوقع به ويهلكه، وقد تحدثنا عن ذلك في مناسبات سابقة.

ولقد التقى العتابي بأبي نواس، فقال العتابي: أما خفت الله حيث تقول:

وأخفت أهل الشـــرك حـــتى أنـــه لتخافك النطـــف الـــتى لم تخلـــق

فقال أبو نواس: فما خفت أنت الله حيث تقول:

ما زلت في غمرات الموت مطرحـــاً يضيق عنى وسيع الرأي من حيلـــى
فلم تزل دائباً تســـعى بلطفـــك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلى

فقال العتابي: "قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ولكن أعددت لكل ناصح جواباً". ونقد أبا نواس نقداً لاذعاً في مقطوعة قالها للرشيد وهو في الحبس "وحدث أبو هفان عن ابن الداية (أحمد بن يوســـف) قال: كان الرشيد أمر بحبس أبي نواس حتى يدع الخمر، فقال في الحبس:

قـــــل للخليفـــــة إنـــــى حـــــتى أراك بكـــــل بـــــاس
مـــــن ذا يكـــــون أبانواســـــك إن حبســـــت أبـــــا نـــــواس
إن أنـــــت لم ترفـــــع بـــــه رأســـــاً هـــــديت بنصـــــف راس

فقال له العتابي: ما أحسن نصف رأس خليفة يرفع، فقال له: جعلني الله فداك يا أبا عمرو، لا تنبههم لهذا

([٦٧١]) تصرمت: تقطعت.

([٦٧٢]) طروب: لها روايات مختلفة منها (حروب).

([٦٧٣]) خفيف: العود آلة موسيقية.

([٦٧٤]) صخوب: من الصخب وهي الأصوات المرتفعة المزعجة.

([٦٧٥]) عطون به: فناولنه ومدون أعناقهن.

([٦٧٦]) أصابيغ: جمع للصبغ ويعني به الزعفران وروى (أصابيع).

([٦٧٧]) لباتهن: مواضع النحر.

فتهلكني" [٦٧٨].

وله لقاء آخر مع أبي نواس رواه الحصري" ومر [٦٧٩] العتابي بأبي نواس وهو ينشد الناس:

ذكر الكرخ نازح الأوطان فبكى صبوة ولات أوان

فلما رآه قام إليه،وسأله الجلوس، فأبى العتابي وقال: أين أنا منك وأنت القائل وقد أنصفك الزمان:

قد علقنا من الخصيب حبالاً أمنتنا طوارق الحدثان

وأنا القائل وقد جار علي وأساء إلي:

لقطتني البلادُ، وانطوت الأكفاءُ، وملّني جيراني
والْتقتْ حَلْقةٌ علىّ مِن الدَّهْر فماجَتْ بكَلْكَل وجرانِ
نازعتني أحداثُها مُنية النفس وهدّت خطوبُها أركاني
خاشعٌ للهموم معترف القلب كئيبٌ لنائبات الزمانِ

وقد التقى العتابي براوية أبي نواس، وروى صاحب مروج الذهب الحديث التالي:

"كان كلثوم العتابي يضع من قدر أبي نواس، فقال له راوية أبي نواس يوماً: كيف تضع من قدر أبي نواس، وهو الذي يقول[٦٨٠]:

إذا نحن أثنينا عليكم بصالح فأنت الذي تثنى وفوق الذي نثنى
وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي نعنى

قال العتابي: هذا سرقة، قال ممن؟ قال: من أبي الهذيل الجمحي. قال: حيث يقول ماذا؟ قال: حيث يقول:

وإذا يقال لبعضهم نعم الفتى فابن المغيرة ذلك النِّعْمُ
عقم النساء فلا يجئن بمثله إن النساء بمثله عُقْمُ

وقال: فقد أحسن في قوله:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

قال: سرقة أيضاً قال له: وممن؟ قال: من شوشة الفقعسي. قال: حيث يقول ماذا؟ قال: حيث يقول:

إذا ما سقيم حل عنها وكاءها تصعد فيه برؤها وتصوبا
وإن خالطت منه الحشا خلت أنه على سالف الأيام لم يبق موهبا

فقال: فقد أحسن في قوله:

وما خلقت إلا لبذل أكفهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر

قال: قد سرقه أيضاً، قال: ممن؟ قال: من مروان بن أبي حفصة، قال: حيث يقول ماذا؟ قال: حيث يقول:

([٦٧٨]) الموشح، العتابي ٨٨.

([٦٧٩]) زهر الآداب ١٥٧/٣.

([٦٨٠]) مروج الذهب ٣٦٦/٣.

وما خلقت إلا لبذل أكفهم وألسنهم إلا لتحبير منطق
فيوماً يبارون الرياح سماحة ويوماً لبذل الخاطب المتشدق

وقال: فسكت الراوية، ولو أتى بشعره كله لقال: سرقه.

وقد تتلمذ على بشار بن برد وعرض عليه شعره، روى ذلك الأغاني: "جاء العتابي وهو حدث إلى بشار، فأنشده:

أيصدف عن أمامة أم يقيم وعهدك بالصبا عهد قديم
أقول لمستعار القلب عفى على عزماته السير العديم
أما يكفيك أن دموع عيني شآبيب يفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف إلا على أرجائه ماء سجوم

قال: فمد بشار يده إليه: ثم قال له: أنت بصير؟ قال: نعم. قال: عجباً لبصير ابن زانية أن يقول هذا الشعر. فخجل العتابي وقام عنه" (٦٨١).

وقد حسده دعبل الخزاعي كما رواه صاحب الأغاني: "قال دعبل: ما حسدت أحداً قط على شعر كما حسدت العتابي على قوله:

هيبة الإخوان قاطعة لأخي الحاجات عن طلبه
فإذا ما هبت ذا أمل مات ما أملت من سببه

قال ابن مهروبه: هذا سرقه العتابي من قول علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: "الهيبة مقرونة بالخيبة، والحياء مقرون بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب" (٦٨٢).

وقد وازن أحد الأدباء بين العتابي والعباس بن الأحنف (٦٨٣): "قال الصولي: ناظر أبو أحمد علي بن يحيى المنجم رجلاً يعرف بالمتفقه الموصلي في العباس بن الأحنف والعتابي، فعمل علي في ذلك مسألة أنفذها لعلي بن عيسى، لأن الكلام في مجلسه جرى، كان مما خاطبه به أن قال: ما أهل نفسه قط العتابي لتقديمها على العباس في الشعر، ولو خاطبه مخاطب لدفعه وأنكره، لأنه كان عالماً لا يؤتى من قلة معرفة بالشعر، و لم أر أحداً من العلماء بالشعر مثل العتابي والعباس، فضلاً تقديم العتابي عليه لتباينهما (في ذلك)، وأن العتابي متكلف، والعباس يتدفق طبعاً، وكلام هذا سهل عذب، وكلام ذلك متعقد كز، وفي شعر هذا رقة وحلاوة، وفي شعر غلظ وجسارة، وشعر هذا في فن واحد وهو الغزل، وأكثر فيه وأحسن، وقد افتن العتابي فلم يخرج في شيء منه عما وصفناه. وأن من أحسن شعر العتابي قصيدته التي مدح بها الرشيد وأولها:

يا ليلة لي في حوران ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

وقال فيها:

أفي الأماقي انقباض عن جفونهما أم في الجفون عن الآماق تقصير

وهذا البيت أخذ من قول بشار الذي أحسن فيه كل الإحسان وهو قوله:

---

(٦٨١) الأغاني ١١٣/١٣.

(٦٨٢) الأغاني ١١٦/١٣.

(٦٨٣) زهر الآداب ١٠١٥، الموشح ٢٦٥.

جَفَت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

فمسخه العتابي، على أن بشار أخذه من قول جميل:

كأن المحب لطول السهاد قصير الجفون و لم تقصر

إلا أن بشاراً أحسن فيه، فنازعهما إياه فأساء، وإنّ حقَّ من أخذ معنى قد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه، أو يزيد عليه، حتى يستحقه، وأما إذا قصر عنه فهو مسيء معيب بالسرقة، مذموم على التقصير.

ولقد هاجى أبا قابوس النصراني فغلب عليه في كثير مما جرى بينهما على ضعف من أبي قابوس في الشعر، ثم قال في هذه القصيدة:

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد ناداك بالوحي تقديس وتطهير

فت الممادح إلا أن ألسننا مستعلنات بما تخفي الضمائير

فختم البيت فيها بأثقل لفظه، لو وقعت في البحر لكدرته، وهي صحيحة، وما شيء أملك بالشعر بعد صحة المعنى من حسن صحة اللفظ، وهذا عمل التكلف وسوء الطبع.

وقد اشترك مع جمهرة من الشعراء في مطالبة أبي نواس للمبارزة:

"جاء مسلم بن الوليد والعتابي والنمري والجرجاني والتميمي وسلم الخاسر وأبو الشيص ومروان وأبو العتاهية إلى أبي نواس، فقالوا: بلغنا عنك أنك تحتقرنا وتشتمنا وتسخف بنا وبأشعارنا، فتعال حتى نهاجيك ونشاعرك" [٦٨٤].

قال العتابي في ذكر أبي نواس[٦٨٥]:"لو أدرك الخبيث الجاهلية ما فضل عليه أحد".

([٦٨٤]) شرح ديوان صريع الغواني ٣٩٧.

([٦٨٥]) المحاسن والمساوئ ١٦٧/٢.

الفصل الرابع

آثاره النثرية

آثاره النثرية في المراجع والمصادر، فقد تتبعت الكتب الأدبية، وجمعت ما فيها من رسائل وأقوال مأثورة وحوار للعتابي، وذلك لكي أضع تراثه أمام القارئ، فيكون سهلاً ميسوراً.

رسائله

(١)

وله[٦٨٦]:

" تأتينا أفاقتك من سكرتك، وترقبنا انتباهك من رقدتك، وصبرنا على تجرع الغيظ فيك، حتى بان لنا اليأس من خيرك، وكشف لنا الصبر عن وجه الغلط فيك، فهأنا قد عرفتك حق معرفتك، في تعديك لطورك، واطّراحك حق من غلط في اختيارك".

(٢)

وله[٦٨٧]:

"أما بعد، فإن قريبَكَ من قرب منك خيره، وابن عمك من عمك نفعه، وعشيرتك من أحسن عشرتك، وأهدى الناس إلى مودتك من أهدى بره إليك".

(٣)

وكتب في وصاة [٦٨٨]:

"حامل كتابي إليك أنا، فكن له أنا والسلام".

(٤)

وله في التعزية [٦٨٩]:

"إن أشد من المصيبة حرمان الأجر فيها والحسبة، وقد ذهب منك ما رزئت، فلا يذهب منك ما عوضت. قال الشاعر:

وعوضت أجراً من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

([٦٨٦]) العقد الفريد ٤/٢٨٨، جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠، ٤٠١.

([٦٨٧]) العقد الفريد ٤/٢٨٩، جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠.

([٦٨٨]) العقد الفريد ٤/٢٧٩، جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠.

([٦٨٩]) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠.

)5(

وله[٦٩٠]:

"إن أقل من بلائك عندي يستغرق ثنائي، وأقل من تأميلي إياك يعفى علي ما كان مني، وليس لك - فضلك ورجائي تجاوزك - سبيل إلى قطيعتي".

(٦)

وكتب إلى صديق له[٦٩١]:

"أما بعد: أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة استتماماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف، واشتد علينا كلبها، وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنك تغطي عين الحاسد، والله يعلم أني ما أعدّك إلا في حومة الأهل، واعلم بأن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل، و لم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، و لم تظهر همته وأنا أقول في ذلك:

ظل اليسار على العباس ممدودُ ... وقلبه أبداً بالبخل معقودُ
إن الكريم ليخفى عنك عسرته ... حتى تراه غنياً وهو مجهودُ
وللبخيل على أمواله عللٌ ... زرق العيون عليها أوجه سودُ
إذا تكرمت عن بذل القليل و لم ... تقدر على سعة لم يظهر الجودُ
بثَّ النوال ولا تمنعك قلته ... فكل ما سد فقراً فهو محمودُ

(٧)

وكتب رسالة في الاعتذار[٦٩٢]:

"دعيت إليك، ونفسي رهينة بشكرك، ولساني علق بالثناء عليك، والغالب على ضميري لائمة لنفسي في الإبطاء عنك، واستقلال لجهدي في مكافأتك، وأنت – أعزك الله– في عز الغنى عني، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من متشابه أخلاقك أن تولي جانب النبْوة منك، من هو عان في الضراعة إليك".

(٨)

١- كتب كلثوم بن عمرو العتابي إلى بعض إخوانه يعاتبه[٦٩٣]:

"لو اعتصم شوقي إليك بمثل سلوك عني، لم أبذل وجه الرغبة إليك، و لم أتجشم مرارة تماديك، ولكن استخفتنا صبابتنا، فاحتلنا قسوتك لعظيم قدر مودتك، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه، ولشوقنا من

([٦٩٠]) جمهرة رسائل العرب ٤٠٠/٣.

([٦٩١]) الأمالي ١٣٧/٢، جمهرة رسائل العرب ٣٩٩/٣.

([٦٩٢]) جمهرة رسائل العرب ٣٩٧/٣، زهر الآداب ١٠٥٧/٤.

([٦٩٣]) جمهرة رسائل العرب ٣٩٧/٣، زهر الآداب ١٠٥٦/٤.

إبطائه".

(٩)

فقد كتب إلى أحد الأمراء مادحاً وممجداً فقال[٦٩٤]:

"أنت أيها الأمير وارث سلفك، وبقية أعلام أهل بيتك، المسدود به ثلمهم، المجدد به قديم شرفهم، المحيا به أيام سعيهم، وأنه لم يخمل من كنت وارثه، ولا درست آثار من كنت سالك سبيله، ولا أمحت أعلام من خلفته في رتبته"[٦٩٥].

(١٠)

وكتب مرة أخرى مستجدياً بعض الأمراء [٦٩٦]:

"أما بعد، فإن سحب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من علل المطل، والسلام".

(١١)

٢ – وله رسالة إلى أحد الأمراء يمدحه فيها ويعرض له بالعطاء فيقول[٦٩٧]:

"من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع فيك، وانحاز إلى نواحيك، لم يخش المطنب في الثناء عليه أن يكون مفرطاً، كما لا يأمن أن يكون مفرطاً، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ استحقاقك من التفريط أولى من الإطناب الذي غايته التقصير ومآله إلى الحشو".

(١٢)

٣ – وكتب العتابي[٦٩٨]:

"أما بعد، فإنْ أحد ليس بمستخلص شيئاً من غضارة [٦٩٩] عيش إلا من بين خلال مكاره، فمن انتظر بمعاجل الدرك [٧٠٠] أُجل الاستقضاء، سلبته الأيام فرصته، لأن من صناعتها السلب، ومن شرط الزمن الإفاقة".

(١٣)

٤ – وقد كتب إلى قاضي القضاة أبي يوسف القاضي تلميذ أبي حنيفة، وكان من المقربين إلى الرشيد الذين يسترشد بهم، ويعمل بنصحهم، فقد كتب إليه العتابي محذراً مذكراً له بالله والدار الآخرة فقال [٧٠١]:

"أما بعد فخف الله الذي أنعم عليك بتلاوة كتابه، واحذر أن يكون لسانك عدة للفتنة، وعملك ردءاً للمعتدين، فإن أئمة الجور إنما يكيدون الصالحين باستصحاب العلم".

(١٤)

٣ – وقد كتب على لسان ابنته حفصة إلى صديقتها ريطة:

"إن أول حاجتي إليك أن تتدبري كتابي إليك تدبر إنصاف، ثم تجيبيني عنه جواب متثبت، فإن أخفى

---

(٦٩٤) جمهرة رسائل العرب ٤٠٠/٣، العقد الفريد ٢٨٦/٤، عيون الأخبار ٩٦/١.

(٦٩٥) جمهرة رسائل العرب ٤٠٠/٣، العقد الفريد ٢٨٦/٤، عيون الأخبار ٩٦/١.

(٦٩٦) جمهرة رسائل العرب ٣٩٨/٣، العقد الفريد ١٧١/١.

(٦٩٧) معجم الأدباء ٢٦/١٧.

(٦٩٨) جمهرة رسائل العرب ٣٩٨/٣، المنظوم والمنثور ٢٥٩/١٣.

(٦٩٩) النعومة في العيش.

(٧٠٠) الدرك: الوصول إلى الشيء.

(٧٠١) طبقات الشعراء ٢٦١.

الجورِ جور الاستماع، وأنفع العدل عدل الجواب، وليس فيما بين هاتين موضع قدم لواحد من الأمرين، وأصل اختلاف العباد في جميع الأمور من علتين، إما جهل بما يدعون، وإما جحد لما يعرفون والجاهل بما يدعي أرجى رجعة من الجاحد لما يعرف، وإن كان لا عذر له في ترك علم ما يجهل، كما لا عذر لأحد في جحد معروف، ولست أدري إذا ناصحت حجته أي حاليه أولى بالتعانيف، أَجَهْله من جميل كنت أفعله، أم جحد بعد تعريف وتوقيف؟ وما اقتصرت بك على أدنى حال الإنصاف إلا أكون راجية أن أجدك في أفضلها، ولكني نهضت إلى الانتصاح من لا يميل بواضح يغنيني عن شبه المعاذير، و لم آمن مع ذلك أن تظني أني إلى مشكلات الأمور مضطرة، و لم أكن لأقدم الوهن وأخلف القوة. ومع ذلك فإن من الحق ما يخبئ نار اللجاجة، ومنه ما يذكيها، فأتيتك من أقرب مأتاك، فلا يكونن ما أفدت به رضاك علة لمنعه، فإن هذه التي انتصلت علتها قبل اللجاجة والأراجيف ابتدأت في مقارعة القطيعة، والصلة وقفت بينهما موقف المراهنة، ولك ـ أصلحك الله ـ طول العتب، وعلي ذلك الاعتذار، فلا يطمس ذلك نور ما يرد عليكم، فإني أعتد عليكم خصالاً في كلها ضربت الأمثال، منها قول أكثم بن صيفي: الجود بالمجهود منتهى الجود، وأنت تعلمين أن مجهودي كله كان لك، ومنه قوله النابغة:

إذا كان مجبولاً على النصح صاحبي عفا النصح عما زل من حيث لا

وما استزادتني نصيحة قط، ولا اتهمتني على غش، ومنه قول طرفة:

مالي إليك شفيع أستعين به إلا رجائي وإفراديك [٧٠٢] بالأمل

وما استبطأتك في أمر قط، ولا أشرت بأملي إلى سواك، فأي مدخل للتهمة مع هذه الحال، وإن أجمع بصفة ما بيننا كقول الأعشى:

وما تفيأت من سرور فتم إلا بكم سروري

هذه أعيان رسائلي التي نافرت إليها عتبك، واستعفيت من جحدها علمك، فأما ما يأخذه التخلق، ويكون مثله على بعض الإخوان من بعض الشهبة [٧٠٣] من إيثار الهوى، وتحري الموافقة، والصبر على الجفوة، فذاك الذي إن ضرب لي سهم في إنصافك فقد ينال ذلك بأقل مما كنت تدعينه، وأما الغيبة فيما بيني وبينك، فقد أمكنك من ذلك الاعتداد به ومحاكمتك إلى ما هو أرجى منه"[٧٠٤].

(١٥)

وروى له الأصبهاني هذه الرسالة[٧٠٥]:

"أخبرني أبي، قال: أخبرنا الحارث بن محمد عن المدائني، وأخبرني الحسن بن علي، قال: حدثنا الخزاز عن ابن الأعرابي، قال: أنكر العتابي على صديق له شيئاً فكتب إليه:

"إما أن تقر بذنبك فيكون إقرارك حجة علينا في العفو عنك، وإلا فطب نفساً بالانتصاف منك فإن الشاعر يقول:

اقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزنا عنه فإن جحود الذنب ذنبان

([٧٠٢]) إفراديك: من إضافة المصدر إلى الضمير المجرور إفرادي إياك فجعله متصلاً.

([٧٠٣]) الشبهة : اختلاط البياض بالسواد ويعني اختلاط الأمور.

([٧٠٤]) الصداقة والصديق ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠.

([٧٠٥]) الأغاني ١١٥/١٣.

)16(

وقد روى له البغدادي رسالة كتبها إلى طوق بن مالك [٧٠٦]:

"أخبرنا أبو علي محمد بن الحسين الجازري، حدثنا المعافى بن زكريا، حدثنا عبدالله بن منصور الحارثي، حدثنا أحمد بن أبي طاهر، قال: حدثني أبو دعامة الشاعر قال: كتب طوق بن مالك إلى العتابي يستزيره [٧٠٧] ويدعوه إلى أن يصل القرابة بينه وبينه، فرد عليه: إن قريبك من قرب منك خيره، وإن عمك من عمك نفعه، وإن عشيرتك من أحسن عشرتك، وإن أحب الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك. ولذلك أقول:

ولقد بلوت الناس في سيرهم ... وخبرت ما وصلوا من الأسباب

فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً ... وإذا المودة أكبر الأنساب

(١٧)

وروى له العسكري هذه الرسالة[٧٠٨]:

"وكتب العتابي إلى مالك بن طوق: أما بعد فاكتسب أدباً، تحي نسباً، واعلم أن قريبك من قرب منك خيره، وأن ابن عمك من عمك نفعه، وأن أحب الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك".

(١٨)

ومن رسائله ما رواه البيهقي حيث قال [٧٠٩]:

"وطلب العتابي من رجل حاجة، فقضى له بعضها وماطله ببعض، فكتب إليه:

أما بعد: فقد تركتني منتظراً لرفدك، وصاحب الحاجة محتاج إلى "نعم" هنيئة، أو "لا" مريحة، العذر الجميل أحسن من المطل الطويل، وقد كتبت:

بسطت لساني ثم أوثقت نصفه ... فنصف لساني بامتداحك مطلق

فإن أنت لم تنجز عداتي تركتني ... وباقي لساني الشكر باليأس موثق

---

(٧٠٦) تاريخ بغداد ٤٨٨/١٢، ٤٨٩، الأغاني ١١٧/١٣ لكن روى عن طريق المحادثة.

(٧٠٧) يستزيره: يطلب زيارته.

(٧٠٨) الصناعتين ٣٣٣.

(٧٠٩) لمحاسن والمساوئ ١٨٨/٢، ١٨٩.

حواره وأقواله المأثورة

(١)

غضب هارون الرشيد على العتابي، فدخل مع المتظلمين بغير إذن، فمثل بين يدي الرشيد، وقال له [٧١٠]:

"يا أمير المؤمنين، قد آذتني الناس لك، ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائن لنفسي كنت، لو أعانني عليك الصبر".

وفي ذلك أقول:

أخضنى المقام الغَمْرَ إن كان غرني ... سنا خلب أو زلت القدمان

أتتركنى جدب المعيشة مقتراً ... وكفّاك من ماء الندى تكفان

وتجعلنى سهم المطامع بعدما ... بللت يميني بالندى ولساني

قال: فأعجب الرشيد قوله، وخرج عليه الخلع،وقد أمر له بجائزة، فما رأيت العتابي قط أبسط منه يومئذ".

(٢)

قال أمام الرشيد [٧١١]:

"الإيناس [٧١٢] قبل الإبساس[٧١٣]، لا يُمدح المرء بأول صوابه، ولا يُذم بأول خطئه، لأنه بين كلام زوره، أو عيّ حصره [٧١٤]".

(٣)

وهو يرد على يحيى بن خالد البرمكي حينما عاتبه في ملابسه [٧١٥] بقوله:

"وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وكان لا يبالي أي ثوبيه ابتذل فقال: أبعد الله رجلاً همه أن يكون جماله في لباسه وعطره. إنما ذلك حظ النساء، وأهل الأهواء، حتى يرفعه أكبراه: همته، ولبه، ويعلو به معظِماه، لسانه وقلبه".

(٤)

كتب المأمون يستدعي العتابي لحضور مجلسه كما روى ذلك الأغاني[٧١٦]:

"كتب المأمون في إشخاص كلثوم بن عمرو العتابي، فلما دخل عليه قال له: يا كلثوم، بلغتني وفاتك فساءتني، ثم بلغتني وفادتك فسرتني.

فقال له العتابي: يا أمير المؤمنين، لو قسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتها فضلاً وإنعاماً، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أمنية، ولا يبسط لسواه أمل، لأنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك، فقال

---

(٧١٠) الأغاني ١١٣/١٣.

(٧١١) زهر الآداب ٦٧٥٦/٣.

(٧١٢) الإيناس: الأنس والطمأنينة.

(٧١٣) الإبساس: استدرار الكلام من قولهم: أبس الناقة، إذا دعاها للحلب.

(٧١٤) عيَّ حصره: امتنع عن الكلام عجزاً.

(٧١٥) زهر الآداب ٦٧٤/٣.

(٧١٦) الأغاني ١١١/١٣.

له: سلني. فقال: يدك بالعطاء أطلق من لساني بالسؤال. فوصله صلات سنية وبلغ به من التقديم والإكرام أعلى محل".

(٥)

وله محاورة مع المأمون وإسحاق بن إبراهيم الموصلي كما رواها الأصبهاني [٧١٧]:

"لما قدم العتابي مدينة السلام على المأمون، أذن له فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكان العتابي شيخاً جليلاً نبيلاً، فسلم فرد عليه وأدناه، وقربه حتى قرب منه، فقبل يده: ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذلق[٧١٨] طلق، وأقبل بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه استخف به قال: يا أمير المؤمنين: الإيناس قبل الإبساس، فاشتبه على المأمون قوله، فنظر إلى إسحاق مستفهماً، فأومأ إليه، وغمزه على معناه حتى فهم فقال: يا غلام، ألف دينار، فأتى بذلك فوضعه بين يدي العتابي، وأخذوا في الحديث، وغمز المأمون إسحاق بن إبراهيم عليه فجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه فيه إسحاق، فبقي العتابي متعجباً ثم قال: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم، سل: فقال لإسحاق: يا شيخ من أنت؟ وما اسمك؟ قال: أنا من الناس، واسمي كل بصل. فتبسم العتابي وقال: أما أنت فمعروف، وأما الاسم فمنكر. فقال إسحاق: ما أقل إنصافك، أتنكر أن يكون اسمي كل بصل، واسمك كل ثوم، وكل ثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتابي: لله درك، فما أحجك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلتني به؟ فقال له المأمون: بل ذلك موفر عليه وتأمر له بمثله. فقال له إسحاق: أما إذا أقررت بهذا فتَوهَّمْني [٧١٩] تجدني، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي، الذي تناهى إلينا خبره، قال: أنا حيث ظننت، وأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون، وقد طال الحديث بينهما، أما إذ قد اتفقتما على المودة فانصرفا متنادمين، فانصرف العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده".

(٦)

وله قول مع القاضي يحيى بن أكثم حينما طلبه العتابي يطلب له الإذن بالدخول على الخليفة، كما روى ذلك صاحب الأغاني:

" وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه، فصادف يحيى بن أكثم، جالساً ينتظر الإذن، فقال له: إن رأيت – أعزك الله – أن تذكر أمري لأمير المؤمنين إذا دخلت فافعل – قال له: لست – أعزك الله – بحاجبه، قال: فإن لم تكن حاجباً فقد يفعل مثلك ما سألت، واعلم أن الله – عز وجل – جعل في كل شيء زكاة، جعل زكاة المال رفد المستعين، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف، واعلم أن الله – عز وجل – مقبل عليكم بالزيادة إن شكرت، أو التغيير إن كفرت، وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأني أدعوك إلى ازدياد نعمتك، وأنت تأبى. فقال له يحيى: أفعل وكرامة. وخرج الإذن ليحيى فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمونَ للعتابي، فأذن له".

([٧١٧]) الأغاني ١١١/١٣ – ١١٢، تاريخ بغداد ٤٨٩/١٢، ٤٩٠.

([٧١٨]) ذلقٍ: طلق.

([٧١٩]) توهمني: خَمِّن من أنا تعرفني.

(٧)

وهو يخاطب أصحاب السلاطين فيقول[٧٢٠]:

"إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإياك والإلحاح عليه، فإن إلحاحك يَكْلَمُ عرضك ويريق ماء وجهك، فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه، وحرمان النجاح، فإنه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب".

(٨)

وكان العتابي قليل الإقدام إلى الخلفاء والأمراء كثير الإحجام عنهم، قد سئل "لم لا تتقرب بأدبك إلى السلطان؟ فقال: لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء. ولا أدري أي الرجلين أكون"[٧٢١].

(٩)

"وقيل للعتابي: إنا نراك زاهداً في استطراف الإخوان؟ قال: إني لم أحمد تالدهم" [٧٢٢]، وفي هذا إشارة إلى أنه لم يمدح السابقين فهو عن المدح للاّحقين أغنى.

(١٠)

ومن أقواله في الصديق ما رواه أبو حيان التوحيدي[٧٢٣]:

" قال العتابي: لا أحب رجلاً نقل إليّ ما كرهت عن صديقي فغيرني له، ولا عن عدو فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستحي بأن واجهني بما ساءني سماعه".

(١١)

وله محاورة مع إعرابي حول الصديق المخلص[٧٢٤]:

"قال العتابي: قلت لأعرابي قُحٍ: إني أريد أن أتخذ صديقاً فابعثه لي حتى أطلبه قال: لا تبعث فإنك لا تجده، قلت: فابعثه كيفما كان حتى أتمناه وإن كنت لا ألقاه. قال: اتخذ من ينظر بعينك، ويسمع بأذنك، ويبطش بيدك، ويمشي بقدمك، ويحط في هواك، ولا يراه سواك، اتخذ من إن نطق فعن فكرك يستملي، وإن هجع فبخيالك يحلم، وإن انتبه فبك يلوذ، وإن احتجت إليه كفاك، وإن غبت عنه ابتداك، يستر فقره عنك لئلا تهتم له، ويبدي يساره لك لئلا تنقبض عنه".

وهكذا نجده يهتم بأي كلمة في الإخوان والصداقة، وذلك دليل على أنه لا يقول ذلك ارتجالاً بل يقصده قصداً.

(١٢)

ويقول لصاحبه له[٧٢٥]:

---

(٧٢٠) العقد الفريد ١٧٣/١.

(٧٢١) المستطرف ١١٢/١، ضحى الإسلام ١٢٩/١، ١٣٠.

(٧٢٢) الصداقة والصديق ٢٩.

(٧٢٣) الصداقة والصديق ١١٧.

(٧٢٤) الصداقة والصديق ٢٢٨.

"قد عرضت قبلك حاجة، فإن نجحت بك فالفاني منها حظي، والباقي حظك، وإن تعذرت فالخير مظنون بك، والعذر مقدم لك".

(١٣)

وسئل العتابي عن المودة، فقال [٧٢٦]:

"إخفاء مالا يستحيا من إظهاره، ومواطأة القلب اللسان".

(١٤)

واعتذر إليه رجل فقال له [٧٢٧]:

"إني إن لم أقبل عذرك كنت أَلأَمَ منك، وقد قبلت عذرك، فدم على لوم نفسك في جنايتك تزد في قبول عذرك والتجافي عن هفوتك".

(١٥)

وله ما رواه البغدادي حيث قال[٧٢٨]:

"أخبرنا أحمد بن علي بن الحسين المحتسب أخبرنا المعافى بن زكريا حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد حدثنا الرقاشي، قال مالك بن طوق للعتابي:

يا أبا عمرو رأيتك كلمت فلاناً فأقللت كلامك؟ قال: نعم. كانت معي حيرة الداخل، وفكرة صاحب الحاجة، وذل المسألة، وخوف الرد، مع شدة الطمع".

(١٦)

وله في السخرية من الناس قوله [٧٢٩]:

"أخبرني الحسن بن علي، قال: حدثنا بن مهروبه، قال: حدثنا عثمان الوراق قال: "رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحكم أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لوكنا في دار فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر. فقال فوعظ وقص ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فما بقى واحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه، ويقدره حتى يبلغها أم لا. فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟".

(١٧)

وذكر أنه قال [٧٣٠]:

"إذا وليت عملاً فانظر من كاتبك، فإنما يعرف مقدارك منْ بَعُدَ عنك بكاتبك، واستعقل حاجبك،

([٧٢٥]) لباب الآداب ٣٤٠، العتابي ٩٤.

([٧٢٦]) الموشى ٥٣.

([٧٢٧]) الأغاني ١١٥/١٣.

([٧٢٨]) تاريخ بغداد ٤٩١/١٢.

([٧٢٩]) الأغاني ١١٤/١٣..

([٧٣٠]) مروج الذهب ١٦/٤.

فإنما يقضي عليك الوفود قبل الوصول إليك بحاجبك، واستكرم واستظرف جليسك ونديمك، فإنما يوزن الرجل بمن معه".

(١٨)

وله في الخلوة قوله [٧٣١]:

"ما رأيت الراحة إلا مع الخلوة، ولا الأنس إلا مع الوحشة".

(١٩)

وروى له صاحب نور القبس[٧٣٢]:

"حدثني من رأى العتابي يخاصم وقد زاد في القول واضطرب، فعوتب على ذلك فقال: إذا تشـــاجرت الخصوم طاشت الحلوم ونسيت العلوم".

وروى ابن قتيبة قوله[٧٣٣]:

"قيل للعتابي: فلان بعيد الهمة، قال: إذن لا يكون له غاية دون الجنة".

(٢٠)

وهو يعرّف الإخوان بقوله[٧٣٤]:

"الإخوان ثلاثة أصناف: فرع بائن من أصله، وأصل متصل بفرعه، وفرع ليس له أصل. فأما الفرع البائن من أصله فإخاء يُبنى على مودة ثم قطعت فحفظ على ذمام الصحبة، وأما الأصل المتصل بفرعه فإخاء أصله الكرم وأغصانه التقوى، وأما الفرع الذي لا أصل له فالسوء الظاهر الذي ليس له باطن".

(٢١)

"وقيل للعتابي [٧٣٥]:

هل تعرف أحداً لا عيب فيه؟ قال: إن الذي لا عيب فيه لا يموت أبداً ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة؟

(٢٢)

وله [٧٣٦]:

وسئل العتابي عن الحسن الطالبي، فقال: إن جليسه لطيب عشرته لأطرب من الإبل على الحداء، ومن الثمل على الغناء".

([٧٣١]) العقد الفريد ١٤٧/٣.

([٧٣٢]) نور القبس ٣٣٦.

([٧٣٣]) عيون الأخبار ٢٣٣/١.

([٧٣٤]) العقد الفريد ٢٠٠/٢.

([٧٣٥]) العقد الفريد ٣/١.

([٧٣٦]) العقد الفريد ٨٨/٢.

(٢٣)

وقال في وصف الإخوان [٧٣٧]:

"شر الإخوان من إذا وجد مادحاً مدح، وإن وجد قادحاً قدح، وإن استودع السر فضح".

(٢٤)

وقال أيضاً: "الشيب تاريخ الكتاب".

(٢٥)

وقال أيضاً: "لو سكت من لا يعلم عما لا يعلم سقط الاختلاف".

(٢٦)

وقال [٧٣٨]:

"إذا حبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف".

(٢٧)

وقال العتابي[٣]:

"ما رأيت الراحة إلا مع الخلوة، ولا الأنس إلا مع الوحشة".

(٢٨)

وروى ابن عبدربه قوله[٤]:

"بلغني أن صديقاً لكلثوم العتابي أتاه يوماً فقال له: اصنع لي رسالة، فاستمد قوة ثم علق القلم، فقال له صاحبه: ما أرى بلاغتك إلا شاردة عنك، فقال له العتابي: إني لما تناولت القلم تداعت علي المعاني من كل وجهة، فأحببت أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه، ثم أجتني لك أحسنها".

(٢٩)

وكان يقول في السياسة[١]:

"ما يعين على العدل اصطناع من يؤثر التقى، واطراح من يقبل الرشا، واستكفاء من يعدل في القضية، واستخلاف من يشفق على الرعية".

(٣٠)

وروى له الراغب الأصبهاني[٢]:

"سئل مرة: لم لا تقصد السلطان فتخدمه؟ فقال: لأني أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب، ولست أرجو منه مقدار ما أخاطر به".

(٣١)

([٧٣٧]) غرر الخصائص ٤٧١.

([٧٣٨]) العقد الفريد ٢/٢٧٥.

(3) العقد الفريد ٣/١٤٧.

(4) العقد الفريد ٤/٢٢٨.

(1) لباب الآداب ٥٥.

(2) محاضرات الأدباء للراغب ١/٩٢.

وقال العتابي لصاحب له [٧٣٩]:

"ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوة كامل المروءة، إذا غبت خلفك، وإذا حضرت كنفك، وإذا أنكرت عرفك، وإذا جفوت لاطفك، وإذا بررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كف عنك غرب العادية، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته استرحت".

(٣٢)

وروى له الخطيب إجابة عن سؤال حول معاملة العامة فقال [٧٤٠]:

"إنك تلقى العامة ببشر وتقريب ". فيجيب هذه الإجابة التي تجمع الحكمة إلى البساطة والدهاء إلى السماحة:

"رفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأهون مبذول".

(٣٣)

أمر المأمون أن تكون مناظرة بين العتابي وأبي قرة النصراني، كما روى ذلك النمري القاضي [٧٤١]:

"جمع المأمون بين العتابي وبين أبي قرة النصراني، فقال لهما: تناظرا وأوجزا. فقال العتابي لأبي قرة: أسألك أم تسألني؟ فقال: سلني. قال: ما تقول في المسيح؟ قال: أقول إنه من الله عز وجل. فقال العتابي: إن (من) تجيء على أربعة أوجه: فالبعض من الكل على سبيل التجزؤ، والولد من الوالد على سبيل التناسل، والخل من الخمر على سبيل الاستحالة، والخلق من الخالق على سبيل الصنعة، فهل عندك خامسة، قال: لا، ولكني لو قلت واحدة من هذه ما كنت تقول؟ فقال العتابي: إن قلت: أنه كالبعض من الكل جزأته، والبارئ لا يتجزأ، وإن قلت: إنه كالولد من الوالد أوجبت ثانياً من الأولاد وثالثاً ورابعاً إلى مالا نهاية، وهذا لا يجوز على البارئ عز وجل، وإن قلت على سبيل الاستحالة أوجبت فساداً، والبارئ لا يستحيل، ولا ينتقل من حال إلى حال، وإن قلت: إنه كالخلق من الخالق كان قولاً حقاً، وهو الحق الذي لا شك فيه".

وقد روى التلمساني هذا الحوار بأسلوب آخر[٧٤٢].

"وقال العتابي لأبي قرة النصراني عند المأمون: ما تقول في المسيح؟ قال: من الله قال: البعض من الكل على سبيل التجزيء، والولد من الوالد على طريق التناسل، والخل من الخمر على وجه الاستحالة، والخلق من الخالق على وجه الصنعة، فهل من معنى خامس؟ قال: لا، ولكن لو قلت بواحدة منها ما كنت تقول؟ قال: البارئ لا يتجزأ، ولو جاز عليه، ولو لجاز له ثان وثالث وهلم جرا. ولو استحال فسد، والرابع مذهبنا وهو الحق".

([٧٣٩]) الصداقة والصديق ٢٢.

([٧٤٠]) تاريخ بغداد ٤٨٩/١٢.

([٧٤١]) بهجة المجالس وأنس المجالس ١٠٦/١.

([٧٤٢]) نفح الطيب ٢٩١/٥.

(٣٤)

وروى له الأغاني [٧٤٣]:

"وقيل له: لو تزوجت. فقال: "إني وجدت مكابدة العفة أيسر علي من الاحتيال لمصلحة العيال".

(٣٥)

وقال العتابي [٧٤٤]:

"ظاهر العتاب خير من مكنون الحق، وضربة الناصح خير من محبة الشانئ".

(٣٦)

وروى الأغاني حديثه مع يحيى بن خالد [٧٤٥]:

"كلم العتابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة فقال له يحيى: لقد ندر كلامك اليوم وقل. فقال له: كيف لا يقل وقد تكنفني ذل المسألة، وحيرة الطلب، وخوف الرد؟ فقال: والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده، وقضى حاجته".

(٣٧)

روى ابن عبد ربه قوله [٧٤٦]:

"قيل للعتابي: ما البلاغة؟ قال: إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق".

(٣٨)

ومن أقوال العتابي في البلاغة ما روى صاحب العقد الفريد[٧٤٧]:

"وقال رجل للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من بلغك حاجته، وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسة ولا استعانة، فهو بليغ. قالوا: قد فهمنا الإعادة والحبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عثنونه، أو يفتل أصابعه، أو يكثر التفاته من غير موجب، أو يتساعل من غير سعلة، أو ينهر في كلامه ".

(٣٩)

وقال العتابي في إجابة على من سأله: ما أقرب البلاغة؟:

"فقال: ألا يؤتى السامع من سوء إفهام القائل، ولا يؤتي القائل من سوء فهم السامع" [٧٤٨].

([٧٤٣]) الأغاني ١١٦/١٣.

([٧٤٤]) بهجة المجالس وأنس المجالس ٧٢٤/١.

([٧٤٥]) الأغاني: ١١٤/١٣.

([٧٤٦]) العقد الفريد ١٠٦/٢.

([٧٤٧]) العقد الفريد ١٠٩/٢.

([٧٤٨]) الكامل ١٢٨٩/٣.

(٤٠)

ومن أقواله في البلاغة [٧٤٩]:

"كل من أفهمك حاجته فهو بليغ".

(٤١)

ومن أقوال العتابي[٧٥٠]:

"الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً، أفسدت الصور وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية".

(٤٢)

وقال العتابي [٧٥١]:

"ببكاء القلم تبتسم الكتب".

"الأقلام مطايا الفطن"[٧٥٢].

(٤٧)

وقال أيضاً: "ببكاء القلم يضحك الخط" [٧٥٣].

وقال أيضاً: الأقلام مطايا الأذهان" [٧٥٤].

(٤٨)

وقال أيضاً [٧٥٥]:

"برى القلم تروي العقول الظماء".

(٤٩)

وله قوله [٧٥٦]:

"الشيب تاريخ الكتب".

([٧٤٩]) كتاب الصناعتين ١٧.

([٧٥٠]) كتاب الصناعتين ١٦٧.

([٧٥١]) العقد الفريد ٢٤٨/٤.

([٧٥٢]) العقد الفريد ٢٤٨/٤.

([٧٥٣]) التنبيه على حدوث التصحيف ٥٢.

([٧٥٤]) التنبيه على حدوث التصحيف ٥٤.

([٧٥٥]) التنبيه على حدوث التصحيف ٥٤.

([٧٥٦]) البيان والتبيين ٣٣٣/١.

(٥٠)

وقد اهتم بالقرطاس والقلم والنظافة، ونستفيد ذلك من خلال إجابته الأصمعي حينما حاوره كما روى ذلك العقد الفريد [٧٥٧]:

"أي الأنابيب للكتابة أصلح، وعليها أصبر؟ فقال العتابي: ما نشف بالهجير ماؤه، وستره عن تلويحه غشاؤه، من التبرية القشور، الدرية الظهور، الفضية الكسور. قال: فأي نوع من البري أصوب وأكتب؟ فقال: البرية المستوية القَطّة، التي عن يمين سناها قرنة تأمن معها المجبة عند المدة والمطة، للهواء في شقها فتيق، والريح في جوفها حريق، والمدد في خرطومها رفيق. قال العتابي: فبقي الأصمعي شاخصاً إلي ضاحكاً، لا يحير مسألة ولا جواباً".

(٥١)

كما نجده يتحدث عن العمار وجمالها وذوق الناس فيها، فيرى أن: [٧٥٨] "جمال كل مجلس أن يكون سقفه أحمر، وبساطه أحمر".

الخاتمة:

ونخلص في النهاية إلى القول أن العتابي له مكانته البارزة والمرموقة في مجتمعه بين علماء عصره وكبار القوم أجمع، فهو معتز بذاته، جمع بين أخلاق البادية الحسنة وصفات العلم والعقل، فجسدها في تصرفاته، فأصبح علمه قدوة، وأصبح قوله حكمة، وليس أدل على ذلك من استشهاد ابن عبد ربه بأقواله في مقدمة أكثر كتب العقد الفريد:

ثم إن العتابي رجل جوال آفاق طالب علم، فهو يتنقل بين أقطار العالم الإسلامي، ويتصيد أهل العلم كما يتصيد الكتب والمكتبات، ويمكث فيها الأشهر، وقد تعلم اللغة الفارسية ودرس تراث الفرس من خلالها، كما اطلع على كتب اليونان في الفلسفة والمنطق، مما كون عنده ثروة هائلة من تراث الأمم القديمة، بالإضافة إلى أنه راوٍ مشهور في الشعر والأقوال المأثورة كما درس علوم القرآن والحديث الشريف، وعاش حياة المجادلة والمناظرة، وعاصر طفرة المعتزلة، وجالس المأمون وناظر في مجلسه. كل ذلك كون عنده ثورة علمية وثقافية.

وهو من أولئك المشهود لهم بالعقل والفكر الثاقب في زمانه، لذلك فتحت له المجالس، حتى أبواب الخلفاء والوزراء والأمراء، فقد جالس البرامكة ومدحهم، ثم اتصل بهارون الرشيد لكن حدث بينهما بعض الفجوات التي لا تلبث أن تندمل، كما احتضنه طاهر بن الحسين وأولاده من بعده فجالسهم ومدحهم، ووضع رحاله في ختام حياته بين يدي المأمون ذاك الخليفة العالم المعتزلي، وقد أُثِرت عنه أقوال كثيرة دوّنها الأدباء في كتبهم وضاع بعضها، ومثل هذا الحوار والأقوال التي تدور في حضرة الأكابر فإنها تدل على علم الرجل ومكانته وقدرته العقلية، فضلاً عن استفادته من هذه المجالس وإعداده نفسه لها. وهذا ما نلمحه في تراث العتابي، فمثلاً

([٧٥٧]) العقد الفريد ١٧٣/٤.

([٧٥٨]) ضحى الإسلام ٩٣/١.

إذا نظرنا إلى شعره وجدناه من المقدمين في علم البديع، وجارى عصره في التزيين اللفظي مع سبقه لشعراء عصره في الفكر والثراء العقلي، كما هو من أوائل الشعراء الذين اهتموا بالصورة الشعرية وتركيبها.

وهو رائد في النثر الفني، بل من قادة حركة النثر الفني الذي نافس الشعر، حيث طرقوا نفس الأغراض التي كانت في فترة من الفترات خاصة بالشعر.

كما أنني تتبعت آثاره الشعرية والنثرية في كتب الأدب، ثم جمعتها وحققتها وصنفتها ودرستها، وقد شرحت معانيها، وأثبت مصادرها، حتى يكون تراث هذا العالم الشاعر الكاتب البليغ في متناول الدارس، يأخذ منها عبارات وعظات ذاتية قبل كل شيء، وإنها لجديرة بالوقفات الطويلة، وبهذه الدراسة عن حياة العتابي وأدبه، وإظهارها في مصنف واحد يخدم القارئ والباحث آمل أن أكون قد ساهمت في إخراج هذه الشخصية التي كادت تتلاشى من التراث الأدبي العربي.

والله الموفق،،،

فهرس المصادر والراجع:

الكتب:	
الأعلام	: خير الدين الزركلي، بيروت، الطبعة الثالثة.
الأغاني	: لأبي فرج الأصبهاني، مصور عن طبعة دار الكتب.
أمالي المرتضى	: للشريف المترضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القسم الأول، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
الأمالي	: لأبي على القالي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.
الإمتا ع والمؤانسة	: لأبي حيان التوحيدي.
آمل الآمال	: تحقيق رمضان شيش
الأنساب المتفقه	: أبو الفضل محمد بن طاهر، دي يونج، ١٨٧٥ م.
البديع في نقد الشعر	: لأسامة بن منقذ، تحقيق الدكتور أحمد أحمد البدوي والدكتور حامد عبد المجيد، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومى	: دكتور علي علي صبح، الطبعة الأولى ١٣٩٦ ه،، مطبعة الأمانة بمصر.
بهجة المجالس	: للإمام أبي عمر يوسف النمري القرطبي، تحقيق محمد مرسى الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
تاريخ آداب اللغة العربية	: جرجى زيدان، مكتبة الحياة بيروت لبنان ١٣٨٨ ه.
تاريخ الأدب العربي	: كارل بركلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر.
تاريخ بغداد	: للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.
تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي	: أنيس المقدسى، دار العلم للملايين.بيروت.الطبعة الخامسة.
التمثيل والمحاضرة	: لأبي منصور الثعالبي، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى الحلبي، تحقيق عبد الفتاح الحلو.
التنبيه على حدوث التصحيف	: لحمزة بن حسن الأصبهاني، تحقيق محمد أسعد طلس، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
تهذيب الجليس ومنية الأديب والأنيس	: الحسيني العباس بن علي، النجف ١٩٦٨م.
ثمار القلوب	: لأبي منصور الثعالبى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع، مطبعة المدني، ١٣٨٤ ه.
جمهرة أنساب العرب	: لابن سهل الأندلسى.

جمهرة رسائل العرب	: أحمد زكى صفوت. مطبعة مصطفى البابي الحلبى بمصر، الطبعة الثانية ١٣٩١ه.
الحركة النقدية حول أبي تمام	: الدكتور محمود الربداوي، دار الفكر.
حماسة ابن الشجري	: هبة الله العلوي، حيدر آباد، ١٣٤٥ ه.
الحماسة البصرية	: أبو الفرج البصري، حيدر آباد ١٩٦٤ م.
الحيوان	: عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مصطفى الحلبى ١٣٦٤ ه.
خلاصة الذهب المسبوك	: عبد الرحمن سنبط.
دائرة المعارف الإسلامية	: انتشار جهان ثران يوذر جمهري.
ديوان أبي تمام	: شرح الخطيب التبريزي تحقيق عبده عزام، دار المعارف بمصر.
ديوان النابغة	: تحقيق شكري فيصل، دار الفكر.
ديوان المعاني	: لأبي هلال العسكري ١٣٥٢ه.
زهر الآداب	: إبراهيم على الحصري القيرواني، تعليق الدكتور زكى مبارك، دار الجيل، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.
شرح المعلقات	: للزوزني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية.
شرح ديوان صريع الغواني	: تحقيق الدكتور سامى الدهان، دار المعارف بمصر ١٩٧٥.
الشعر والشعراء	: لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر ١٣٨٦ م دار المعارف بمصر.
الشعر والشعراء في العصر العباسى	: دكتور مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثانية.
سيرة النبى صلى الله عليه وسلم	: لعبد الملك بن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
الصداقة والصديق	: لأبي حيان التوحيدي،تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني دار الفكر بدمشق.
الصبغ البديعى في اللغة العربية	: الدكتور أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي ١٣٨٨٠
الصداقة والصديق	: لأبي حيان التوحيدي تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر بدمشق.
ضحى الإسلام	: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة.
الطريق إلى الله	: دكتور عبد الحليم محمود، دار الإنسان، الطبعة الثالثة، ١٣٩٢ه.
طبقات الشعراء	: لأبن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر.
طيف الخيال	: للشريف المرتضى، تحقيق حسن كامل الصيرفي،

	راجعه إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية.
العتابي	: دكتور أحمد محمد النجار، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٧٥ م.
العصر العباسى الأول	: دكتور شوقى ضيف، دار المعارف، الطبعة السابعة.
العقد الفريد	: أحمد محمد عبد ربه الأندلسي تحقيق سعيد العريان ١٣٧٢ ه.
العمدة	: لأبن رشيق، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م.
عيون الأخبار	لابن قتيبة، دار الكتب.
فصول في الشعر ونقده	: الدكتور شوقى ضيف، دار المعارف بمصر.
فوات الوفيات	: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
الفن ومذاهبه في النثر العربي	: دكتور شوقى ضيف، دار المعارف بمصر.
قطب السرور	: أبو إسحاق إبراهيم تحقيق أحمد الجندي، دمشق ١٩٦٩ م.
الكامل في اللغة والأدب	: للمبرد.
كتاب البديع	: لعبد الله بن المعتز، نشره المستشرق اغناطيوس كراتشعوفسكى.
كتاب الصناعتين	: لأبي هلال العسكري، تحقيق على محمد البجاوي،محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
كتاب الوزراء والكتاب	: لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، تحقيق مصطفى إبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى الحلبى وأولاده.
اللطائف والظرائف	: أبو النصر أحمد بن عبد الرازق القاهرة ١٣٩٦ ه.
مقالب الوزير	: لأبي حيان التوحيدي، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر بدمشق.
المحاسن والمساوئ	: تأليف إبراهيم البيهقى، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.
محاضرات الراغب الأصبهاني	:
مروج الذهب	: للمسعودي، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، بالقاهرة الطبعة الرابعة ١٣٨٤ ه.
المستظرف	: شهاب الدين محمد، القاهرة المكتبة التجارية. مضاهاة أمثال كليلة ودمنة شبهها من أشعار العرب.
معجم الأدباء	: ياقوت الحموي صححه د. س مرجليوث، الطبعة

	الثانية مطبعة هندية بالموسكى بمصر ١٩٣٠ م.
معجم البلدان	: ياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت ١٣٧٦ ه.
معجم الشعراء	: لأبي عبد الله بن محمد بن عمر المرزباني.
معجم قبائل العرب	: دار العلم للملايين بيروت ١٣٨٨ ه.
المجتمع	: عبد الكريم النهشلى القيرواني، تحقيق الدكتور منجى الكعبى، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ١٩٧٨ م.
من تاريخ الأدب العربي	: طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت.
من حديث الشعر والنثر	: الدكتور طه حسين، دار المعارف، بمصر.
من قضايا الشعر والنثر	: د. عثمان موافي، مؤسسة الثقافة الجامعية.
الموشى	: لأبي الطيب محمد بن إسحاق الوشاء، دار صادر بيروت ١٣٨٥ ه.
الموشح	: لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تعليق محب الدين الخطيب،الطبعة الثانية ١٣٨٥ ه، المطبعة السلفية.
المنتحل	: تحقيق أحمد أبو على، إسكندرية،١٩٠١ م.
النثر الفنى	: زكى مبارك، دار الكاتب العربي،بالقاهرة.
فتح الطيب	: الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، دار صادر بيروت ١٣٨٨ ه.
النجوم الزاهرة	: مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
نهاية الأرب	: شهاب الدين أحمد عبد الوهاب النويري، طبعة دار الكتب.
نور القبس	: لأبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق رودلف لهايم، ١٩٦٤ م.
نزهة الجليس ومنية الأديب والأنيس	: الحسيني العباس بن علي، النجف ١٩٦٨ م.
وفيات الأعيان	: لابن خلكان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى ١٣٦٧ ه، مطبعة السعادة بمصر.
الدوريات	
المربد	مجلة الآداب، البصرة، جامعة البصرة، دار الطباعة الحديثة، المجلد ٢- ١٩٦٩.

المحتويات

المقدمة..... ٢
الباب الأول..... ٤
عصره وحياته ٤
الفصل الأول عصره ٤
الحياة السياسية : ٤
الحياة الاجتماعية : ٨
الحياة الثقافية: ١٠
الفصل الثاني ١٥
اسمه ونسبه: ١٥
نشأته..... ٢٠
مكان ولادته: ٢١
أثر القبيلة في حياته:..... ٢٢
رحلاته: ٢٤
صلاته: ٢٧
ثقافته وعواملها:..... ٣٩
حالته الاجتماعية: ٤٢
عقيدته:..... ٤٤
وفاته: ٤٨
الباب الثاني ٥٠
شعره..... ٥٠
الفصل الأول أغراض شعره..... ٥٠
المدح:..... ٥٠
العتاب:..... ٦٣
الغزل:..... ٦٤
الوصف:..... ٦٧
الحكم: ٧٠

هجاؤه: ٧١
الفصل الثاني ٧٨
الخصائص المعنوية..... ٧٨
الخصائص التعبيرية الفنية:..... ٨٣
الموسيقي عند العتابي ٩٣
الخيال عند العتابي..... ٩٤
آراء النقاد في شعره..... ٩٦
الفصل الثالث ٩٩
ديوان العتابي ومصادره..... ٩٩
حرف الهمزة..... ٩٩
حرف الباء ٩٩
حرف الدال..... ١٠٥
المناسبة:قال هذه القصيدة يمدح هارون الرشيد : ١٠٨
حرف العين..... ١١٥
حرف القاف..... ١١٥
حرف الكاف ١١٨
حرف اللام ١١٨
حرف الميم..... ١٢٠
حرف النون..... ١٢١
حرف الهاء..... ١٢٣
حرف الياء..... ١٢٤
الباب الثالث ١٢٥
تمهيد: ١٢٥
الفصل الأول..... ١٢٧
أولاً: رسائله: ١٢٧
الفصل الثاني ١٣٨
خصائص نثره ١٣٨
آراء النقاد في نثره ١٤١

الفصل الثالث ١٤٣
آراؤه في البلاغة والنقد..... ١٤٣
العتابي والشعراء: ١٤٥
الفصل الرابع..... ١٥٠
آثاره النثرية ١٥٠
رسائله..... ١٥٠
حواره وأقواله المأثورة..... ١٥٦
الخاتمة: ١٦٦
فهرس المصادر والراجع:..... ١٦٨